السلسلة 4 : تاريخ الموريسكيين الأندلسيين رقم 29

أ.د. عبد الجليل التميمي

تراجيديا طرد الموريسكيين من الأندلس والمواقف الإسبانية والعربية الإسلامية منها

منشورات مركز الدراسات والترجمة الموريسكية
منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات
فيفري / شباط 2011

تراجيديا طرد الموريسكيين من الأندلس والمواقف الإسبانية والعربية الإسلامية منها

منشورات

مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات

مؤسسها ومديرها

الأستاذ المتميز د. عبد الجليل التميمي

من نشاط المؤسسة :

أنشئت هذه المؤسسة منذ عشرين سنة بمدينة زغوان من قبل د. عبد الجليل التميمي، الأستاذ المتميّز بكلية العلوم الإنسانية والإجتماعية لجامعة تونس، وانتقل مقرها إلى تونس قبل ست سنوات. ومن أهدافها :

- إنشاء بنوك معلومات حول تاريخ الولايات العربية أثناء العهد العثماني والبحث العلمي والآثار العثمانية والدراسات الموريسكية-الأندلسية والتاريخ المعاصر المغاربي والعربي والتركي، بما في ذلك فترة حكم الرئيس الحبيب بورقيبة، وعلم الأرشيف والمكتبات والمعلومات وقاعدة بيانات للإرشادات الببليوغرافية بالموضوعات السالفة الذكر.

- إنشاء مكتبة في هذه الإختصاصات الحيوية من المعرفة وتضم اليوم 20.000 عنوانا هي رصيد مكتبة الأستاذ التميمي الشخصية، هذا فضلا عن قسم الدوريات.

- إرساء تعاون علمي بين الباحثين العرب والدوليين.

- تشرف المؤسسة على نشر ثلاث دوريات أكاديمية هي : **المجلة التاريخية المغاربية التي** بدأ صدورها منذ 1 جانفي 1974. وقد صدر العددان 139 و140 في شهر جويلية/ تموز 2010 **والمجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية**، والتي صدر العددان 41 و42 في شهر ديسمبر/كانون الأول 2010، **والمجلة العربية للأرشيف والتوثيق والمعلومات**، وحيث صدر العددان 27-28 في آخر شهر ديسمبر / كانون الأول 2010.

كما نشرت المؤسسة 177 كتابا في كل تخصّصاتها وبعدة لغات. وهذا ما جعل هاته المؤسسة الأكاديمية الخاصة، تعد اليوم من أنشط المخابر المعرفية على الصعيدين العربي-الإسلامي والدولي في العلوم الإنسانية والاجتماعية، وتم ذلك دون ضجيج إعلامي ولا دعم من أية جهة كانت. وقد نظمت المؤسسة 222 بين مؤتمرات عربية ودولية وحوارات متعددة الاختصاصات وسيمنارات الذاكرة الوطنية، وتوفقت في إثراء الحوار الأكاديمي لمئات المتخصصين العرب والدوليين.

السلسلة 4 : تاريخ الموريسكيين الأندلسيين رقم 29

تراجيديا طرد الموريسكيين من الأندلس والمواقف الإسبانية والعربية الإسلامية منها

إشراف وتقديم الأستاذ المتميز

د. عبد الجليل التميمي

منشورات مركز الدراسات والترجمة الموريسكية

منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات

فيفري / شباط 2011

بعض كتب المؤلف

- بحوث ووثائق في التاريخ المغربي، الجزائر وتونس وليبيا من 1816 إلى 1871، الطبعة الأولى، الدار التونسية للنشر 1972 والطبعة الثانية، 254 ص، تونس 1984، بالعربية والفرنسية.
- "Le Beylik de Constantine de Hadj Ahmed Bey (1830-1837)", 303p + 24 planches, Tunis, 1978.
- **موجز الدفاتر العربية والتركية بالجزائر**، 196ص، تونس 1983. **Sommaire des registres arabes et turcs d'Alger**, Tunis 1979.
- **الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلسيين**، 189ص، باللغتين العربية والفرنسية، زغوان 1989.
- **دراسات في التاريخ الموريسكي الأندلسي**، 172ص، باللغتين العربية والفرنسية، فيفري 1993.
- **دراسات في التاريخ العربي – العثماني 1453-1918**، بالعربية والفرنسية، 206ص، مارس 1994.
- **دراسات في التاريخ العربي – الإفريقي**، 168ص، بالعربية والفرنسية، زغوان، أكتوبر 1994.
- **البيليوغرافيا العامة للدراسات الموريسيكية – الأندلسية**، 370ص، زغوان، مارس/أفريل 1995.
- **دراسات في العلاقات المسيحية الإسلامية**، 206ص، بالعربية والفرنسية، زغوان 1996.
- دراسات **ووثائق حول التاريخ المغاربي الحديث في العهد الحديث**، 350ص، بالعربية والفرنسية، 1999.
- **أزمة البحث في العلوم الإنسانية في تونس والبلاد العربية**، 194ص، زغوان، أكتوبر 1999.
- **كتابة التاريخ العربي بين الطموح وفشل الإنجاز**، 226ص، بالعربية والفرنسية، زغوان، ديسمبر 1999.
- **دراسات جديدة في التاريخ الموريسكي**، 229 ص، بالعربية والفرنسية، زغوان، جويلية 2000.
- **دراسات في العلاقات العربية العثمانية والتركية**، 278ص، بالعربية والفرنسية، زغوان نوفمبر 2000.
- **دراسات في منهجية الحكم والسياسة البورقيبية**، بالعربي وفرنسي، 164ص، زغوان، مارس 2004.
- **تساؤلات حول مجتمع المعرفة والمؤرخين والنخب في البلاد العربية**، 204 ص بالعربية والفرنسية، 2004.
- **دراسات في التاريخ العثماني المغاربي خلال القرن السادس عشر**؛ ماي/ آيار 2009، 335 ص.
- **أضواء جديدة حول شخصيات مغاربية: الأمير عبد القادر وعبد الكريم الخطابي والحبيب بورقيبة وعلال الفاسي وآخرين**، أفريل 2010، 349ص.
- **تراجيديا طرد الموريسكيين من الأندلس : والمواقف الإسبانية والعربية الإسلامية منها**، جانفي 2011، 261ص.

أربعة رسائل دكتوراه عربها المؤلف عن اللغتين التركية والفرنسية :

- د. ارجمنت كوران، **السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر، 1827-1847**، 110ص، الطبعة الأولى، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية لجامعة تونس، تونس 1970، الطبعة الثانية، تونس 1974.
- د. عبد الرحمن تشايجي، **المسألة التونسية والسياسة العثمانية 1881-1911**، منشورات المكتبة الشرقية، تونس، 1974، 331ص.
- د. لوي كارdياك، **الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون، المجابهة الجدلية 1492-1640**، مع دراسة عن الموريسكيين الأندلسيين بأمريكا، 200ص، الطبعة الأولى 1983، الطبعة الثانية، تونس، زغوان، 1989، 200ص.
- د. سلطان القاسمي، **العلاقات العثمانية الفرنسية 1715-1905**، منشورات دار لارماتان، باريس، 1995.

الإهـــــداء

إلى أحد بناة الدولة التونسية الحديثة

الأستاذ والباحث

مصطفى الفيلالي

تقديرا لتفانيه في خدمة البلاد منذ أكثر من ستين سنة راجيا أن يمد الله في أنفاسه ويمتعه بالصحة لمواصلة رسالته البحثية والوطنية

كشاف الموضوعات

القســـم العربـــي

الصفحة

القسم الفرنسي

البحوث :

منشورات مركز الدراسات والترجمة الموريسكية :
خطوة لتعميق الوعي وتجديد للمطالبة باعتذار إسباني لطرد الموريسكيين

حرصنا منذ سنة 1972 على تفعيل الاهتمام بالدراسات الموريسكية الأندلسية بنشرنا العشرات من الوثائق الجديدة التي عثرنا عليها بأرشيفات رئاسة الوزراء باستانبول ثم البندقية وفلورنسا وباريس، وقمنا بنشر عدد من الكتب حول ذلك. وقد تواصل اهتمامنا بتنظيم 14 مؤتمرا دوليا حول الدراسات الموريسكية وسيتم الخامس عشر في نفس السلسلة في أواخر شهر ماي 2011. وقد مكننا ذلك ولا شك من التعرف على مئات المؤرخين والباحثين من الجيلين السابق والجديد في البلاد العربية وفي عديد الدول الغربية والأمريكية ومن الهند وباكستان وروسيا واليابان، ممن شاركوا منذ البداية في فعاليات المؤتمرات التي عقدناها بتونس وزغوان وتم نشر أكثر من 650 دراسة أكاديمية باللغتين الإسبانية والفرنسية أساسا والقليل منها بلغة الضاد لأسباب عديدة.

وتحضرني الذاكرة اليوم كيف كانت وضعية الدراسات الموريسكية منذ 40 سنة، حيث لا يوجد في البلاد العربية والإسلامية إلا عدد ضئيل جدا، يعدون على الأصابع، ممن اهتموا بالفترة الموريسكية الأندلسية أي منذ سقوط غرناطة 1492 إلى طرد المسلمين من الأندلس سنة 1609، في حين يوجد أكثر من 200 باحث ومؤرخ أوربي وأمريكي قد تخصصوا في هاته الفترة الدقيقة جدّا من تاريخ أندلسنا، كما وأعدوا مئات الرسائل الجامعية والتي مازالت مخطوطة وهي حبيسة المكتبات الجامعية الإسبانية والفرنسية والدولية، كما قام هؤلاء الباحثون بنشر مئات الدراسات في عديد الدوريات الأكاديمية بإسبانيا وفرنسا وأمريكا، وحيث تمكننا بدعم علمي من أبي الدراسات الموريسكية الأستاذ الفرنسي ذي السمعة الدولية د. لوي كاردياك، أن ننجز وننشر : *البيبليوغرافيا العامة للدراسات الموريسكية*، ومن خلالها حثثنا على تفريع وتعميق هاته الدراسات على المستوى العربي والدولي، ملفتين انتباه الباحثين والمؤرخين الغربيين والأمريكيين إلى وجود أرصدة معلومات جديدة وهامة جدّا في الأرشيفات العثمانية والعربية، والتي وجب الاهتمام بها وتوظيفها في

البحث التاريخي مستقبلا، وهو الأمر الذي كان مغيبا تماما في كل الدراسات الغربية والأمريكية حتى سنة 1983.

ولا شك لدينا أن اهتمامنا بهاته الدراسات المتخصصة حول الموريسكيين، قد حقق نجاحا كبيرا وواسعا على صعيد الرأي العام العربي والإسلامي، إذ بفضل رصيد المعلومات المختلفة والتي عملنا على بثها وإبلاغها بكل الوسائل الحديثة على طريق النت وغيرها، إننا وفقنا بإبلاغ رسالتنا إلى الجميع، عندما ذكرنا بمأساة طرد الموريسكيين من أندلسهم وأحيينا ذكراهم في ضمير العرب والمسلمين، وقمنا بمناشدة السلط الإسبانية العليا، التوقف مليا حول هذه المأساة الفاجعة والتي لحقت ظلما بالموريسكيين ومعالجة هذا الملف من خلال تبني اعتذار حضاري يدين ما قامت به محاكم التفتيش يومئذ تجاههم وبكل قسوة.

وقد عرضنا لهذا الملف في الحوار الذي أجراه معي السيد جهاد فاضل وأثبتنا نصه في الكتابات بعد إجراء بعض التحوير عليه وأرفقناه بعدد من الملاحق المتمثلة في نصوص الرسائل التي وجهناها إلى جلالة الملك خوان كارلوس ورئيس وزرائها ووزير الخارجية الإسباني السابق، ثم استلامنا لبعض الردود التي وصلتنا تباعا، ليعكس كل ذلك مدى مواصلة تجاهل المسؤولين الإسبان لهذه القضية وإصرارهم على الرفض المطلق القيام بأي اعتذار تجاهها. ولعل السبب الجوهري في ذلك، كما ذكر لي سفير اسبانيا بتونس السيد Dr. Juan Ramón Martinéz Salazar أن الدولة الإسبانية على استعداد للقيام بذلك شريطة أن يكون هناك إجماع عام تحت إشراف وتنسيق جامعة الدول العربية ومنظمة المؤتمر الإسلامي والإسيسكو والألكسو مثلا، للمطالبة بهذا الاعتذار وأن يتم ذلك بشكل علني ورسمي، وهذا مثل ما حصل بلشبونة وعندما حضره رئيس جمهورية البرتغال يومئذ والعديد من المسؤولين العرب والمسلمين.

وعلى ضوء تدخل السفير هذا، قمنا بتوجيه رسائل إلى المنظمات العربية والإسلامية أي إلى الأمين العام لجامعة الدول العربية والأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي والمديرين العامين للإيسسكو والألكسو، ونقلنا إليهم جميعا عناصر هذا الملف. وللأسف العميق فإننا نسجل تغييبا وصمتا متعمدا إلى يوم الناس هذا، ولو

درى هؤلاء القادة والمسؤولون العرب والمسلمون مدى المسؤولية التاريخية التي تحملوها تجاه دقّة وأهمية هذا الملف، وهو موقف مدان حضاريا وحيث لم يتبنوا جميعهم أي مطالبة من السلط الإسبانية بتقديم هذا الاعتذار. وهذا ما جعل السلط الإسبانية العليا في حل من تقديم أي اعتذار وهو موقف يدينه الشرفاء والمؤرخون الحقيقيون في الأمة. ومع هذا سوف نواصل من جهتنا رسالتنا التبشيرية حتى تقوم إسبانيا بتقديم هذا الاعتذار، وهو أمر لا نشك مطلقا في حصوله طال الزمان أو قصر !

****

وكتابنا الجديد هذا ضم أربعة بحوث تناولت مدى تأثير الموريسكيين الحضاري بإيالة تونس ثم توقفنا حول المستوى اللغوي من خلال فرمانات عثمانية جديدة، كما وأبرزنا الحصيلة والتوجهات المستقبلية للدراسات الموريسكية عبر العالم لنختم هذا القسم بمواصلة تجاهل ملف هؤلاء الموريسكيين المساكين الذين ظلمتهم في الماضي محاكم التفتيش وظلمهم اليوم العرب والمسلمون جميعا : قادة ورأيا عامّا ونخبا ومنظمات عربية وإسلامية، عندما تفننوا في محو الذاكرة الجماعية الموريسكية ونسيانها تماما في المناهج المدرسية والسلوك الجماعي للعرب والمسلمين على حد سواء.

أما القسم الثاني من كتابنا، فقد قمنا بتعريب سبع دراسات فاصلة ومهمة جدا لمؤرخين وأعلام عرفناهم عن قرب ومن المشهود لهم بالقيمة العلمية الثابتة. واخترنا هذه الدراسات من بين مئات الدراسات التي نشرناها بالفرنسية والإسبانية في أعمال المؤتمرات التي قمنا بعقدها لدينا، والتي تميزت بأهمية الدلالات التي تضمنتها كظاهرة التكهن لدى الموريسكيين، والممارسات الإسلامية في مجابهة الطقوس المسيحية، وخصوصية لغة الموريسكيين، وشخصية الحجري الموريسكية وهو العالم المتبحر في الديانة المسيحية يومئذ وقد أجرى مجادلات رفيعة المستوى مع كبار رجال الدين المسيحيين الأوربيين، أما مبحث ثمن العقيدة ومجابهة محاكم التفتيش ببلنسية، فهو على قدر كبير ممن الأهمية في فهم هذه الجدلية وإدراكها، ثم مميزات الخط العربي كتعبير مقدس وسام في النصوص الأدبية الموريسكية تمسك به

الموريسكيون بشدة بالغة. وآخر هذه الدراسات، فقد حررتها أكبر متخصصة في الموريسكولوجيا ألا وهي الأستاذة العالمة أ.د. لوثي لوباز بارلت من جامعة بورتوريكو لتتوقف مليا حول المجهودات التي أديناها للحفاظ على الذاكرة الموريسكية حية وفاعلة في الوجدان والشعور العربي الإسلامي منذ أكثر من ثلاثين سنة اليوم !

ومن جهة أخرى نذكر هنا أنه أثناء عقدنا للمؤتمر 14 للدراسات الموريسكية في شهر ماي 2009، كنا قد أعلنا على إنشاء مركز الدراسات والترجمة الموريسكية، ليكون أحد أقسام مؤسستنا ليهتم بتأمين تعريب بعض الترجمات للبحوث والدراسات الموريسكية المهمة جدّا، والتي تعد بالمئات. وقد توجهنا بنداء إلى العديد من القيادات السياسية العربية وغيرها لدعم هذا المشروع العلمي الرائد والذي استوجب إنشاؤه منذ عشرات السنين، بل وأن يتكرر مثل هذا الإنشاء في عدد من الدول العربية المعنية بتاريخ الأندلس. ومما يؤسف له حقا عدم الاستجابة لهذا النداء بل أن الملفت للانتباه هو أنه تم بدل ذلك دعم المراكز الأورو-أمريكية بسخاء دون أن تتم أية مراجعة لأجندتها الفكرية ولا إنجازاتها البحثية، وماذا فعلت بهذا الدعم السخي الذي تمتعت به من الأثرياء والحكام العرب خلال النصف الثاني من القرن 20.

ومع هذا لن يثنينا هذا الموقف عن خطتنا وسوف نولي هذا المركز كل العناية التي يستحقها، وقد نشرنا قبل عدة أسابيع الكتاب الأول في هذه السلسلة للدكتور محمد العويني بعنوان : *درة المسلمين بالأندلس وأسباب اندثارها*. كما أننا اليوم ننشر كتابنا الجديد الثاني، ضمن منشورات هذا المركز ونحرص دوما إذا ما توفرت لدينا الإمكانيات القيام بانتداب باحثين قارين ليقوموا بتعريب عدد من الدراسات أو الوثائق التاريخية أو الرسائل الجامعية عن تاريخ الموريسكيين الأندلسيين. وتلك هي الرسالة الحضارية التي عملنا وسنعمل دوما على إبلاغها للجميع، ما دام لدينا نفس في هذا الحياة وإيمان مطلق بقوة وزخم تاريخ وحضارة أندلسنا والتي شرفت العرب والإنسانية جميعا وإن تغييب الذاكرة والمأساة الموريسكية، لا يشرف أحدا على الإطلاق، بل هو موقف مدان حضاريا وإنسانيا يا أمة العرب والمسلمين.

تونس في 5 جانفي / يناير 2011

(وجها لوجه – مجلة العربي – عدد أفريل 2010)

هذا الحوار مع المؤرخ التونسي الأستاذ الدكتور عبد الجليل التميمي يعيد إلى الذاكرة صفحة حزينة جدا من تاريخنا في الغرب الإسلامي، هي صفحة الأندلس في خاتمتها، أو صفحة الموريسكيين. والموريسكيون بحسب تعريف ليفي بروفنسال في الطبعة الأولى من «موسوعة الإسلام» «اسم يُطلق في إسبانيا على المسلمين الذين بقوا في البلاد بعد أن استولى الملكان الكاثوليكيان فرديناند وايزابيلا على غرناطة يوم 2 يناير عام 1492، بعد زوال حكم آخر أمراء بني نصر». وهي عبارة تقصّر عن جانب حيوي في معنى المصطلح. فمع أنها موضوعة في لغة مسبوكة، فإنه من المفيد النظر في ما يورده «معجم الأكاديمية الملكية الإسبانية» في تعريف «الموريسكي»: التي «تطلق على العرب المسلمين الذين بقوا بعد السقوط سنة 1492 وعمدوا قسرا بعد استعادة إسبانيا» إلى زمن الطرد سنة 1609. يذكر هذا التعريف ميزة الموريسكيين الأساسية، الذين تعمّدوا بوصفهم مسيحيين، والذي لم يحدث استناداً إلى إرادة حرة من جانبهم. فلا غرابة أن تبقى أغلبية هؤلاء تمارس إسلامها، أو كما ورد في اتهام إحدى محاكم التفتيش: أنهم «لا يقلّون إسلاماً عن مسلمي الجزائر». ولكنهم كانوا مسلمين من نوع شديد وتمثلت خصوصية الممارسة للعقيدة سرا.

ظل الإسلام ينبض في قلوبهم، حتى بعد أن اضطروا لاعتناق المسيحية ظاهريا، وحتى بعد أن اضطر بعض أبنائهم بسبب تخوفهم لدخول المدارس الدينية الكاثوليكية، واختيارهم قُسساً وأساقفة، تظاهروا بممارسة الطقوس المسيحية في العلن إلاّ أنهم ينصرفون بعدها، ويختلون إلى أنفسهم، في غرفهم المقفلة، لممارسة طقوسهم الإسلامية في السرّ. ويؤكد الدكتور عبد الجليل التميمي في هذا الحوار، واستناداً إلى دراسة د. رافائيل دوليرا قرسيا، أن خمسة أساقفة موريسكيين من كبار أساقفة غرناطة، إذ بعد

سقوطها بزمن طويل وبالتحديد بعد 119 سنة، قد أُحرقوا أحياء بداخل كنائسهم بسبب افتضاح أمرهم، باعتبارهم مسلمون سرّاً ومسيحيون في الظاهر!

وعليه تُعتبر الصفحة الموريسكية، صفحة إنسانية بالغة المأساوية في التاريخ العربي وفي التاريخ الإنساني على السواء. شعب فُرض عليه الاقتلاع من أرض أقام عليها تسعة قرون: من 92 هجرية «711 ميلادية» إلى عام 1609 ميلادية، وفُرض على من بقي منه اعتناق دين آخر، وهذا مخالف للاتفاق الذي وقّعه الملكان الكاثوليكيان مع أبي عبد الله حاكم غرناطة، عقب سقوطها. ويمكن القول عند استخدامنا التعابير المتداولة في زماننا الراهن، إن التهجير القسري الذي تعرّض له الموريسكيون الأندلسيون، على يد السلطة الإسبانية، يعتبر أول تطهير عرقي في التاريخ الحديث لا يوازيه فظاعة إلا تطهير اليهود للفلسطينيين اليوم في أرضهم.

وفي الحوار يتحدث الأستاذ عبد الجليل التميمي، مؤسس ومدير «**مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات بتونس**»، أن إسبانيا بشخص الملك خوان كارلوس، قدّمت اعتذاراً لليهود عما ألحقته بهم السلطات الإسبانية عقب سقوط غرناطة من تهجير قسري لهم في شهر مارس 1492، في حين أنها رفضت، وترفض حتى الساعة، تقديم مثل هذا الاعتذار للعالم العربي والإسلامي جراء ما ألحق بالموريسكيين، أحفاد أولئك الأندلسيين الذين لولاهم، كما يقول إمريكو كاسترو، المؤرخ الإسباني الكبير، لم يتشكّل تاريخ إسبانيا المعاصرة على النحو الذي تشكّل عليه.

- **لكن متى بدأ اهتمام د. التميمي بالموريسكيين؟ كان هذا هو مدخلي للحوار معه وقد أجابني قائلاً:**

– الحقيقة أن اهتمامي بالتاريخ الموريسكي يرجع إلى أكثر من أربع وأربعين سنة عندما كنتُ أشتغل في أرشيف رئاسة الوزراء باستانبول سنة 1966 وكنتُ أول عربي تعلّم اللغة التركية المحرّرة بالأحرف العربية ليصل إلى الوثائق العثمانية يومذاك، لإجراء تحريّاتي الأرشيفية لإعداد رسالة الدكتوراه عن تاريخ الجزائر، وقد عثرت على عدد من الوثائق المهمة، والتي تناولت ملف الموريسكيين في الأندلس، وهذه الوثائق عبارة عن

رسائل وجّهت من أهل غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني، وأيضاً رسائل وجّهت من الباب العالي إلى دوج البندقية «أي الملك في ذلك الوقت»، وإلى الملكة كاثرين دي ميديسيس التي كانت ولية العهد بفرنسا. وقد اكتشفتُ مدى أهمية هذه الوثائق العثمانية. وعندئذ رجعتُ إلى ملف التاريخ الموريسكي ليتأكد لي أن كل المؤرخين مجمعون على أن هذا التاريخ كُتب أساساً انطلاقاً من الوثائق الإسبانية، أي الراجعة إلى تسجيلات محاكم التفتيش والتي تعدّ عدوّة لدودة للموريسكيين الأندلسيين. وكل المؤرخين المنصفين من الأوروبيين والأمريكيين والعرب يؤكدون أن الذي ينقص هذا التاريخ هو معطيات الوثائق التركية والوثائق العربية. ومن هذا المنطلق انكببت على هذه الوثائق لأكتشف مدى أهميتها وقد اشتغلت عليها جيداً، ونشرتُ مجموعة من الدراسات حولها. وبطريق الصدفة اكتشفت أثناء تحرياتي البيبليوغرافية عن تاريخ الموريسكيين أن أحد الباحثين الدوليين، وهو أ. د. لوي كارדياك أعدّ رسالة دكتوراه حول المجابهة الجدلية بين الموريسكيين والمسيحيين في القرن السادس عشر. وقرأت هذه الرسالة وأُعجبت بها وترجمتها من الفرنسية إلى العربية، ونشرتها، وهي تعد أفضل رسالة منصفة حول هذا الموضوع.

وفي حديثي مع لوي كاردياك الذي أصبح صديقا لي، أحاطني علما بأنه : سيعقد مؤتمراً أول عن تاريخ الموريسكيين الأندلسيين في جامعة مونبلييه في أواخر 1981، وكان هو عضواً في هذه الجامعة وكان موضوع المؤتمر حول : الموريسكيون وزمانهم. وقد حضرت هذا المؤتمر، كما حضره بعض الباحثين العرب، لكن أكثرهم كان من الإسبان والأمريكان. وما فوجئت به هو تحليلات ورؤى مؤرخين غربيين، غير مسلمين، كانت تنقصهم الرؤيا السليمة والموضوعية والنزيهة. وعلى ضوء ذلك أعلنت لهم ساعتئذ: أدعوكم إلى تونس للمشاركة في المؤتمر الثاني حول : دين وهوية الموريسكيين الأندلسيين للدراسات الموريسكية سنة 1983. وبالفعل عقدنا هذا المؤتمر على أساس أن تونس هي البلاد التي احتضنت أكبر جالية موريسكية قدرت يومئذ بمائة ألف موريسكي، وأن المؤرخين الذين اشتغلوا في مخابر جامعاتهم ومكتباتهم ومراكزهم، لم يتصلوا

ويتعرفوا على خصوصيات الفضاء العربي، ولم يزوروا الجوامع والأحياء ولم يلتقوا بشرائح من المجمع ذي الجذور الموريسكية. وقد وفقنا في هذا المؤتمر توفيقا عاليا. وانطلاقا من ذلك نشأ اهتمامي بتاريخ الموريسكيين الأندلسيين، وقد توالت بعد ذلك المؤتمرات وتمت بانتظام كل سنتين إلى الآن. وقد عقدنا المؤتمر الرابع عشر حول الذكرى المئوية الخامسة لطرد الموريسكيين من أندلسهم 1609-2009 في شهر ماي 2009 وسوف نعقد المؤتمر الخامس عشر المقبل في شهر ماي 2011 حول :

يترجم اهتمامي بهذا الموضوع عن تضافر كثير من المعطيات لكي نجعل منه علماً قائما بذاته وأطلقنا عليه علم الموريسكولوجية لأنه يتناول مائة وعشرين سنة قبل الطرد، كما تناول هذا الطرد الوجود العربي الإسلامي في الأندلس.

- **وهل تجد فرقاً بين الرواية الإسبانية للتاريخ الموريسكي والروايات الأخرى، وبخاصة رواية العرب والمسلمين؟ وكيف تروى وجهة النظر العربية والإسلامية؟**

– الذي فوجئت به في مؤتمر مونبلييه المنعقد سنة 1981، أن أحد الباحثين الكبار ذكر في بحث سابق له أن مستندات دواوين التحقيق ومحاكم التفتيش لا تفيد بأن الموريسكيين قد أُحرقوا أحياء. مؤكدا : «لقد قُتلوا، وبعد ذلك تم إحراقهم». بينما الأدلة والوثائق والشواهد تؤكد على أنهم أُحرقوا أحياءً! وهذه ظاهرة من الظواهر البائسة وغير النزيهة، ذلك أن هذا الموضوع حسّاس جدّا بالنسبة للضمير الإسباني، ومأساة الموريسكيين مأساة فظيعة، وهي فاجعة من أكبر فواجع البشرية على الأرض، لا تعادلها إلا مأساة الشعب الفلسطيني اليوم، لكن هذا الشعب العربي المسلم الذي بقي تسعة قرون على أرض شبه الجزيرة الإيبيرية، وطبع تاريخ إسبانيا بطابعه الإسلامي وتراثه الفكري والمعماري ذي البعد العالمي، والذي مازال باقياً إلى اليوم كأكبر معلمة أثرية فنية رائعة تجلب خمسين مليون سائح كل سنة للاطلاع عليه، وهذا الإرث الحضاري قضى عليه التعصّب وعدم التسامح، والزج بإسبانيا في الكثلكة المنغلقة وغير المتفتحة، والعمل

للقضاء على ما هو غير كاثوليكي، وكل هذا يعتبر من أكثر مظاهر عدم التسامح في التاريخ.

لقد قضى التعصب على أمة ذات طابع تعددي، على الرغم من أن أبا عبد الله، آخر ملك على غرناطة، وافق على أن يسلّم لهم المدينة بشرط أن يحترموا للعرب دينهم ولغتهم وتراثهم. ولكن بعد سنتين، تنكّروا لكل هذه الوعود، وفرضوا على الموريسكيين إما التعميد قسراً، وإما المغادرة. وهنا تأتي مأساة الموريسكيين حيث مُنعوا من التكلم بالعربية والتردد على الجوامع، ومن ارتداء اللباس الأبيض يوم الجمعة وسواها من المحرمات (وهي أكثر من خمسين مؤشراً) التي تدل عليهم. وتمّ الاستيلاء على كل أملاكهم الشخصية، ثم أملاك الأحباس الهائلة التي عززت القوة المالية للدولة الاسبانية. ثم هناك ملايين الهكتارات قد صُفّيت، وطُعن الموريسكيون في أبسط مظاهر إنسانيتهم وحضارتهم العربية الإسلامية، الأمر الذي ألجأهم إلى الثورات طوال القرن السادس عشر، وأهمها ثورة البشرات (عام 1568) حيث واجهوا الإسبان خلال سنتين إلى أن قضى عليهم أحد أكبر العسكريين وهو خوان دتريش، أخ الملك غير الشرعي، وفرض على الغرناطيين التهجير نهائياً من غرناطة، وهذه مأساة أخرى، مأساة الهجرة من المدن الإسبانية إلى مواقع أخرى، وساهم ذلك في القضاء على كل المميزات الحضارية لهؤلاء الموريسكيين.

لقد كان الموريسكيون خبراء في صناعة الذهب والفضة والفلاحة وري الأراضي، وهم خبراء في أمور كثيرة مثل التجارة الداخلية، وقد واجهوا طفرة ورود المال من أمريكا اللاتينية، بعد استيلاء الأسبان عليها، وهذا ما حجم المبادرات الاقتصادية الموريسكية، بل لقد تم القضاء أكثر من مائتي مدينة موريسكية كانت مزدهرة، وقد ذكر أحد الخبراء الاقتصاديين الإسبان : إن الاقتصاد الإسباني أصيب بنكسة بعد تهجيرهم قسراً من الأندلس.

لقد كان مسار الموريسكيين مساراً مفجعاً إلى درجة أن الابن أصبح يشي بعائلته وبالأقربين إلى محاكم التفتيش ووصل الأمر إلى الوشاية بالأب والأم والأخت. وأن أي

شخص يجدون لديه أثراً عربياً كان يُحاكم. ولهذا صُفّي التراث العربي الإسلامي وأُحرقت آلاف المخطوطات في الساحات العمومية. وقد أخفى الموريسكيون تراثهم الفكري في جدران بيوتهم، وقد اكتُشف بعضها في أواخر القرن التاسع عشر ليتم العثور على مئات المخطوطات والوثائق المخبأة بين الجدران التي بنوها يومئذ بداخل منازلهم.

كل هذا يدل على المأساة التي تعرّض لها الموريسكيون. وقد عرضنا لكل هذا في المؤتمرات الأربعة عشرة التي عقدناها بانتظام. وهدفنا هو أن نتتبع بدقة ذبذبات هذه الفجيعة إلى النهاية. وقد اكتشفنا أشياء رهيبة ونشرنا أكثر من ستمائة (600) دراسة حول أدبهم وتاريخهم، وحول محاكم التفتيش، وحول المحارق التي تعرّضوا لها. كما اكتشفنا – مثلاً – أن المرأة الموريسكية كانت قائدة، وزعيمة في مسيرتهم، ولم تكن وظيفة المرأة الموريسكية تقتصر على تربية أطفالها ورعاية أسرتها، بل على العكس، كانت – مثلاً – محاسبة ومسؤولة مالية وفقيهة، ومهتمة بالحفاظ على الهوية وعلى الدين وعلى اللغة، وكانت قبل كل شيء مُقاومة، إذ كثير من النساء قطعن ألسنتهن حتى لا يشين بأبنائهن وأزواجهن وأقاربهن ! ما أروع هذه البطولات النسائية والتي لا نعرف عنها إلا النزر اليسير.

وهذا الموضوع رهيب جداً أمام صمت العالم العربي والإسلامي الذي لا يعرف من الأندلس إلا مطعم الأندلس والأفرشة الأندلسية، وفقدان الوعي التاريخي لملف الموريسكيين ومحنتهم، بينما المسيرة الفاجعة لهؤلاء الموريسكيين لا يعرف عنها العرب المسلمون شيئاً على الإطلاق. وأنا أدين هذا الموقف السلبي البائس عندما لا نرى الشعوب العربية ولا الإسلامية تنادي بالاعتراف بما حصل لهؤلاء الموريسكيين ومطالبة الدولة الإسبانية بالاعتذار لهم ولو متأخراً، فنحن الأمناء الذين استوجب علينا العمل للحفاظ على الذاكرة الموريسكية من النسيان والضياع يا أمة العرب والمسلمين !

- **ولكن الموريسكيين الذين فرض عليهم الإسبان اعتناق النصرانية ظل إسلامهم حياً في قلوبهم، واستمروا يمارسون شعائرهم الدينية سراً، إلى أن اكتشف الإسبان ذلك ولجأوا إلى طردهم. كم كان عدد الذين اضطروا لترك الأندلس؟**

– أطرد الموريسكيون عام 1609، وبقي كثيرون منهم يعيشون في الأندلس بطريقة أو بأخرى. وأن عدد الذين أطُردوا كان بحدود المليون نسمة، وهناك مَن يتحدث عن نصف هذا العدد، أو عن ثلاثمائة ألف ؛ أما المؤرخ الفرنسي هنري لابير، فكتب كتابا إحصائيا مهما جدّا ولم يقع تعريبه منذ أكثر من خمسين سنة، بعنوان **جغرافية الموريسكيين**، ذاكر أن عدد الذين طُردوا كان في حدود 275.000 بالضبط. وقد راجع دفاتر الهجرة الإسبانية في أغلب المدن الداخلية والساحلية الإسبانية، وحيث لجأ أكثرهم إلى تونس والمغرب والجزائر، وجاء قسم منهم إلى استانبول. لكن بقي قسم كبير منهم في إسبانيا لأسباب عائلية ومهنية عديدة.

وهناك دراسة قام بها كما ذكرنا سابقا رافائيل قرسيا، وهو مؤرخ إسباني بارز. أرسل إليّ دراسته وطلب مني ترجمتها إلى العربية. والدراسة دعمت بالوثائق التاريخية الجديدة. عندما اطلعت عليها لم أتمالك عن البكاء. وقد اكتشف هذا المؤرخ الإسباني، أن خمسة من أكبر قساوسة غرناطة، في أهم كنائسها (كان ذلك سنة 1728)، يمارسون الدين الإسلامي سرا، وقد علمت محاكم التفتيش وتم حرقهم أحياء في داخل كنائسهم ! وهذه الدراسة ترجمتها ونشرتها في كتابي الجديد: «**دراسات جديدة حول الموريسكيين الأندلسيين**» وإني كلما أعدت قراءتها يتملّكني الأسف العميق لعدم قيامنا ببعض الواجب التاريخي والحضاري للأمة الأندلسية. هذا نوع من التراجيديا الإنسانية التي لم يعرف التاريخ مثيلا لها.

أكثر من هذا، عندما هُجّر هؤلاء الموريسكيون من إسبانيا سنة 1609 استولى الإسبان على أملاكهم، وعلى تراثهم المادي والثقافي كله، بل تركوهم أثناء التهجير القسري في قرى خالية لجأ البعض إلى تونس، التي استقبلت أكثر من مائة ألف

موريسكي، (وجب التوقف عند هذا الرقم في أوائل القرن السابع عشر) وقد استمروا يمارسون مهنهم المختلفة ويتكلمون الإسبانية. كما لجأ إلى الجزائر حوالي 25 ألفا، وإلى المغرب حوالي خمسين ألفا. لكن أكثر أعداد الهجرة كانت إلى تونس، ثم إلى ليفورنا بإيطاليا اليوم ثم إلى الباب العالي وبالأناضول تحديدا، كما عثرنا على بقاياهم بالهند وتمبكتو وفي عدد من مدن أمريكا اللاتينية، وفي العديد من المدن الأوربية. والموريسكيون كانوا في الحقيقة عنصر تمدين وحضارة، ونقلوا تراثهم الفكري والصناعي إلى شمال إفريقيا، وبأمريكا حيث سجل أحد المؤرخين المكسيكيين وجود أكثر من 200 من أديرة وجامعات وبيوتات من تأثيرات موريسكية واضحة المعالم فيها. وكانوا رواد حداثة بالمعنى العالي للكلمة. وتأثيرات الموريسكيين كانت عميقة وعديدة على جميع المستويات.

- **وهل كان هؤلاء الموريسكيون الذين هُجّروا جميعاً من العرب؟ ألا يحتمل أن يكون بعضهم من الإسبان الذين اعتنقوا الإسلام؟ إذا صح هذا الاحتمال، فهذا يعني أنهم أدينوا بسبب إسلامهم لا بسبب عروبتهم، دون أن يشفع لهم أصلهم الإسباني ذلك ؟**

– في ذلك الوقت لا شك أن أكثر هؤلاء الموريسكيين كانوا من أصول عربية وبرابرة. وخلال القرن الثامن عشر، والقرن التاسع عشر، وجدت في بيوتهم وثائق باللغة العربية. وهذا دليل قاطع على أنهم من أصول إسلامية، وهناك تيار جديد في إسبانيا الآن وهو تيار قومي، يفخر أبناؤه بأنهم من أصول موريسكية أندلسية، وضم مسيحيين من اسبانيا تبنوا الإسلام دينا وعقيدة، وهم يدافعون عن هذا الإرث الموريسكي، ويحتفلون على طريقتهم بسقوط غرناطة، إذ في 5 يناير 1492 من كل عام، تجد فئة من هؤلاء الأندلسيين يذكرون مأساة السقوط بهذه المناسبة. أين هم العرب المسلمون الذين يهتمون بهذا التراث ويقيمون الذكرى تلو الذكرى من حين لآخر ؟ إنك لن تجد أحداً لسوء الحظ يذكر بذلك وعلى جميع المستويات الرسمية أو الجامعية أو حتى مؤسسات المجتمع المدني

وكذا المنظمات العربية والإسلامية والتي أهملت تماما هذا الملف الحضاري، وهذا هو الجحود بعينه يا أمة العرب والمسلمين !

وللتذكير هنا ففي أواخر عام 1991، أي قبل دخول عام 1992 بشهر، نظمنا مؤتمرا دوليا بمناسبة مرور 500 سنة على سقوط غرناطة، وكانت الأخبار يومها تأتينا من كل جانب على أساس أن جلالة الملك الإسباني خوان كارلوس سوف يدلي بخطاب علني في ذكرى طرد اليهود من الأندلس يوم 31 مارس 1992، وهو يتهيأ لإلقاء خطاب اعتذار لليهود. وفي هذا المؤتمر الذي عقدناه بتونس في أواخر سنة 1991 بدعم من د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، رئيس رابطة الجامعات الإسلامية يومئذ، كان السفير الإسباني بتونس يومئذ رامون فيلانوفا اتشيفريا حاضرا، وشارك في هذا المؤتمر أكثر من مائة مؤرخ أجنبي وعربي، وقد توجهت في خطابي بكلمات إلى الملك الإسباني : لقد سمعنا يا جلالة الملك أنكم ستعلنون الاعتذار عن طرد اليهود، هذا شيء جيد. ولكن تذكروا، يا جلالة الملك، أن العرب المسلمين ينتظرون مثل هذا الاعتذار أيضا ! إذ الاعتذار وجب أن يتوجه أيضا إلى الأصل وليس فقط للفرع ! ونحن لا نريد لا مكافآت، ولا تعويضات (على الرغم من أن الإسبان جمعوا تبرعات لتعويض اليهود "السفاريد" الذين هُجّروا إلى استانبول حيث مازالوا يتحدثون اللغة القشتيلية إلى الآن)، وعليه نطلب اعتذارا، وهو موقف حضاري.

وفي خطاب الملك الموجه إلى اليهود اعتذر فقط لهم، ليمنحهم من جديد الجنسية الإسبانية، ثم ذهب بعد ذلك إلى معبد يهودي بمدريد ووضع قلنسوتهم. وأعلن عن اعتذار واضح لليهود، نقلته الصحافة الدولية وبصفة خاصة CNN بإطناب، ولم يذكر الملك شيئا عن مأساة الموريسكيين الأندلسيين. وعلى إثر ذلك، قمت بتوجيه رسالة إلى الملك وأكدنا أن موقفه يعبر عن عقلية وسلوك إسبانيا الجديدة، ولكننا، ننتظر من جلالته القيام بمبادرة مماثلة بالنسبة للعالم العربي الإسلامي، ليتم الاعتذار عن تهجير الموريسكيين الذين تم تهجيرهم بكل فظاعة وقسوة بالغتين. وفي هذا الظرف الزمني كان السيد إنخيل

موراتينوس الذي هو الآن وزير الخارجية الإسبانية، كان مدير دائرة العالم العربي في الخارجية الإسبانية، وقد دعاني إلى مكتبه ذاكرا لي بالحرف : أخبرك بأن جلالة الملك وافق على لقاء يعقد بمدينة الزهراء بقرطبة، وأنه في هذا اللقاء سيلقي خطابا بالمناسبة. وقد سعدنا طبعا بهذه الخطوة الإيجابية، وكنا ممن حضروا هذا اللقاء أربعة من العالم العربي : د. محمود علي مكي من مصر، والشاعر محمود درويش من فلسطين، ود. محمد بن شريفة من المغرب، وأنا من تونس. أربعة من العرب فقط، بحضور ما لا يقل عن مائة مستعرب ومؤرخ إسبانيين. وقد خطب الملك ([1])، والحقيقة زاد خطابه من ألمي وجرحي حيث أكد جلالته : «إن الدولة الإسبانية يومها هي التي رأت أحقية ذلك». إذن لم يعتذر مطلقا، ولم يقل شيئا عن مأساة الموريسكيين وهذا ما أكد أن لقاء الزهراء هو عبارة عن نوع من التغطية الإعلامية لا غير، إذ كان الملك يدافع ويبرر موقف اسبانيا قائلا : " تغلبت مصلحة الدولة على اعتبارات الحق في حد ذاته" وهي من الأقوال التبريرية لا غير.

وعلى ضوء ذلك قمت بتحرير رسالة إلى الملك عبّرت فيها عن خيبة أملي، حيث كان العالم العربي - الإسلامي ينتظر الإعلان عن الاعتذار ([2]). وأنا كمؤرخ درس هذه الفترة وعرف جيدا ما حصل، ومن حقي كباحث واع لهذا التراث، أن أطالب بهذا الاعتذار في غياب المطالبة العربية والإسلامية بذلك. ومن جهة أخرى كانت علاقتي بالسيد موراتينوس علاقة جيدة وطيبة بادئ الأمر، ولكنه أرسل إليّ فيما بعد رسالة غير لائقة على الإطلاق، تضمنت تهديدا مبطنا وقد تضمنت كلاما من نوع : من أنت حتى تخاطب الملك بهذه اللهجة؟.

والنتيجة بعد كل ذلك هي فقدان موقف جماعي للعالم العربي أمام هذا الحدث. وعلى الرغم من أن العالم العربي يكنّ التقدير لإسبانيا وأهدى لإسبانيا، تراثا معماريا خالدا، فإن

([1]) راجع الوثيقة رقم 1، المنشورة أسفله.

([2]) راجع الوثيقة رقم 2 المنشورة أسفله.

إسبانيا لم تلتفت إلى كل ذلك. وكان موقفها هذا غير مبرر، وغير إنساني، إن لم يكن موقفا عنصريا شوفينيا لا أكثر ولا أقل ! وعلى ضوء ذلك وبمناسبة الذكرى المئوية الخامسة لطرد الموريسكيين 1609-2009، وجهنا رسائل جديدة بتاريخ 3 فيفري 2009 إلى جلالة الملك وإلى السيد رئيس الوزراء والسيد وزير الخارجية ([3]).

وقد رد على جلالة الملك بتاريخ 28 فيفري 2009 برسالة لم يذكر شيئا عن مطالبنا بالاعتذار ([4]).

- **طبعا نحن كعرب مسؤولون عن عدم انتزاع مثل هذا الاعتذار الذي تتحدث عنه من الإسبان. ولكن في الضمير الإسباني أزمة غير قابلة للشفاء بصدد هذه الصفحة السوداء في التاريخ، كثيرا ما يجري التعبير عنها بأسلوب أو بآخر. أحيانا يحاول الإسبان التعتيم على تلك الصفحة، أو المرور عليها سريعا، أو تبريرها، أو التخفيف من بشاعة ما فعله أجدادهم، أو التنصل والتهرب وصولاً إلى عدم الاعتراف، لأن للاعتراف نتائج كثيرة على سمعة إسبانيا وعلى تاريخها في آن. إلا أن كل ذلك لا يحجب قبح ما حصل بالنسبة لطرد الموريسكيين. لقد كان ما فعلوه مع الموريسكيين أول عملية تطهير عرقي في التاريخ الإنساني الحديث؟!**

- ما تقوله هو الصحيح، والدليل على ذلك أن الإسبان كان بيدهم مقود الدراسات الموريسكية الأندلسية، يكتبون ما يشاؤون وما يحلو لهم. العرب تقريبا غائبون، هناك مائتان وخمسون مؤرخ إسبانيا وأمريكيا وفرنسيا مهتمون اليوم بالدراسات الموريسكية. أما عدد العرب فهو قليل جدا وهم في حدود العشرين متخصصا لا غير. الإسبان سيطرون على هذا المبحث التاريخي. وعندما بدأنا المؤتمر الثاني في سبتمبر 1983،

([3]) أكتفي هنا بنشر الرسالة التي وجهتها إلى جلالة الملك خوان كارلوس بتاريخ 3 فيفري 2009.

([4]) راجع الوثيقة رقم 4 المنشورة أسفله.

بحضور ومشاركة عدد كبير من المهتمين، توخينا أسلوبا ومنهجية جديدين وأكدنا أننا لسنا ضد إسبانيا بل بالعكس. نحن نحترم إسبانيا لأن لدينا إرثا حضاريا مشتركا معها. وثمة شراكة حضارية عبر التاريخ بين العرب والإسبان طوال أكثر من ثمانية قرون كاملة، ولا أريد أن أصل إلى حد القول إن النهضة الغربية المعاصرة قد استمدت بعض عناصرها الفاعلة من المنابع الفكرية الأندلسية، إذ آلاف المخطوطات المترجمة من العربية إلى لغاتهم، وفي كل مجال معرفي، في العقلنة، في العلوم، في الحساب والمنطق وفي مجال الإبداعات، وهي التي ساهمت ولا شك في الدفع بحركة النهضة الغربية إلى الأمام. ولست أنا الذي يقول ذلك، بل الأوربيون أنفسهم. ابن رشد مجرد مثال من ألف مثال. كل هذا يدل على تراث مشترك بيننا وبينهم. طبعا ساهم الإسبان في التراث الأندلسي، ولكنه كان تراثا عربيا قبل كل شيء. إن التنكر لهذا التراث من قبل الإسبان أو الغربيين لهو فعلا موقف بائس وغير نزيه أدى حتما إلى عدم الاعتذار أمام التاريخ لما فعلته محاكم التفتيش بالموريسكيين الأندلسيين.

أعطيك مثالا على الحقد الذي لا يفارق صدور بعضهم إلى اليوم. ففي 3 أكتوبر من عام 1571 وقعت أهم معركة بحرية بين العثمانيين من جهة، وبين إسبانيا ودوج البندقية والبابوية، من جهة أخرى. وفي هذه المعركة التي تعرف بـ Lépante دمّر الأسطول العثماني، ولم يبق منه على يد القائد البحري قليج علي باشا إلا الربع. وكان ذلك أول انتصار بحري للغرب ضد العثمانيين. وإلى اليوم مازالوا يحتفلون في إسبانيا بهذا الانتصار وتدق الكنائس الأجراس احتفاء بهذا الانتصار على المسلمين وهذا ينقل لك صورة عن عقلية لا تزال سائدة. والشاعر القديم يقول:

قد ينبت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات الصدور كما هيا

إذن هذا الموضوع يزعج الإسبان، ومع هذا فإن هناك اسبانيين ذوي ملامح إنسانية يرفضون هذه المواقف ولو كانوا قلة.

- **من هؤلاء الإسبان المؤرخ أميركو كاسترو الذي يقول في كتابه الضخم عن تاريخ إسبانيا، إنه لم يكن من الممكن أن يتشكل التاريخ الإسباني، والأمة الإسبانية المعاصرة على النحو الذي تشكلا عليه، لولا الحقبة العربية الإسلامية ويشرح ذلك في كتابه، وهناك المستعرب الإسباني الكبير كوديرا الذي كان يدعو - في بدايات القرن العشرين - أوربا إلى العودة إلى الروح العربية، بل إلى الإسلام نفسه. ألا تعتقد دكتور أن الموريسكولوجية يمكن أن تشكل قاسما مشتركا للمصالحة بين الروح العربية والروح الإسبانية، وبداية لنشيد جديد بيننا وبين الإسبان على الخصوص؟**

- ليس على أساس علم وتداعيات علم الموريسكولوجي اليوم !

علم الموريسكولوجية مبحث دقيق وخطير جدا بالنسبة لإسبانيا. لا أتصوّر أن علم الموريسكولوجية في يوم من الأيام سيكون محكاً للتعايش أو للتحاور. المحك الحقيقي هو العطاء الذي أتى به عبد الرحمن الداخل مثلا، وملوك الطوائف، وهذا الجانب الإيجابي، ويمكن توظيف ذلك أساسا لإيجاد نشيد جديد للتسامح، وعقلاء الإسبان يدركون ذلك. فعلم الموريسكيولوجية، مبحث لا يحبه الإسبان إطلاقا، إلا أن الواجب يفرض علينا أن ندرسه، أن نبيّن للعالم العربي الإسلامي كل ذلك ونقول للجميع : انتبهوا يا أمة العرب والمسلمين سينتظركم «أندلسيات» جديدة إذا لم تدركوا ما حصل للموريسكيين الأندلسيين ! لقد كتب الإسبان كثيرا عن الموريسكيين، ولكن هناك جوانب سلبية في كتاباتهم وأخرى إيجابية. وأنا أتمنى على السينمائيين العرب أن ينغمسوا يوما في هذه المأساة وينقلوها إلى العالم العربي-الإسلامي للخروج بدروس، وهنا أنوه بمبادرة الشيخ د. سلطان القاسمي الذي أعد تمثيلية مهمة تحت عنوان "القضية" وتم بثها تلفزيا. نحن لا نعرف الكثير عن مأساة الأندلس، لا نعرف غير ما قاله ابن الرندي.

وهناك ملايين الوثائق عن مأساة الموريسكيين لم يقرأها أحد منا حتى الآن. وهناك مئات الملفات عن محاكم التفتيش لأناس أجبروا على التجديف طوال حياتهم وماتوا شرّ

ميتة. ليعلم العالم العربي الإسلامي أن عليه دينا تجاه تلك الأمة المظلومة والمقهورة وواجبنا أن لا نفتخر فقط بالحضارة العربية الإسلامية في الأندلس في عصرها الذهبي، لكن أيضا علينا واجب أن نهتمّ بمصير أحفاد الذين صنعوا هذه الحضارة وماتوا وغيبوا تماما ولم نقم بواجبنا تجاه إحياء ذكراهم وقد ناشدنا المؤرخ الكبير الأستاذ لوي كاردياك في المؤتمر الأخير الذي عقدناه بتونس في شهر ماي 2009، أن نقيم تماثيل في كل المدن المغاربية والعربية ونثبت بعض أسمائهم للذاكرة ولكن ولا مدينة على استعداد للقيام بذلك إذ الحسابيات الضيقة والمصالح الآنية ودور اسبانيا في إسكات صوت الحقيقة التاريخية، لعب دورا معطلا لذلك ولا شك أن موقف السلطات الإسبانية تجاه أنشطة مؤسستنا الأكاديمية أكثر من شاهد حيث تمت محاربتنا وبكل الوسائل وتقريب العديد من الأساتذة المغاربيين ومنحهم الثقة المطلقة، وتلك هي المقاربة المؤسفة لفئة من الأساتذة الجامعيين.

- **هل اطلعت على نماذج مما كتبه الموريسكيون أنفسهم عن مأساتهم وعن قضيتهم؟**

– اطلعت طبعا، لقد عثرت على مخطوطتين لأواخر الموريسكيين في 1588 ميلادية، ونقلوا أدبهم باللغة القشتالية وبحرف عربي. نقلوا مأساتهم وما تحملوه من ضيم أمام محاكم التفتيش. ومن هذا الأدب الذي نقلوه، عندنا الآن منه ما لا يقل عن ثلاثمائة مخطوطة تسمّى «الأدب الألخميادو»، أي الأدب الأعجمي الذي لا يفهمه إلا من عرف اللغة القشتالية وهو مكتوب بالأحرف العربية. وفي هذا الإطار زرت جامعة بورتوريكو، واكتشفت وجود أكبر مختبر للأدب الألخميادو تديره العالمة لوثي لوباث بارلت التي عشقت الأدب الموريسكي ونشرت حوالي 20 كتابا، وآخر كتابها المرجع الجديد والمنشور سنة 2009، حول **الأدب السري للموريسكيين**، وهو لعمري شهادة رائعة ودقيقة حيث استوجب علينا كعرب نقله إلى العربية. وهناك 22 باحثا مختصا في الأدب الموريسكي بجامعة بورتوريكو، وقد نشروا أشياء كثيرة، ومن هؤلاء الموريسكيين

سالفرتو أريفولو، هذا شخص موريسكي تحدث بإفاضة عن مأساة الموريسكيين، أبرزته الباحثة المتألقة ماريا نارفييز من جامعة بورتو ريكو...

كما عثر على بعض المخطوطات الموريسكية في مكتبات أوربا بميجان بأكس اون بروفانس بفرنسا ولندن والولايات المتحدة الأمريكية، وفي تونس وفي تركيا وفي مصر أيضا.

ولكن وعلى الرغم من ذلك، مازالت معلوماتنا حول الموضوع ضعيفة جدا، على الرغم من أننا نشرنا أكثر من 600 دراسة أكاديمية حوله. فإني أنادي الآن، مع أنني ناديت كثيرا بالاهتمام بهذا الحقل من الدراسات وقمت قبل سنة بإنشاء **المركز الدولي للدراسات والترجمة الموريسكية**. وقد وجهنا أكثر من رسالة إلى عدد من القيادات السياسية العربية العليا وبعض الموسرين العرب لدعم هذه المبادرة والتي تأخر إنشاؤها حتى اليوم، حتى نعمل على تقريب هذا الملف للرأي العام العربي والإسلامي، وأن نشكل نواة من الباحثين والمترجمين المتخصصين.

وعلى الرغم من أننا أعلنا عن إنشاء هذا المركز الدولي للدراسات والترجمة الموريسكية، فإننا لم نجد من يدعمه حتى نقوم بنقل ولو بعض الرسائل الجامعية من اللغات الإسبانية، والفرنسية، والإنجليزية حول الموريسكيين. وهناك متخصصون وباحثون لهم سمعة دولية كتبوا عن الموريسكيين دون أن ينقل شيء من إنتاجهم إلى العربية.

أن يملك العالم العربي ناطحات سحاب كثيرة ويوجد المئات من الأثرياء العرب ساهموا في إنشاء مراكز كثيرة في أوربا وتم دعم جامعات عديدة عبر العالم، فهذا شيء إيجابي جدًا، ولكن هؤلاء الأثرياء لم يهتموا بتاريخهم الأندلسي، وأستثني هنا مبادرة د. سلطان القاسمي الذي أنشأ مركزا بحثيا في غرناطة، اهتم بنشر البحوث باللغة الإسبانية وتوفير مصادرها للباحثين. والمؤمل أن يشمل هذا الاهتمام تعريب مئات الرسائل

الجامعية ونشر مئات الآلاف من وثائق محاكم التفتيش التي أجهضت على المجتمع الموريسكي تماما.

إن عدم الاهتمام الفاعل بهذه القضية التي تشكل مأساة عصية على النسيان، يترجم عن أن العرب والمسلمين قيادات ونخبا ومجتمعا مدنيا وإسلاميا لم يستوعبوا بعد أو وجب القول لم يحيطوا علما بحيثيات هذا الملف الدقيق جدا للقيام ببعض ما يستوجب عليهم القيام به، وتلك هي الرسالة الحضارية التي نعمل منذ 40 سنة لإبلاغها وسوف نواصل أداءها على الرغم من الصمت المضروب على مساعينا لخدمة الذاكرة الموريسكية من الضياع والنسيان.

*****

الملاحق

تواصل تجاهل مأساة الموريسكيين
في الذكرى الأربعمائة لطردهم من الأندلس
1609-2009

لقد توفقنا في عقد ثلاثة عشر مؤتمرا دوليا حول الدراسات الموريسكية الأندلسية، تكللت جميعها بنشر 600 دراسة بالإسبانية أساسا ثم الفرنسية والعربية، وقد شارك فيها العشرات من الباحثين المغاربيين والدوليين من الجيل الجديد وهو ما يبرز مدى تمتع هذه الدراسات باهتمام جديد على الصعيد الدولي. وتواصلا مع هذا التقليد العلمي، وجهنا منذ شهر ماي 2007 باسم مؤسستنا واللجنة العالمية للدراسات الموريسكية الدعوة إلى الجميع ودون استثناء، للمشاركة في المؤتمر الرابع عشر بمناسبة الذكرى المئوية الرابعة لتهجير الموريسكيين الأندلسيين قسرا من الأندلس (1609 – 2009).

وقد لبى دعوتنا عشرات الباحثين ممن يجمعهم الحرص على تعميق معرفتهم بهذه الجدلية التاريخية والتي مازالت تحتاج إلى الدراسة المتأنية على ضوء الاكتشافات الأرشيفية والمخطوطات المتنوعة الأوربية منها والعربية والعثمانية، ولكن وعلى الخصوص الحرص على إيجاد قنوات الحوار والشراكة العلمية مع مختلف الباحثين الدوليين. ولا يسعنا إلا تقدير الباحثين ومساندتهم الدائمة لنا منذ 25 سنة، وهذا خلافا لفريق آخر من الباحثين الغربيين والذين خططوا لعقد مؤتمر مواز بغرناطة وقبل ثلاثة أيام فقط من تاريخ مؤتمرنا، وهو أمر لا أخاله يخدم الشفافية والأهداف العلمية أو الشراكة العلمية الاورو-عربية.

إننا نؤكد على أن مبحث الموريسكولوجيا يحتاج إلى العشرات من مخابر البحث في إسبانيا والأمريكيتين والمغرب والمشرق العربيين، وكذا لدى العديد من الفضاءات الجديدة بالهند واليابان وباكستان ودول أخرى عديدة بدأت تولي هذه الدراسات اهتمامها.

سيتناول مؤتمرنا عديد الملفات المرتبطة بالمأساة التي حلت بهذه الأمة الأندلسية، نتيجة سياسات محاكم التفتيش الرهيبة والتي عملت على تصفية الذاكرة الأندلسية تماما من الوجود. ونحن من منطلق حضاري وعلمي قمنا بتوجيه رسائل إلى جلالة الملك خوان كارلوس، وقد قام جلالته بالردّ علينا كتابيا، وقد تبين لي يومئذ أن السلط الإسبانية العليا واعية تماما بالإشكالية برمتها.

والحقيقة كنا نؤمل كثيرا على اثر استلامنا لرسالة جلالة الملك الإسباني، مؤخرا، أن يتفضل مسؤول إسباني سام، بحضور مؤتمرنا الدولي هذا، لتوجيه رسالة حضارية إلى الجميع، تؤكد على أن أسبانيا اليوم، غير أسبانيا الأمس وأن إرثها الحضاري الأندلسي الذي يعود إلى ثمانية قرون من الوجود العربي-الإسلامي، هو مفخرة الإنسانية جمعاء عبر العصور. وإذا كانت تداعيات الزمن الماضي بكل حيثياته قضت باتخاذ قرار التهجير الجماعي القسري للموريسكيين من أندلسهم، وإلحاق تلك المأساة الرهيبة بهم، فإننا مازلنا نعتقد بأن أسبانيا الجديدة والمؤمنة بتحالف الحضارات مبدأ وسلوكا وعقيدة، لقادرة تماما

على أخذ مبادرة الإقرار بحصول تلك المأساة الفاجعة والتي حلت بالموريسكيين، وذلك هو دين حضاري سنبقى نطالب به دوما، وهو ما دفعنا إلى توجيه رسائل إلى القادة العرب والمسلمين والمنظمات والمراكز العربية والإسلامية، لنؤكد من جديد على أن الاستمرار في تجاهل هذا الملف، قد أساء إلى ضميرنا وإلى حضارتنا الأندلسية التي تناسيناها وانشغلنا عنها تماما منذ أربعة قرون، بل ولم يتبن مسؤولونا ولا مراكزنا ومنظماتنا العربية والإسلامية جميعها أيضا، المواقف التي يستوجبه عليها. ورحم الله الأمين العام الأسبق لمنظمة المؤتمر الإسلامي الحبيب الشطي الذي بارك مسعانا، احتراما ووفاء للتاريخ الأندلسي وقد حضر أحد مؤتمراتنا العلمية السابقة، منوها بالاهتمام بتمثل التراث والتاريخ الأندلسي المشرف للجميع وداعيا للعمل على التذكير به عربيا وإسلاميا. وتلك هي رسالته التي أبلغناها للجميع، والتي لم يعمل كل الأمناء العامين من بعده على مواصلتها، وهو أمر مؤسف حقا يا أمة العرب والمسلمين. فهل من مستمع لهذا النداء الجديد ؟

****

أنتهز هذه الفرصة لأشكر كل المشاركين في هذا المؤتمر الدولي ودعمهم العلمي وتشريفهم لنا من خلال مشاركتهم والشكر أيضا إلى السيد الهادي البكوش، الوزير الأول الأسبق، لتفضله بمشاركتنا جلسة الافتتاح. وليتفضل سيادته بقبول عظيم تقديرنا وامتناننا له.

ستبقى تونس ومؤسستنا الأكاديمية، المجسمين لضمير الأمة الحي والنابض وفاء للنهج الإنساني لتونس وسياستها التقليدية المتسامحة والتي تبنتها عندما أحسنت استقبال مائة ألف موريسكي (نعم مائة ألف في أوائل القرن 17!) وكرمتهم ووفرت لهم الإطار القانوني لاحتضانهم، وهي تنتهز هذه الفرصة الجديدة لتجدّد التزامها بالاهتمام، وستبقى مؤسستنا دوما على العهد حفاظا ودفاعا مستميتا بالمأساة الموريسكية على الرغم من تخلي الجميع

وعدم مبالاتهم بهذا الملف وموقف بعض الساسة تجاهنا من أسبانيين وعرب، وإن التاريخ لشاهد على ذلك.

وعلى أية حال ننشر اليوم الوثائق الصادرة عن مؤتمرنا الدولي الرابع عشر والذي أقمناه في الفترة ما بين 20-23 ماي 2009 ؛ وهي الوثائق التي تستحق العناية والاهتمام من طرف كل الموريسكولوجيين.

ودون أن نتوقف حول هذا الحدث ولا حول مواقف السفارة الإسبانية بتونس والتي قامت بدعم ثلاث لقاءات أولاهما كان في شهر نوفمبر 2008 والثاني في أوائل شهر ماي بسليمان والثالث في داخل السفارة الإسبانية ذاتها.

كذلك قامت *Legado Andalusí et la Sociedad Estatal de Conmemoraciones Culturales, avec la collaboration de l'Université de Grenade* بالتعاون مع جامعة غرناطة ومنظمات أخرى بتنظيم مؤتمر شارك فيه 84 باحث حول تاريخ الأقلية الموريسكية، وتم تغييب ملف المأساة الموريسكية، ووضع هذا المؤتمر ثلاث أيام فقط من عقد مؤتمرنا، وهو مؤشر بين لا يحتاج إلى تعليق. نترك إذن هذه الوثائق تتحدث عن النتائج الملموسة والتي توصل إليها مؤتمرنا ولا شك أن ذلك قد شرف أي مؤرخ وباحث في علم الموريسكولوجيا.

ومن خلال مؤتمرنا، أصبحنا أكثر إصرارا عندما طالبنا اسبانيا عن حق، بالاعتراف بهذه المأساة الفاجعة، وسوف نبقى كما قمنا بالسابق منذ سنة 1992، نطالب اسبانيا بالإقرار والاعتراف بهذه المأساة، على الرغم من تخلّي البعض عنا، باحثين وسياسيين عرب واسبانيين.

الوثيقة رقم 1

وزارة الخارجية الإسبانية

المعهد الإسباني للتعاون الدولي:

خطاب جلالة الملك خوان كارلوس

في بهو قاعة السفراء بمدينة الزهراء بقرطبة في 4 نوفمبر 1992

إنه لمن دواعي السعادة العميقة لي وللملكة أن نتقاسم وإياكم هذه اللحظات في حفل الأندلس 92، في هذا الإطار المعبر، بهذا البهو بمدينة الزهراء. على أن ما يعمق سرورنا حضور السيد عصمت عبد المجيد الأمين العام لجامعة الدول العربية بيننا، وهو الذي يشاطرنا بصفته المتوسطية. وكذلك حضور الممثلين الدبلوماسيين للعالم العربي المعتمدين في إسبانيا، إلى جانب نخبة من الشخصيات البارزة من العالم الأكاديمي والثقافي الإسباني والعربي. كما أود أن أشكر حضور السيد محافظ دمشق، هذه المدينة التي عاشت ازدهار الخلافة الأموية، والتي جاء أحد أبنائها إلى "أقصى الأرض" الغربية هذه، ليؤسس في قرطبة البديعة، ما يمكن أن نعتبره أهم مركز سياسي وثقافي خلال العصور الوسطى الأوروبية.

إن الحديث عن الأندلس من هذا المكان الذي أجدني فيه الآن، أمر سهل وميسور، إذ كل ما يحيط بنا يبدو مضخما بروائع الحضارة الإسبانية العربية، والتي يشهد بها هذا السفح الذي شيدت عليه مدينة الزهراء، وحيث يكتنف فيه أكثر من أي مكان آخر، الروح الأندلسية التي عبرت في جوهرها عن الاستعداد الحيوي من أجل البقاء والتعايش.

إن إسبانيا العربية ومساهمتها في إثراء التراث الثقافي والعلمي الإنساني، كانت خلال السنوات الخمس الأخيرة، محل اهتمام مجموعة العمل الأندلس 92. وبفضل جهود هذه المجموعة المنبثقة عن اللجنة الوطنية للذكرى المئوية الخامسة، أصبحت الأندلس في الوقت الحاضر، معروفة بشكل أفضل، وهذا ما يجعلنا نحس بعمق السعادة، فقد انعقدت

بالفعل خلال هذه الفترة، الاجتماعات العلمية وأقيمت المعارض التي برهنت للعالم على روائع الفنون ومساهمات العلماء الأندلسيين في العلوم والتكنولوجيا. وقد تتابعت نشاطات الطباعة والنشر حول معاني هذه الحقبة التاريخية، لإبراز الأوجه الجوهرية من مرحلة التعايش التي عرفتها ثقافتنا والتي تركت في إسبانيا طابعها الخالد.

إن الأندلس كما بدا جليا من خلال أصوات موثوق بها وصدرت عن التاريخ العربي والإسباني، كانت ملتقى للشعوب التي عاشت في هذا المجال الحيوي طوال حقبة مزدهرة وللحضارة التي ارتبطت وثيق الارتباط بها في هذه المباني الألفية العريقة والتي تستضيفنا اليوم، وتعبر خير تعبير، عن أسماء لامعة مثل ابن رشد وأبي القسيس وابن حزم وابن زيدون. إنها أسماء نشعر نحن الإسبان والعرب تجاهها، بنفس الاعتزاز والمفخرة.

ولكنني، علاوة على هذه الأمجاد التي هي دوما سريعة الزوال، أود إبراز ما بقي بيننا روحيا، وهو الذي مازال بعد قرون اتسمت بقلة التفاهم والكثير من التعصب، الإرث المشترك وهو الأكثر إيجابية، وأعني به روح القرابة والتجارب التي تقاسمناها خلال أحقاب طويلة وكانت مثمرة بالتبادل مع ما هو عربي وهذا من خلال الاستخدام الدائم للغة التي أخذت الكثير من الكلمات الأندلسية، ثم عبر عادات شعبية وفنون تقليدية كانوا قد حافظوا عليها باعتناء استثنائي.

كذلك أيضا كانت مجموعات عربية، تنتسب إلى أولئك الموريسكيين المكدّين، تعيش اليوم في مدائن ذات تقاليد أندلسية مثل فاس أو تستور وهي مازالت تحافظ بإخلاص جدير بالثناء، على مفاتيح بيوتهم الطليطلية أو القرطبية، والتي أرغموا على هجرها، عندما تغلبت اعتبارات مصلحة الدولة على اعتبارات الحق في ذاته، إلا أن مشاعر الوفاء نحو ماضيهم الأندلسي، تجعلنا نشعر بهم أكثر قربا منا، ولا تسمح لنا أن ننسى أن الحنين للتاريخ يمكنه في بعض الأحيان تقنيع الواقع. ذلك أن التاريخ كما قال منذ قرون ستة ابن خلدون، يجب أن يضعنا أمام الواقع من خلال المعرفة بكيفيات الوقائع وأسبابها العميقة، وهذا الواقع هو الذي نريد معرفته معرفة إيجابية. ذلك الواقع الذي قوامه المشاريع المشتركة والتي نرغب في دفعها في الحاضر، ونحن على ثقة من مضاعفتها في المستقبل.

إن الأندلس هي اليوم، على سبيل المثال، المجال المتوسطي الذي يمكن أن تتحقق فيه لقاءات جديدة على طريق التعاون في الحقول الثقافية والفنية والعلمية، كما وتفتح أبوابا جديدة للعمل وللأمل أمام الشعوب التي تتقاسم ضفتي المتوسط الشمالية والجنوبية. ووفقا لذلك وبهذه الروح، استضافت إسبانيا في مدريد، منذ سنة واحدة، مؤتمر السلام حول الشرق الأوسط والذي أجلس حول نفس المائدة، الأطراف المتنازعة منذ أكثر من أربعين عاما. وعلى هذا الأساس، يعتبر مؤتمر مدريد تغيرا نوعيا في تاريخ الدبلوماسية في الشرق الأوسط، ومازال المؤتمر اليوم مستمرا في عقد جلساته على شكل اجتماعات ثنائية أو متعددة الأطراف، ومازال المؤتمر اليوم مستمرا في عقد جلساته على شكل اجتماعات ثنائية أو متعددة الأطراف، ومازال بلدي يتابع جهوده في دعم التقارب بين الأطراف المعنية ويسمح بإيجاد سلام عادل وشامل في هذا الإقليم المضطرب.

إن الأندلسيين هم اليوم، أيضا، مواطنونا المسلمون الذين يشكلون جزءا من مشروع العيش في حرية واحترام لمعتقداتهم، مثلهم في ذلك، مثل بقية المواطنين في بلد ديمقراطي، وهم الذين يحظون بإعجاب ملكهم لمساهمتهم في الجهد التضامني المشترك.

إننا نحمل هم المأساة الإنسانية للذين يهاجرون بدافع الحاجة مجازفين بالحياة ذاتها، وليقود ذلك في الكثير من الأحيان، إلى حياة هامشية لأشخاص لا يتطلعون سوى نحو حياة أفضل لهم ولأولادهم. ولذا نشكر الجهود المبذولة للتحكم بهذه المشكلة، وهذا في نفس الوقت الذي نتابع فيه نحن جهودنا في سبيل إيجاد اهتمام أوروبي أكبر بجيراننا في الجنوب، وهم الذين أكرر لهم التعبير عن إرادتنا للعمل في خدمة عالم أفضل للجميع.

إن الأندلس هي اليوم، واسمحوا لي أن أستخدم هذه المفارقة، المثال على ما كانت عليه في الماضي من احترام لحقوق الإنسان ولحرية المعتقدات، وإلى جانب ذلك عدم التمييز لأسباب دينية أو الماضي من احترام لحقوق الإنسان ولحرية المعتقدات، وإلى جانب ذلك عدم التمييز لأسباب دينية أو عرقية. إن هذه الروح التي كم نرجو أن تثمر اليوم، أمام التعصبات الرافضة للحوار، والنابعة من إيديولوجيات معينة، وكانت قد برزت من استياء اجتماعي واقتصادي وسياسي، وظهرت بعنف شديد في الآونة الأخيرة.

ولذلك، يجب أن تكون الأندلس اليوم أيضا، مشروعا للمستقبل يقوم على أساس الاعتراف بالأوامر التي وحدتنا في الماضي، وخاصة تلك التي نريد مدها في سبيل إنجاز

مشاريع مشتركة أوروبية-عربية، باعتبارنا شعوبا تنظر نحو الأمام بروح إيجابية وواثقة من قدرة مجتمعاتها على مواجهة التحديات العديدة في عالمنا الحاضر. كما نريد أن تتجسد الأندلس في أيامنا هذه من خلال مشاريع، مثل الجامعة الأوروبية-العربية والتي التزمنا بالعمل على إنشائها بقناعة ورضا، وهي جامعة نرجو أن يجد فيها شباب العالم العربي، الأجوبة على فضولهم العلمي وتطورهم الفكري، في كنف التعايش الوثيق مع زملاء لهم من دول أوروبية مختلفة. كما يجب أن تكون الأندلس النموذج لبناء إطار جديد للعلاقات المتوسطية في كنف الأمن والتعاون والأبعاد الإنسانية، وهي العوامل الأساسية لهذا التعايش الجديد بين جميع دول المنطقة. وعندما يتم القضاء على انعدام الأمن، بدعم التعاون الاقتصادي والاستثماري، وتشجيع الحوار الثقافي والتعايش بين المعتقدات ومناهج السلوك، فإنه يومئذ باستطاعتنا بناء مجال جديد يسوده السلام والاستقرار.

وهذا هو الهدف الجديد للأندلس الجديدة والذي طرحنا اليوم مشروع القيام بتحقيقه معا، ووفقا لذلك وللسير معا نحو هذا الهدف، فإني أتوجه إليكم بالدعوة لتحقيقه والسلام عليكم.

الملك خوان كارلوس

الوثيقة رقم 2

تعليق د. عبد الجليل التميمي على خطاب

جلالة الملك خوان كارلوس الذي ألقاه بمدينة الزهراء بقرطبة

تتسم العلاقات الإسبانية العربية السياسية منها والاقتصادية والثقافية بالوضوح والشفافية، فقد منح العالم العربي أهمية استثنائية لإسبانيا وفاء للنسيج الحضاري الروحي والذي ربط وإلى الأبد تاريخ الأمتين. ذلك أن الأمة العربية قد منحت إسبانيا خلال العصور الوسطى أهم المراكز المعرفية والتي ساهمت بشكل مباشر في تغذية وتعزيز حوار الحضارات والثقافات والأديان، وكذلك قدمت الأندلس العربية، أروع الأمثلة على التسامح والتكامل والإيمان بقدرات الإنسان على بناء صرح الحضارة البشرية.

وإحساسا منا بالمعاني الخالدة للوجود العربي-الإسلامي بإسبانيا من خلال روائع الآثار وحركية التراث الشاملة، ووفاء منا أيضا لأولئك الذي صنعوا التاريخ بعلمهم واختراعاتهم وذكائهم ونبوغهم، جاءت حركة الاسترداد الإسبانية لتجتث هذا الشعب العربي-الإسباني، من أرضيته الحضارية ولتلقي به خارج الجزيرة الإيبيرية في عملية تهجير غير إنسانية. وانطلاقا من ذلك وبمناسبة الذكرى الخمسمائة سنة لسقوط غرناطة (1492-1992)، كنا قد نظمنا بتونس وزغوان أهم مؤتمر دولي عالمي حول هذا الموضوع، حضره أكثر من مائة متخصص أكاديمي وقد ألقينا في حفل الافتتاح بحضور سعادة سفير إسبانيا: النداء التالي والموجه إلى جلالة ملك إسبانيا جاء فيه :

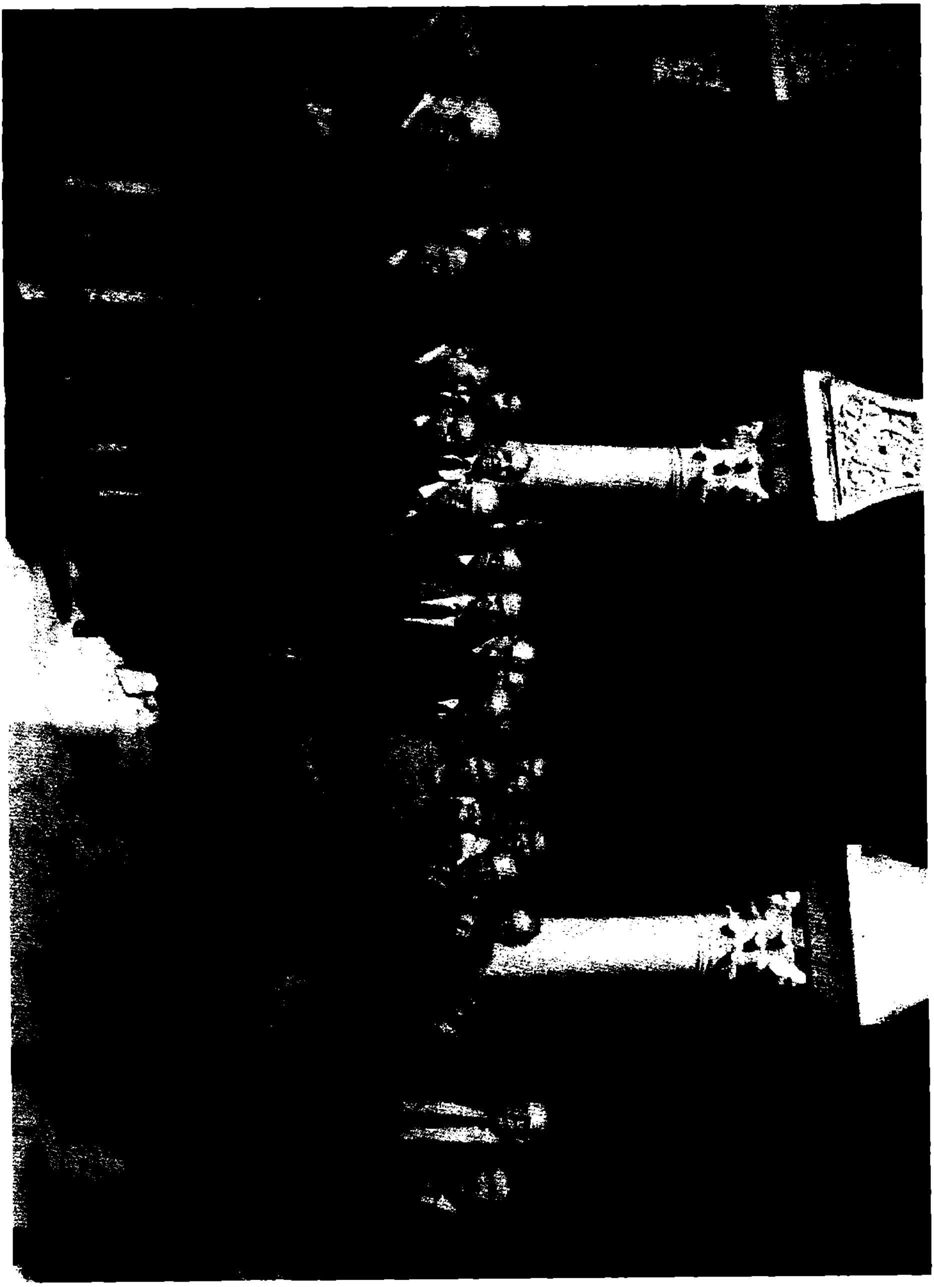
"يشاع أن جلالته يستعد لسن قانون ذي دلالة رمزية يلغي به قانون طرد اليهود من إسبانيا والذي تم في 31 مارس 1492. وإذا صح مثل هذا التوجه الجديد، فإننا من هذا المنطلق وحرصا منا على دعم العلاقات العربية-الإسبانية الممتازة واعترافا بدور الأندلس الخالد في بناء الحضارة البشرية، وتسجيلنا لتلك المأساة الموريسكية التي استمرت فصولها أكثر من مائة وخمسين سنة فإن التفكير في تبني السلطة الإسبانية العليا اليوم، موقفا ما، إزاء هذه المأساة وهذا الطرد الجائر، سيجد اهتماما وعطفا كبيرين لا يخلوان من دلالات سياسية مستقبلية، خاصة وأن إسبانيا قد احتضنت مؤتمر السلام وحيث أصبحت رمزا للقضايا العادلة وحقوق الإنسان في عصرنا هذا".

وبالفعل فإن جلالة الملك بتاريخ 31 مارس 1992، ألقى خطابا تاريخيا بمدريد كانت الصحافة اليهودية قد وظفته عبر العالم وعلى ضوء هذه المعطيات كما قررت الحكومة الإسبانية تخصيص يوم 04 نوفمبر 1992 لإلقاء جلالة الملك خطابا في بهو السفراء بمدينة الزهراء بقرطبة. وبالفعل فقد حضر هذا الحفل ثلة من المستعربين الإسبان وهم الذين اهتموا بالحضارة العربية-الإسلامية بالأندلس، وكذلك أربع شخصيات علمية عربية، هذا فضلا عن كل السفراء العرب المعتمدين بمدريد.

وقد ألقيت ثلاث كلمات إحداها للعالم المستعرب الكبير Emilio Garcia Gomez ثم كلمة الأمين العام لجامعة الدول العربية الدكتور عصمت عبد المجيد وأخيرا خطاب جلالة الملك خوان كارلوس، وهو الخطاب الذي تميّز بالتركيز على الدور الحضاري الأندلسي المتألق في تاريخ الإنسانية وكيف أن الأندلس كانت بالفعل أحد الجسور الأساسية في غرس فضائل التسامح والتعايش والتكامل. وأن إسبانيا اليوم تمد يدها لصنع ونحت علاقات مستقبلية مع العالم العربي من أجل الخير والمصلحة المشتركة، بل إن إسبانيا التي تعد نافذة العالم العربي على أوروبا، لمستعدة أن تؤدي دورا طلائعيا في الحوار العربي-الأوروبي الثقافي منه والسياسي والاقتصادي.

غير أنه من جهة أخرى لا بد لنا أن نلاحظ أن خطاب جلالة الملك، لم يثر مأساة تهجير الموريسكيين الأندلسيين بالقوة واجتثاثهم من الأندلس والتنكيل بهم "**باعتبار أن مصلحة الدولة تغلبت على اعتبارات الحق في حد ذاته**" كما جاء ذلك في كلمة جلالته.

نذهب إلى الاعتقاد أن إقامة هذا الحفل، يعد عملا إيجابيا للغاية ومفيدا في حد ذاته وخطاب جلالته، يشكل لبنة أساسية جديدة لبناء علاقات مثمرة في جميع الميادين. إلا أننا كنا نؤمل أن يلمح إلى تلك الفترة الحرجة من تاريخ العلاقات العربية-الإسبانية، حين مارست محاكم التفتيش تجاه الموريسكيين الأندلسيين، أشنع مأساة عرفتها البشرية في عصر النهضة على الإطلاق. إن الدرس الذي نستمده من هذا الحفل، هو ضرورة وجود منابر علمية عربية مع الباحثين والمستعربين الإسبان وتكثيف التعاون العلمي مستقبلا مع مراكز البحوث والجامعات الإسبانية العديدة والتي تسعى من جانبها هي الأخرى إلى إقامة الجسور العلمية مع العالم العربي فمتى سيتحرك العالم العربي وجامعاته ومعاهده ومراكزه الكثيرة في هذا الاتجاه السليم والصحيح ؟



الوثيقة رقم 4

المؤسسة الملكية لشؤون أسرة جلالة الملك

السكرتير العام

قصر لاثرثويلا

مدريد، في 25 فبراير 2009

إلى البروفسور عبد الجليل التميمي

مدير مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات

الأستاذ الفاضل،،

يطيب لي أن أبلغكم بأننا توصلنا برسالتكم التي وجهتموها إلى جلالة الملك في الثالث من فبراير الماضي، عن طريق السيد محمد عبد الكافي؛ والتي تخبرون جلالته فيها عن عزمكم عقد مؤتمر بمناسبة الذكرى الأربعمائة عام على طرد الموريسكيين من إسبانيا (1609-2009)، وتبدون من خلالها رغبتكم في أن يحضر جلالته هذا المؤتمر المنعقد في تونس من 20 إلى 23 مايو المقبل.

وإن جلالته ليشكركم على دعوتكم الكريمة هاته، وباسمه ونيابة عنه أبلغكم تحيته الودية وتمنياته بنجاح المؤتمر. وللأسف، فإن التزامات جلالته في هذه الفترة تحول دون إمكانية أن ندرج ارتباطا آخر ضمن أنشطة جلالته.

وبتعليمات من جلالته فإني أحيل طلبكم على معالي وزير الشؤون الخارجية والتعاون على أن يأخذ بعين الاعتبار.

وبعد الامتثال لتوصية جلالة الملك، تقبلوا مني تحياتي واحترامي

ريكاردو دييث هوشليتنر رودريغيس

الحصيلة والتوجهات المستقبلية للدراسات الموريسكية
(2009-1983)

أهدف من خلال ورقتي هذه، أن أنقل ولو صورة مصغرة للأعمال التي تم إنجازها منذ 27 سنة في نطاق فعاليات مؤسستنا وهي التي أولت اهتماما مركزا ومنتظما للدراسات الموريسكية، وقبل أن أستعرض تلك الإنجازات والتوجهات المستقبلية، أبدي بعض الملاحظات الأساسية :

أولا : لقد حرصنا كل سنتين على تنظيم مؤتمر دولي يخصص لملف معين تناول الإشكاليات التالية : التطبيقات الموريسكية للإسلام والمهن والحياة الدينية، والذكرى الخمسمائة لسقوط غرناطة، والنساء والأطفال، والصور الموريسكية في الآداب والفنون والمنهجية الجديدة لهذا الاختصاص ثم الموريسكيون والبحر الأبيض المتوسط، وآداب الموريسكيين وتأثيراتهم بتونس وأمريكا اللاتينية، ثم لغة وآداب الموريسكيين والأبعاد العقائدية والفكرية في الأدب الألخميادو وسياسة محاكم التفتيش وأخيرا الذكرى المئوية الرابعة للتهجير القسري للموريسكيين من الأندلس والذي شارك فيه 55 باحثا دوليا. أما مؤتمرنا الخامس عشر المقبل، فسوف يتناول ملفا جديدا حول التداعيات السياسية والاقتصادية والاجتماعية للوجود الموريسكي بأمريكا اللاتينية وبمدن البحر الأبيض المتوسط.

وقد توجت كل هذه المؤتمرات بنشر حوالي 600 دراسة تمت أساسا باللغة الأسبانية، ثم الفرنسية والعربية والإنجليزية، وهو رصيد هام للدراسات الموريسكية، ونؤكد أننا كمؤسسة أكاديمية مغاربية قد أدينا دورا طلائعيا في انطلاقة هذه الدراسات الموريسكية على المستوى الدولي منذ 27 سنة اليوم.

ثانيا : أننا وجهنا الدعوة لكل المتخصصين الدوليين دون استثناء وعلى الخصوص منهم الجيل الجديد من الباحثين والباحثات، على اختلاف جنسياتهم وقناعاتهم الدينية، وهذا ما وفر إطارا مثاليا وواعدا لهذه الدراسات، حيث استجاب لدعواتنا مئات المؤرخين

والباحثين والذين يهمهم تطوير المعرفة أنى كان مصدرها، وعلى ضوء ذلك لم يعد الغرب منذ سنة 1983 مركز الثقل العلمي الوحيد لكل ما يتعلق بالدراسات الموريسكية، إذ ظهر عدد من المخابر العلمية المتخصصة خارج أسبانيا، ذاكرين على سبيل المثال مخبري بورتوريكو ومؤسستنا، عندما طورا هذه الدراسات بشكل سريع وفاعل وأشمل مع الإقرار بما ينجزه الباحثون والمؤرخون الأوربيون وبصفة خاصة بأسبانيا.

ثالثا : أننا توجنا هذا الاختصاص عندما أطلقنا لأول مرة مصطلح الموريسكولوجيا Moriscologie وهو الاختصاص الذي استقطب المئات من الجيل الجديد من الباحثين عربا كانوا أو غربيين أو أمريكيين والذين تواصلوا مع مؤسستنا، ما عدا فئة غربية بالذات يؤلمها أن ننجح في تنظيم دوري لهذه المؤتمرات الدولية بشكل منتظم منذ 27 سنة اليوم وأن يشارك المئات من الباحثين وعلى الخصوص أن نوفق في نشر جميع الدراسات التي وصلتنا باللغة الأسبانية والفرنسية أساسا، وحيث شكلت إنجازا هاما جدا في جدلية هذه الدراسات، وتلك هي علامة مضيئة وإقرار بكل الخدمات الجليلة التي أداها رواد الدراسات الموريسكية الدوليين، وجاءت هذه المبادرة من مؤسسة أكاديمية غير أوربية.

رابعا : أننا قمنا بتكريم ثلة من العلماء والباحثين الأوربيين والأمريكيين، بدءا بالفرنسي لوي كاردياك، ثم الأسبانية ماريا صوليداد أرقويتي والبورتوريكية لوث لوباث بارلت وأخيرا الأسباني قالمس دي فوانتس، رائد الدراسات الموريسكية منذ سنة 1972 في جامعة أوفييدو وبمدريد.

خامسا : أننا أنجزنا عملا توثيقيا أساسيا تمثل في نشرنا لأول مرة، **الببليوغرافيا العامة للدراسات الموريسكية** سنة 1994، وحصرنا فيها 3577 بين مرجع ومصدر، وهي تعد أول أداة عمل أساسية لا غنى لأي باحث عنها، وكنا نؤمل مواصلة هذا التكشيف الدقيق للدراسات الموريسكية عبر العالم وإعداد الجزء الثاني لهذه الببليوغرافية إلا أن عوائق كثيرة حالت دون إنجاز ذلك، إلا أن جامعة أوفيادو تقوم بنشر مجلة Aljamia والتي كشفت الدراسات المنشورة في أوربا، ما عدا الأعمال التي نشرت في العالمين العربي والإسلامي وكذا الهند واليابان، حيث يوجد متخصصون كنا قد تمكنا من استقطابهم وحضروا فعاليات بعض مؤتمراتنا.

سادسا : أننا تمكننا من توظيف رصيد وثائقي مهم وجديد تمثل في الوثائق العثمانية بإستانبول وعدد من المخطوطات المحررة باللغة العربية، وهما المصدران المغيبان في

كل الدراسات الأوربية والأمريكية، ذلك أن الصبغة الأكاديمية تفرض على أي مؤرخ أو باحث عدم تغييب ذلك والإدراك بأن هناك مصادر خليقة بالاهتمام بها، وهو ما قمنا به في معظم دراساتنا المنشورة والتي سمحت لنا بدراسة ملفات مرتبطة بالعالم العثماني. كما قمنا باكتشاف عدة وثائق مهمة جدا في أرشيفات البندقية وفلورنسا وباريس وحيث تم توظيفها جميعا في دراساتنا. مع تأكيدنا أن أرشيفي البندقية والفاتيكان، يعدان من أهم الأرشيفات الغربية والتي لم يول الباحثون إليها اهتماما كبيرا وتم الاكتفاء بأرصدة الأرشيفات الإسبانية الغنية جدا.

سابعا وأخيرا : أن مؤسستنا قامت بتعريب مئات الدراسات وبعض الكتب من الأسبانية والفرنسية إلى لغة الضاد، إذا علمنا أن هناك مئات العناوين المرجعية المنشورة باللغة الأسبانية والفرنسية، وكان الواجب على المراكز والجامعات والمنظمات العربية والإسلامية أن تولي لهذا الملف اهتمامها المباشر والمركز. إلا أننا نسجل لديها، إهمالا مخجلا حقا وحيث لا يمكن تبريره البتة، وهو يبعث على الأسف.

ومن هذا المنطلق أخذنا في شهر ماي 2009 قرار إنشاء **المركز الدولي لترجمة الدراسات الموريسكية** وتمت إعادة وهيكلة انتخاب اللجنة الدولية للدراسات الموريسكية Comité International d'Etudes Morisques (CIEM) وهي التي سوف تشرف وتهندس فعاليات هذا المركز من مؤتمرات وترجمة ولقاءات دولية. وقد أحطنا عديد الشخصيات العربية علما بهذا الإنشاء، إلا أننا لم نجد أي استجابة لدعم هذه المبادرة والتي سوف تعمل بطريقة منهجية على إيلاء الذاكرة الموريسكية ما يجب أن تستحقه.

بعد هذه التوطئة أستعرض مدى حرصنا البالغ والشديد للاهتمام بالموريسكيين والذين تغافلت عنهم المراكز والجامعات والمنظمات العربية والإسلامية جميعها والرأي العام العربي-الإسلامي، وأصبحت الأندلس كما هو الشأن اليوم بالنسبة لفلسطين، شعارا استهلاكيا بحتا ولم يتطور إلى مخطط بحثي شامل. وعليه سوف نتوقف عند بعض النتائج التي توصل إليها الباحثون والمؤرخون الذين قمنا بنشر بحوثهم منذ انطلاقة مؤتمراتنا الأربعة عشر الماضية.

إن دراسة متفحصة للإنتاج العربي والإسلامي، على ندرته، تظهر أنه ركّز على الجوانب العاطفية لهذه المأساة كإجبار المجموعات الإسلاميّة على ترك دينها وتعميدها

ومراقبتها والتضييق عليها وحرقها، فنتائج سقوط غرناطة في 2 يناير 1492، كانت بداية النهاية لمأساة شعب برمّته قضي عليه تدريجيّا بإعلان الحرب على مقدّساته ولغته وحضارته ودينه وتراثه، وتبنيت كلّ القوانين والقرارات الدينيّة والوضعيّة والإداريّة لتسهيل مهام آلاف الموظفين الإداريين والمخبرين والعسكريين الأسبان عبر خمسة أجيال كاملة، للإشراف وبطريقة جهنميّة، على القضاء نهائيا على هذا الشعب الموريسكي المسلم واجتثاثه تماما من أندلسه التي منحها أفضل القيم والمبادئ والإنجازات الحضارية الكبرى. لقد تكررت مثل هذه المعلومات في كلّ الكتابات العربيّة بأساليب مختلفة ومصدرها دوما، إما التآليف العربية القديمة أو تعريب بعض الأعمال الغربية والإنجازات المعرفية التي سجلتها الجامعات ومراكز البحوث الغربية أساسا. إنّ التاريخ الموريسكي ليس حدثا أو أحداثا أو مواثيق لم يقع احترامها، وهي ليست فقط مأساة فظيعة ترتكب في حقّ شعب، بل هي أعمق من ذلك بكثير، إنها مصير شعب سجّل حضوره بالأندلس طوال ثمانية قرون، وتأصّل وجوده المادي فيها وبرز من خلال نبوغه وإبداعه وتفانيه، في صنع مجتمع وحضارة ومدنية، تعد اليوم من مفاخر الإبداع البشري على الإطلاق والأسباني العربي بصفة خاصة.

وهل يقبل أن يهمّش التاريخ الموريسكي الأندلسي ويهمل أساسا من قبل مؤرّخينا وباحثينا، في حين يولي الآخرون اهتماما متزايدا بفلسفة وغائيّة ومستقبل البحث حول هذا الموضوع التاريخي العربي-الإسلامي بالدرجة الأولى ؟ ذلك هو عين الجحود وعدم الوفاء لهؤلاء الموريسكيين حتى بعد مماتهم ! وتلك هي مظلمة كبيرة ومسؤوليّة حضاريّة يتحمّلها المجتمع العربي-الإسلامي الذي يتجاهل تماما، التفاصيل الدقيقة التي صاحبت تصفية الوجود العربي-الإسلامي بالأندلس؟

لقد أكد الباحثون أن هناك عددا من المسائل التي تحتاج إلى عناية جديدة، لنتذكّر أوّلا أنّ الجغرافيّة التاريخية لسكّان الأندلس تؤكّد على وجود أكثر من مليون نسمة قبيل السقوط يتوزعون في كلّ التراب الأندلسي، وإنّ قوافل الهجرة الأندلسيّة، بدأت قبيل سقوط غرناطة واستمرّت حثيثة طوال القرن السادس عشر ولتختم بإعلان الطرد سنة 1609. ومع هذا، فإنّ موضوع أعداد هذه الهجرة وتواريخها التقريبية وتوجهات أصحابها في الفضاء الجغرافي العربي-الإسلامي، مازال موضوعا يكتنفه الغموض. ويمكننا أن نؤكّد على ضوء ذلك، أنّ نصف مليون نسمة أجبروا على ترك وطنهم الأندلسي ما بين 1485

و1615، وأنّ نفس هذا العدد وقع دمجه تماما في المجتمع الأسباني، بعد أن فرض عليه التعميد القسري والتخلّي عن جميع مقوّماته.

فالدراسة المتفحّصة لكلّ القرارات التدريجيّة الصادرة عن جميع السّلط السياسيّة والدينيّة والإداريّة العليا طوال القرن السادس عشر، تؤكد أنها قرارات جائرة لا قانونيّة ومتنكّرة لأبسط قواعد التّسامح الحضاري والديني التي نادى بها السيد المسيح نفسه، ومارسه المجتمع الإسلامي الأندلسي بكلّ نبل وسموّ وإيمان، وهذا بشهادة أشهر المؤرّخين الباحثين الغربيين اليوم. لقد نجحت تلك القرارات في تضييق الخناق على الموريسكيين تضييقا كاملا، ولاحقتهم في قراهم ومدنهم ومنازلهم، بل وبثّت العيون في العائلة الواحدة نفسها لضرب لحمتها ووحدتها الداخلية، وقضت تدريجيّا على هويتهم ولغتهم بل وأضعفت إسلامهم نتيجة الإرهاقات والملاحقات اليوميّة التي مورست ضدّهم، ولم يعد هناك ملجأ للخلاص من هذا الكابوس المفروض عليهم، فأسماؤهم كلها لاتينية حيث حرّم عليهم حمل الأسماء العربيّة بما في ذلك أسماء الفقهاء والمدرسين والمربين الذين أجبروا على حمل أسماء لاتينية ...

ثمّ من جهة أخرى كان أبناؤهم في الغالب يختنون ولدى اكتشاف محاكم التفتيش هذه الظاهرة، يقع اتهامهم باتباع الدين الإسلامي سرا، ومصيرهم كان الحكم بمختلف العقوبات والتي تصل في بعض الأحيان إلى الحرق أحياء، وعربيّتهم أكثر من هزيلة وممسوخة، وهذا بسبب عدم السماح لهم بتعلمها وسد الطريق أمامهم بحرق مئات الآلاف من المخطوطات والكتب المنسوخة في الساحات العموميّة ابتداء من سنة 1500، وتواصل ذلك طوال القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر، وقد أغلقت مدارسهم ومكاتبهم ومعاهدهم وحلقاتهم الدّراسيّة، ومنعوا من اقتناء الكتب العربيّة المستجلبة سرا من الفضاء المغاربي أو المشرقي، عن طريق الحج السري أو الرحلات المكوكية بين أسبانيا والمغرب العربي. بل أنّ المجالس الحكوميّة ببلنسيّة أمرت ابتداء من سنة 1564 بحرق كلّ الكتب العربيّة التي تعثر عليها محاكم التفتيش، وهذا لا يهم بلنسية وحدها وإنما كل المملكة الإسبانية، وقد فرضت على الموريسكيين تعلّم اللّغة القشتاليّة خلال ثلاث سنوات وعدم التخاطب أو استعمال لغة الضاد. بل أنّ محاكم التفتيش سجّلت لنا من خلال ملفّات الاستجوابات التي أجرتها مع الموريسكيين المتهمين، العثور في بيوتهم على بعض الورقات البسيطة والتي حرّرت فيها بعض أسماء الله الحسنى أو الأحاديث، تبرّكا بها

وإصرارا منهم على اللّجوء إليها في أوقات الضيق الروحي والنفسي. وقد انطفأت نتيجة لذلك جذوة ذكائهم وعلمهم وثقافتهم وهمّشوا تهميشا كاملا وعلى جميع المستويات. وقد صودرت أملاكهم حتى الأملاك المحبّسة أي الأوقاف التي كانت الركيزة الأساسية لتغطية نفقات ما يسمى اليوم بمؤسسات المجتمع المدني، ذلك أن الأحباس بالأندلس تمتعت بأهمية استثنائية شأنها في ذلك شأن بقية المجتمعات الإسلامية، وقد قامت الكنيسة بالاستيلاء عليها جميعا وكانت تفرض على المواطنين أقصى أنواع الضرائب قصد خنقهم اقتصاديا، وذهب الأمر إلى منعهم من استيطان الموانئ الأندلسية لقطع الصّلة بينهم وبين أبناء المغرب العربي، وحوّل العديد من نبلائهم وأشرافهم وأطفالهم إلى عبيد ليمتهنوا أشنع وأقصى وأحقر المهن تنكيلا بهذا الشعب، ذلك أنّ محاكم التفتيش كانت تهدف أساسا ليس للقضاء على الإنسان الموريسكي ماديّا، بل خطّطت لتحطيم ذاتيّته وشخصيّته وثقافته ودينه قبل كلّ شيء.

لقد تركت لنا أرشيفات محاكم التفتيش في كامل التراب الأسباني، مئات الآلاف من الملفات والتقارير واستجوابات الآلاف من الموريسكيين، وهي المادة الوثائقيّة التي وظّف المؤرّخون جزءا ضئيلا منها في بحوثهم ودراساتهم، وكشفت لنا تفاصيل مروّعة وغير منتظرة لفظاعة هذه المأساة الإنسانيّة التي عرفها المجتمع الموريسكي يومئذ، وحيث لم يحصل للمجتمع البشري في تاريخه، أفظع وأشنع ممّا حصل لهؤلاء البؤساء العزل. لقد أمكن اليوم حصر مئات القرى الأندلسيّة التي اندثرت تماما من خريطة الأندلس، بعد أن كانت عامرة، ثمّ أمكن أيضا معرفة أفضل وأدق عمليات الحرق للأحياء، ونسبهم المئوية وجنسهم وأعمارهم وأماكنهم والمآخذ التي أخذوا بها، والتي ترجمت عن واقع ممارساتهم السرية في أبسط مظاهرها. وقد ضرب حولهم حصار نفسي رهيب جدا، وأدّى للإيقاع بهم والحكم عليهم بالتجذيف على السّفن الأسبانيّة مدى الحياة، ليعرفوا أشقّ المتاعب والإرهاقات اليوميّة التي قتلت فيهم كلّ شيء، حتى التذكّر بأنّهم مسلمون. وكان الهمّ الأكبر الذي لحقهم هو تأمين لقمة العيش في أبخس مظاهرها، ودفعوا طوال كامل القرن السادس عشر، إلى القيام بالانتفاضات والثورات التي هزّت ليس فقط المسؤولين السياسيين والعسكريين، بل المجتمع الأسباني برمته. وكانت تداعيات ثورة البشرات رهيبة جدا وقد استمرت أكثر من سنتين كاملتين في محيط ومناخ معاديين تماما، وهم محاصرون من جميع الجهات، وليس لهم أي منفذ على الإطلاق لطلب النجدة التي استحال وصولها. وقد أمكن القضاء على الانتفاضة لاستنفاد طاقاتهم العسكرية والبشرية وخصوصا التمويلية.

وقد ساهمت المجموعات الموريسكية في توسيع جبهات المقاومة ولعب الفقهاء ورجال الدين والمرأة دورا طلائعيا فيه، وقد هجروا قسرا من غرناطة وسلطت عليهم أقسى العقوبات من الضرائب والاستيلاء على أملاكهم كلها.

كذلك تطوّر رصيدنا من المعلومات عن السجناء والمساجين والعمل التأطيري الديني الذي قامت به الكنيسة لتسهيل عملية التعميد والاندماج التدريجي في المجتمع الأسباني. كما درس النسيج الاجتماعي للجماعات الإسلامية ومقاوماتهم وبطولاتهم.

كما أنجزت بعض الدّراسات الديمغرافية والاجتماعية عن هؤلاء "العبيد" المهجرين الذين بيعوا في الأسواق وهذا إلى درجة أنّ 85% تم إدراجهم في ذلك من خلال نشاط عدلين اثنين فقط بغرناطة أثناء انتفاضة البشرات، كانت تتمحور حول تسجيل مبيعات العبيد الموريسكيين في أسواق غرناطة وأعدادهم. إلاّ أنّنا لا نعلم بالضبط مصيرهم بعد ذلك، وحتما فإنّهم ذوّبوا تماما في المجتمع الأسباني وضاعت علينا بذلك آثارهم إلى الأبد، إلاّ من بعض الوثائق المحرّرة بالألخميادية في بلديّات المدن والقرى والتي جمعتها محاكم التفتيش وعثرت عليها في بيوت الموريسكيين.

نذكر هنا كيف أن عدة آلاف من الموريسكيين القرويين تحولوا إلى عبيد انتقاما منهم لتعاونهم مع الحملات العثمانية البحرية على النواحي الأندلسية، والتي خططت ونجحت في إنقاذ عدة آلاف منهم في عهد خير الدين بربروس وكلج علي باشا بيلربايات الجزائر وقد نقلوهم إلى المغرب العربي. واضطرّ بعض الميسورين من هؤلاء الموريسكيين العبيد، افتداء أنفسهم. أمّا الجزء الأكبر منهم فانتهت آخر مآسيهم بعبوديتهم إلى آخر يوم في حياتهم. إنّ تفاصيل المآسي اليوميّة مثل ما أنجزه الأستاذ لوي كاردياك في رسالته الجامعية، مازال يحتاج إلى العشرات من الباحثين والمؤرخين لتعميق المعرفة حول هذا الملف الدقيق. وإننا لنقرّ أنّنا نجهل تماما مدى عمق المآسي البشريّة والإنسانيّة التي تعرّض لها الموريسكيّون وعلى الأخصّ منهم الأطفال والنساء. بل أنّ المرأة الموريسكية هي الأخرى كانت عنصرا فاعلا ومحركا لتلك المقاومة البطوليّة، باعتبارها آخر الرموز الصامدة للحفاظ على سلامة العقيدة، بل وجب القول إنّ المرأة الموريسكية بطلة بأتمّ معنى الكلمة وكانت أبلغ إصرارا ومقاومة، لمجابهة محاكم التفتيش. ألم تستمر في حمل أزيائها التقليدية البحتة طوال القرن السادس عشر في حين تبنى الرّجل الموريسكي مكرها، الزي الأسباني منذ أوائل القرن السادس عشر؟ ثمّ ألم يقم البعض منهن بالإشراف على

الحسابات المالية للجماعات الإسلاميّة وتنظيم لقاءات يوم الجمعة ومساعدة النساء على التوليد وإجراء مراسم الدّفن على الطريقة الإسلامية !

لقد واجهت النساء الموريسكيات مصيرا مؤلما جدا عندما وقع تهميشهن تماما شيئا فشيئا من خلال إكراههنّ على الزواج بالمسيحيين القدامى أو تعميد جزء منهن قسرا وهذا بسبب الفقر الذي ضرب فئات جميع المجتمع ودفع الجزء الآخر منهن إلى ممارسة البغاء العلني وفصلن بذلك عن مجتمعهن إلى الأبد. وقد عوّضت المرأة الموريسكية النقص الحاصل للزعماء الروحانيين لتتحمّل بكلّ مسؤوليّة دورها كزعيمة بدون جدال.

أمّا الأطفال الموريسكيون فنشؤوا من صغرهم على الولاء الكنسي في المعابد الخاصة بذلك. وسخّرت الإمكانيّات الماديّة لإنجاح عملية التبني الاندماجية في المجتمع الأسباني الكاثوليكي. ومع هذا استحال على الباحثين المتخصصين معرفة أعداد هؤلاء الأطفال وعلى الخصوص منهم بعد القرار الذي اتّخذ على إثر الطرد الجماعي سنة 1609، بعدم السماح للموريسكيين بأخذ أطفالهم دون السن السادسة، إذا توجّهوا إلى مدن المغرب العربي، وهو الأمر الذي حدا بالآلاف منهم أخذ قرار البقاء الصعب في الأندلس، مع ما يستوجبه مثل هذا القرار من ثقل وخطورة على مصائرهم المهدّدة.

إنّ تفاصيل عمليّات الطّرد الجماعي سنة 1609، تشكّل هي الأخرى حلقة جديدة ومكمّلة لمسلسل الإقصاء الديني والاجتماعي والثقافي والحضاري والاقتصادي الذي مارسته السلط الأسبانيّة يومئذ بكلّ عنهجية وقسوة تجاه الشعب الموريسكي الأعزل، وحيث هجر 275.000 نسمة وهذا وفقا لإحصاء المؤرخ الفرنسي هنري لابير Henri Lapeyre الذي اعتمد فيه على دفاتر الهجرة ووثائق البلديات ويوميات التهجير الأسبانية التي كان يسجلها القائمون على ذلك. لقد تمّ التهجير القسري في ظروف يستحيل على الباحثين اليوم التعبير عنها بأمانة ودقة، لما حفت به من فظاعة وظلم صارخ ومتعمد ومنع الموريسكي من حمل ثروته وماله أو بيع أملاكه ولو بأبخس الأثمان. بل أنّ الملك فيليب الثالث حرّم شراء دورهم وأراضيهم وأملاكهم من قبل الأسبان وعوقب من خالف هذه القرارات الملكية !

لقد ترك البعض منهم أثناء عملية التهجير عبر السفن الأسبانية، في قرى مهجورة دون تمويل أو ذخيرة. وتم الاستيلاء على مدخراتهم ومات أكثرهم في الملابسات الرهيبة التي حفّت بتلك العمليات في موانئ فرنسا والأندلس والتجؤوا إلى بلدان المغرب العربي

وفرنسا وإيطاليا والباب العالي وحتى بأمريكا اللاتينية، حيث عثر على آثارهم المعمارية في أهمّ الإنجازات المعمارية، كبناء الجامعات والكنائس والبلديات وقصور النبلاء، وأنّ المؤرّخ المكسيكي Manuel Toussaint وضع كتابا هامّا جدّا منذ خمسين سنة بعنوان : "الفنّ المدجّن بأمريكا"، ولم يقع الانتباه إليه ولم يقـــع تعريبه إلى اليوم وقد أثبت فيه كشافا تحليليا مفصّلا لتلك المعالم الأثرية ذات البصمات الموريسكية جميعها وهو ما يبرز مدى التأثير الموريسكي في الفنّ المعماري بأمريـــكا اللاتينيّة. وبصفة خاصة في الأرجنتين حتى تصدت لذلك إحدى الباحثات الرائدات، وهي د. ماريا إلفيرا ساقرزازو Maria Sagarzazu. ومع هذا فإنّنا نؤكّد اليوم أنّ وثائق مدن أخرى بالبحر الأبيض المتوسط وغيرها لم تكشف لنا عن أعدادهم ووجودهم وآثارهم وتأثيرهم المباشر في جميع المجالات المعماريّة بصفة خاصة ثمّ تميّزهم بمعرفة المجتمع الإسباني ودينه وتقاليده والصّراعات الداخلية فيه ومعرفتهم الجيدة باللغتين القشتالية واللاتينية.

والسؤال الذي يفرض نفسه، هل استمرّ الوجود الموريسكي الأندلسي بأسبانيا بعد الطرد النهائي سنة 1609؟

والجواب نعم. لقد استمر الوجود العربي-الإسلامي في جزء أساسي من المجتمع الأسباني، حيا متفاعلا في السلوك والعقلية والسمات الفيزيولوجية وطريقة الهندسة البيتية نفسها والتي استمدت أريحيتها من الفن المعماري العربي الإسلامي الأصيل والمغذى بأنواع متميزة من الشبابيك المعلقة والغرف المغلقة والأشجار المثمرة في صحن البيت، والزخارف الخشبية، ثمّ هذا الشعور بالنخوة والاعتزاز الذي اتخذ أشكالا وقنوات عديدة للتعبير عنه في طريقة الرقص الشعبي بحركاته البديعة. ثم لا بدّ أن نؤكد على عدم تهجير كلّ الموريسكيين ، فهذا أمر يكاد يكون مستحيلا، على أن هذا المجال من الدراسات لم يقع الاهتمام به حتى اليوم، فكم من عائلات شريفة ونبيلة وكم من قائد وفقيه وعالم وقع تعميدهم قسرا ومنحت لهم الأوسمة والرتب والمناصب العليا في الدولة. لقد كشفت بعض الدراسات الحديثة لأحد الباحثين التي نشرناها قبل عدة سنوات، كيف أنه في سنة 1727 أي بعد 118 سنة من الطرد النهائي، اكتشفت محاكم التفتيش خمسة قساوسة بغرناطة، يمارسون الدين الإسلامي سرا، نعم خمسة قساوسة بغرناطة ! وهو أمر مدعاة حقا للاندهاش والحيرة وعدم التصديق. ومع هذا تؤكد الوثائق الأسبانية هذه الظاهرة وهذا الحادث بالذات. بل أن السفارة الفرنسية بإستانبول شهدت على وصول عدة عائلات

موريسكية في الربع الثاني من القرن الثامن عشر إلى الباب العالي. والملاحظ أن عددا آخر من الإداريين والعسكريين الأسبانيين، كانوا موريسكيين أصلا حتى أواخر القرن الثامن عشر، وهذا من خلال بعض مظاهر الممارسات الإسلامية لدى المجتمع الأندلسي الأسباني. إنّ التحرّيات الأثريّة الراجعة إلى الفترة الموريسكية نادرة وضعيفة المردود أصلا، إذا قيس ذلك بالاهتمام بالفترات الأخرى. وهذا ما يشكل جانبا تعتيميا مستمرا على هذا الجانب الحيوي من الاهتمامات البحثية. إن عدم إيلاء الحكومة الأسبانية اهتماما بالتراث الأثري الموريسكي، أمر في غاية الدلالة على مواصلة التعتيم الرسمي الممارس حتى اليوم، ثم إن عدم وجود متحف واحد بأسبانيا يخصص لتتبع الآثار المادية لهؤلاء الموريسكيين وتسجيلها لتكون مرجعا ثابتا لدراسة هذه الفترة التاريخية، يعد هو الآخر حلقة مكملة لهذه المظلمة التاريخية والتي استمرت فصولها ومازالت لأكثر من أربعمائة سنة إلى يوم الناس هذا.

وللتذكير فإن متاحف أوروبا وأسبانيا على الخصوص تعجّ بعشرات اللوحات والرسوم التي سجلت النكسة والسقوط ومآسي الهجرة، حيث برع الفنانون في تقديم روائعهم وأنّ ثلث الإنجازات التي تحققت خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر مثلا، تناولت سقوط غرناطة، في حين لم تول المتاحف في عالمنا العربي-الإسلامي ولا الرسامون ولا القائمون على الفن السابع وهم المعنيون حتما بهذا الموضوع، أدنى عناية لسجل هذه الأحداث الجسام وتخليدها في لوحات أو أفلام سينمائية أو مسرحيات حية لتستمد منها العبرة والدرس مثل ما أنجزه الدكتور سلطان القاسمي، حاكم الشارقة عندما حرر مسرحيته "القضية" ومثلت في العديد من المدن ووقع بثها في التلفزات العربية.

إن دراسة الماضي بإيجابياته وسلبياته، يشكل قضية جوهرية في هذه المعركة الحضارية والبحثية لأمتنا اليوم وغدا. لقد أكدنا في أكثر من مناسبة أننا دعاة حوار حضاري مسؤول، وأن لا شيء يمكن أن يحجب أو يقلل في أعيننا من مآسي الماضي القريب أو البعيد أو يصدّنا عن الإصداع بالحقيقة التاريخية مهما كانت صعبة أو حرجة، إيمانا منّا بأنّ عقلية التسامح والشفافية والسعي إلى صنع المستقبل الحضاري للإنسان العربي والإسباني، هي التي وجب أن تكون مثلنا الأعلى والذي نسعى جميعا إلى تحقيقه. كما أننا مازلنا نذهب للاعتقاد أن ما حصل للموريسكيين يشكل مظلمة حضارية كبرى اقترفها التعصب الديني الأعمى وعدم التسامح الحضاري والإصرار على رفض قبول

الأطراف الأخرى المتباينة دينيا وحضاريا وقوميا. إن هذه المظلمة شكّلت إنكارا قاسيا وفظيعا للعطاءات والأبعاد الحضارية. وعليه فإنّ النداء الذي توجّهنا به إلى جلالة الملك خوان كارلوس عديد المرات وآخرها في مطلع هذه السنة، وإلى الوزير الأول السيد زاباتيرو وإلى وزير الخارجية السيد ميغال موراتينوس، من أجل السعي لتبني موقف جديد أكثر عدلا وإنصافا وسموّا، يبقى دوما نداء الوفاء والمحبة والمسؤولية الحضارية لأندلسنا التي يعتز بها العرب والإسبان على حدّ سواء. إلا أن الإصرار على رفض هذا الطلب دون استشارة آراء المؤرخين الاسبان النزهاء والمنصفين وما أكثرهم اليوم، أمر غير مقبول ولا يسعني إلا رفضه جملة وتفصيلا، ذلك أن مواقف السياسيين الأسبانيين في أعلى هرم السلطة السياسية وهم المشبعون بمواقف الرفض المطلق لإعلان هذا الاعتذار الحضاري، أمر مؤسف حقا ولا يخدم مستقبل العلاقات الأسبانية العربية والإسلامية. ولا شك لدينا أنه بفضل هذا الحوار النزيه، سوف تقتنع أسبانيا بمطلبنا هذا، وسوف نبقى ننتظر أي ردّ إيجابي من أعلى السلط السياسيّة الإسبانيّة للإقرار علنا بهذه المظلمة التاريخية في حقّ هؤلاء الموريسكيين الأندلسيين البؤساء، وهذا تماشيا مع الموقف النبيل لرئيس الجمهورية البرتغاليّة عندما أعلن رسميّا وعلنا في مؤتمر عقد ببرشلونة، الاعتذار عمّا حصل للموريسكيين في بلاده.

تأثيرات الموريسكيين-الأندلسيين في المجتمع المغاربي،

إيالة تونس نموذجا

ما من شك أن الملف الموريسكي-الأندلسي بما له من أبعاد وتداعيات دقيقة وخطيرة جدا، يكاد يكون مغيبا من الذاكرة العربية-الإسلامية الجماعية، حيث اقتصر الأمر على ذكر مآثر الأندلسيين في بعض المناسبات العابرة، دون أن يكون هناك دافع للتوقف عند المصير المفجع والمأساوي للموريسكيين الأندلسيين، حيث قامت محاكم دواوين التفتيش والسلطة الإسبانية السياسية يومئذ، باجتثاث بقايا الأمة الأندلسية والقضاء عليها تماما، بكل الطرق الجهنمية واللاإنسانية في محاولة لصهرها وتذويبها في المجتمع الإسباني وكثلكتها بالقوة وبالحرق أحياء، ثم بالطرد الجماعي القسري في آخر المطاف في أوائل القرن السابع عشر.

وقد تواصل هذا التغييب لملف الموريسكيين على عديد المستويات، بدءا من كتب المناهج المدرسية على مستوى العالم العربي والإسلامي، بل وحتى في التعليم العالي، الأمر الذي برر ضآلة المعلومات الصحيحة، بل وجب القول عدم توفرها تماما لدى الرأي العام العربي-الإسلامي، الذي يجهل تماما هذا الملف، إلا بالقدر الضئيل الذي يذكر بتفاصيل مأساة الأندلسيين. وحتى كتب المناهج التاريخية المدرسية الإسبانية حتى وفاة فرنكو سنة 1975، فإنها لا تذكر شيئا عن مسألة القضاء على الموريسكيين : "فمن المستحيل، كما يؤكد ذلك أحد الباحثين، أن نجد بإسبانيا كتابا مدرسيا واحدا، قدم معلومات موضوعية حول محاكم التفتيش ولا عن الهجرات القسرية الضخمة التي لحقت المجتمع الأندلسي من 1492 إلى 1616" (1)، بل على العكس من ذلك هناك تنويه بمحاكم التفتيش

---

(1) Imma Fernandez, *Al-Andalous au delà de tous les silences,* (الأندلس بعيدا عن كل الصمت) *publications de l'Université de Lausanne,* 1996 المحيط..." p 58، تنقل المؤلفة هذا الرأي عن الكاتب Rodrigo de Zayas في مؤلفه : *Les moriques et le racisme d'Etat,* p. 16, Paris (الموريسكيون وعنصرية الدولة).

باعتبارها أداة رائعة لإدماج المسيحيين الجدد أي الموريسكيين في المجتمع الإسباني" إذ كما ذكر هذا الباحث فإن "الأب هانندو دوتالافيرا كان طيبا جدا وهو بمثابة القديس ؛ وقد أخذ على عاتقه العمل على تعميد الموريسكيين بإيمان جيد وبطرق لينة" (2). لقد شكل ملف الموريسكيين إذن، ملفا حساسا تحرم دراسته وإثارته ولو عرضيا إلى وقت قريب جدا بإسبانيا، لأسباب عديدة يطول شرحها هنا (3).

وقد تصدينا من جهتنا منذ ثلاثين سنة، لدراسة ملف تاريخ الموريسكيين-الأندلسيين منذ سقوط غرناطة سنة 1492 وحتى طردهم النهائي سنة 1609، وخصصنا حيزا بارزا في أبحاثنا الشخصية لهذا الملف، وقمنا بتبني استراتيجية بحثية متكاملة لمؤسستنا والتي نظمت اثني عشر مؤتمرا دوليا، انطلاقا من سنة 1983 إلى اليوم، ونشرنا مئات الدراسات الأكاديمية وخمسة وعشرين كتابا مختصا بعدة لغات في علم الموريسكولوجيا (moriscologie). وتمحورت رسالتنا العلمية منذئذ، حول تعزيز البحوث التاريخية المنصفة وللاستفادة من أرصدة الوثائق العربية والعثمانية لأول مرة، وكذا من أرصدة الوثائق الإسبانية والتي تعد بالملايين، والتي خلفتها لنا دواوين محاكم التفتيش وحيث يتطلب توظيفها المزيد من التيقظ والحذر والوعي الكامل لدلالاتها ومصطلحاتها وخلفياتها الدينية والحضارية التي كانت السمة الغالبة عليها. كما قمنا بإعداد ونشر : **البيليوغرافيا العامة للدراسات الموريسكية-الأندلسية**، وهي أول ببليوغرافيا تنشر على المستوى الدولي، حيث تمكنا من وضع قائمة تضم 3570 مرجعا بعدة لغات، وغطت البحوث التي

---

(2) اما فرنانداز، **نفس المصدر**، ص 58.

(3) **المصدر نفسه**، ص 34-48 وص 53-58 وص 65 وص 99.

لقد تواصل هذا التعتيم الاعتباطي ليس فقط على مأساة الموريسكيين، بل تجاوز ذلك للماضي الأندلسي العربي بكامله، عندما قام بعض المؤرخين غير المنصفين وقلة من رجال السياسة الإسبانيين، بتشويه هذا العقد الثمين من عطاء الحضارة الأندلسية لإسبانيا وللعالم بأسره، وأن معرض اشبيلية سنة 1992، لم يتوقف عند ذلك ولم يثر مطلقا أهمية التراث العربي بالأندلس، وهو أمر مدعاة للتساؤل ويعكس خلفية إيديولوجية لا غبار عليها ! وفي هذا السياق لهذا النوع من رجال السياسة الذين يصرون على تجاهل الدور الحضاري للعرب في الأندلس، نشير إلى التصريح الذي أدلى به أخيرا أزنار، رئيس وزراء إسبانيا السابق في محاضرة له بجامعة جورج تاون في أواخر شهر سبتمبر 2004، ذاكرا من أن الحكام العرب بالأندلس كانوا أصوليين، شأنهم في ذلك شأن القاعدة اليوم ! وهو تصريح بائس حقا وشنيع إلى درجة الاحتقار والابتذال ولا سبيل إلى التعليق عليه اليوم بأكثر من ذلك.

أنجزت منذ القرن السادس عشر وحتى أواخر سنة 1994، من طرف الباحثين الدوليين والقلة من الباحثين العرب حول الموريسكيين.

لا نتوقف في هاته الدراسة حول ملابسات الملاحقات اليومية لهؤلاء الموريسكيين، ولا طبيعة حياتهم اليومية وهم البؤساء الذين تحملوا مأساتهم طوال أكثر من قرن ونصف، بإجبارهم على التخلي عن دينهم ومنظومتهم الحضارية بكاملها، لاعتبارهم الورثة الشرعيين للحضارة الأندلسية وممثلي الشرق في الغرب وفي نفس الوقت عدوا ممثلين للغرب في الشرق (4). وكان مآلهم الأخير، الطرد النهائي من وطنهم جزيرة الأندلس، والتجاء أغلبهم إلى الفضاء الترابي للمغرب العربي (5) ولكن أيضا إلى أراضي الدولة العثمانية وخاصة منها الفضاء الترابي الأناضولي (6) والمصري (7) وبعض الموانئ والمدن الفرنسية والإيطالية مثل ليفورنة ومرسيليا (8) وبوردو وكذا هولندا.

---

(4) Robert Landa, :"Les morisques et le développement socio-culturel de la Méditerranée" (الموريسكيون والتطور الاجتماعي والثقافي للبحر الأبيض المتوسط) في : *Morisques, Méditerranée et Manuscrits Aljamiado,* pp.83-84. منشورات المؤسسة، زغوان، 2003.

(5) لقد أثبتنا في كتابنا : **البيليوغرافيا العامة للدراسات الموريسكية-الأندلسية**، 378 ص، منشورات المؤسسة، 1995، كل المراجع المتعلقة بأماكن تحول الموريسكيين على إثر الطرد تحت المفتاح التالي : الطرد : Expulsion من عديد المناطق الأندلسية، ثم تداعيات ونتائج ذلك ديمغرافيا واقتصاديا، ثم طرد المدجنين وقد سجلنا مائتين واثنين وعشرين (222) بين بحث وكتاب بعدة لغات، تناولت ملف الطرد وتداعياته المختلفة...

(6) راجع دراستنا : "السياسة العثمانية لاستيطان الموريسكيين بالأناضول" في كتابنا : **دراسات في التاريخ الموريسكي-الأندلسي**، ص 7-24، منشورات المؤسسة، زغوان 1993.

(7) كان الأستاذ د. عبد الرحيم عبد الرحمان عبد الرحيم أول من اهتم بتداعيات الوجود الموريسكي بمصر، وقد نشر لهذا الغرض بعض البحوث نذكر أهمها هنا : Al-Moriscos Settlement in Egypt through the Religious Court Documents of the Ottoman Age (استقرار الموريسكيين بمصر من خلال دفاتر المحاكم الشرعية في أواخر العهد العثماني) في : ***L'Expulsión Dels Moriscos consequencies en el Mondo Islamic, en El Mondo Cristia***، **(طرد الموريكسيين : النتائج على مستوى العالم الإسلامي والعالم المسيحي)**، ص 158-163، منشورات قسم الثقافة بكاتالانيا، برشلونة، 1994. كما نشر د. عبد الرحيم عددا آخر من الوثائق حول ذلك.

* * *

هل باستطاعتنا أن نضع اليوم جدولا تقريبيا لأعداد ونسب هؤلاء المطرودين من الأندلس والذين استقروا في المدن والموانئ المتوسطية الجنوبية منها والشمالية ؟

لنذكر بادئ الأمر بالإحصائية الدقيقة التي قدمها المؤرخ الفرنسي هنري لابيير (Henri Lapeyre) في دراسته المونغرافية : جغرافية إسبانيا الموريسكية (Géographie de l'Espagne morisque) والتي أكدت على أن المهجرين الموريسكيين من الأندلس بلغ 275.000 نسمة، وهو الرقم الذي اعتمده وقبله جل المؤرخين والدارسين لاحقا (9). وأنه على ضوء ذلك، هل بإمكاننا أن نقدم جدولا لنسب توزيع هذا العدد في الفضاءات الترابية المغاربية وغيرها من الفضاءات المتوسطية الأوربية والأناضولية والمشرقية ؟

أثبتت عديد البحوث والدراسات أن عدة آلاف فقط من هؤلاء الموريسكيين، استقروا بالموانئ والمدن الفرنسية والإيطالية والبلقانية، وفقا للجدول التقريبي الذي أمكننا تحديده على الشكل التالي :

- ثلاثة آلاف (3000) تحولوا بدعوة من الدوق الأكبر واستقروا بليفورنة بعد مساعي حثيثة لاقناعهم بذلك (10) ؛

- خمسمائة (500) تحولوا إلى سالونيك (11).

راجع أيضا دراسة د. صلاح أحمد هريدي علي : "الأندلسيون : حياتهم الاقتصادية والاجتماعية في مصر العثمانية 1517-1798 : دراسة وثائقية عن مدينتي الإسكندرية ورشيد " في أعمال المؤتمر العالمي العاشر للدراسات الموريسكية الأندلسية حول: **الموريسكيون والبحر الأبيض المتوسط والمخطوكات الألخميادية**، ص 63-91، منشورات المؤسسة، زغوان 2003.

(8) راجع بحثنا "مرور الموريسكيين بمرسيليا وليفورنة واستانبول من خلال وثائق إيطالية جديدة " في كتابنا : **دراسات... نفس المصدر**، ص 43-66.

(9) هناك من قدم رقم مليون نسمة للمطرودين وآخرون نصف مليون. ونظرا لعدم وجود دفاتر إحصائية دقيقة، تؤكد هذه الفرضية أو عكسها، فإن الرقم الذي تقدم به المؤرخ الفرنسي لابيير، يبقى الأكثر استعمالا إلى ما يخالف ذلك، خاصة وأنه اعتمد على ملفات الهجرة المتوفرة في الأرشيفات الإسبانية اليوم، ومن عديد المناطق الجغرافية الإسبانية.

(10) راجع كتابنا، **دراسات... نفس المصدر**، ص 54.

- ألف ومائة (1100) من الأراغونيين والإشبيليين، تحولوا إلى مركز الدولة العثمانية، إلا أن الأغلبية الساحقة من الموريسكيين التجأت ولا شك إلى الفضاء الترابي المغاربي وفقا للتوزيع التالي :

- ثمانون ألف (80.000) التجؤوا إلى إيالة تونس ؛

- خمسون ألف (50.000) التجؤوا إلى المغرب الأقصى ؛

- خمسة وعشرون ألف (25.000) التجؤوا إلى إيالة الجزائر، وهذا وفقا للمعلومات القديمة نسبيا، بحيث يكون مجموع من التجأ إلى البلدان المغاربية 80.000 + 50.000 + 25.000 : مائة وخمسة وخمسون ألف (155.000). وعلى ضوء ذلك إذا قبلنا مبدئيا، بالرقم الذي قدمه المؤرخ الفرنسي هنري لابيير وهو مائتان وخمسة وسبعون ألف (275.000)، فإن الفارق بين الرقمين هو: 275.000 - 155.000 = مائة وعشرون ألف (120.000). والتساؤل الذي يفرض نفسه الآن، أين التجأ هذا العدد من المطرودين الموريسكيين ؟

نذهب إلى الاعتقاد أن أعداد اللاجئين الموريسكيين إلى المغرب الأقصى والجزائر، هي أعلى بكثير مما هو معروف اليوم، وأن التوجه الاستقرائي لعملية توزيع المطرودين في الفضاء الجغرافي المغاربي، تحتم علينا إعادة النظر تماما، للأعداد الحقيقية للاجئين إلى الجزائر (12) وكذا إلى المغرب الأقصى، وهي حتما أعداد أعلى بكثير مما هو معروف اليوم، وأننا ننتظر مستقبلا المزيد من الدراسات والبحوث حول هاته الإشكالية التاريخية الهامة (13).

---

(11) راجع كتابنا : **الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلسيين**، ص 7-22.

(12) راجع بحث د. ناصر الدين سعيدوني : "Les morisques dans la province d'Alger (Dar es-Sultan) pendant les XVIe et XVIIe siècles" (الموريسكيون في إيالة الجزائر (دار السلطان) خلال القرنين 15 و16) في L'Expulsion... *op.cit.* pp. 140-147 ؛ راجع كتاب المؤلف الجديد التالي : د. ناصر الدين سعيدوني، **دراسات أندلسية، مظاهر التأثير الإيبري والوجود الأندلسي بالجزائر**، 422ص، منشورات دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2002.

(13) أثناء عقد المؤتمر العالمي الحادي عشر للدراسات العثمانية والذي تم بمؤسستنا في الفترة ما بين 30 سبتمبر و2 أكتوبر 2004، أثيرت مسألة عدد الموريسكيين الأندلسيين الملتجئين لإيالة تونس العثمانية. وقد أقر الأستاذ أندري ريمون (André Raymond) أن الرقم الذي قدمه سابقا حول عددهم بحدود خمسة

* * *

لا شك أن الهجرات الأندلسية إلى الفضاء المغاربي، كانت متواترة ومنتظمة قبل سقوط غرناطة، بحكم رحلة الحج إلى الأماكن المقدسة منذ العصور الإسلامية الأولى وتواصلت بشكل منتظم وكانت تتم أساسا عبر الفضاء المغاربي، ثم عبر أرض الكنانة والتي بها تنضم قافلة الأندلسيين والمغاربيين إلى قافلة الحجيج المصريين. وقد مكن ذلك الأندلسيين من استيعاب الخصوصيات المغاربية في جميع الميادين، بدءا من آليات الحكم المطبق، ثم المناخ الفكري والوضعية الاقتصادية والاجتماعية السائدة يومئذ. وقد طاب المقام لبعض الأندلسيين بالتراب المغاربي وكانوا يومئذ عنصر إثراء على جميع المستويات (14). أما بخصوص اللاجئين الموريسكيين في أوائل القرن السابع عشر إلى المغرب العربي وإيالة تونس بصفة خاصة، فإننا نؤكد بادئ الأمر على بعض الخصوصيات التي تميز بها هؤلاء الموريسكيون، دون غيرهم من أبناء المغرب والمشرق العربيين :

- تتفق جميع المصادر على أن الموريسكيين كانوا منفتحين على العالم الغربي، بإتقانهم عدة لهجات ولغات مثل : القشتالية والأراغونية واللاتينية (15)، وكانوا رجالا ونساء وأطفالا يتكلمون اللغة الإسبانية، بل الأغرب من ذلك، أن استعمالهم لهاته اللغة،

وثلاثين ألف فقط (35.000). وهو رقم غير دقيق تماما. وأنه على ضوء المناقشات التي دارت بيننا في مؤتمرنا هذا، فإن الأستاذ ريمون يقر بوجوب إعادة دراسة هذا الملف. ونذهب إلى الاعتقاد أن اللاجئين إلى المغرب الأقصى وجب أن يكون عددهم أعلى بكثير مما هو متداول ومعروف، بل هو يضاهي عدد اللاجئين إلى تونس، إن لم يكن أعلى من ذلك، لأسباب بينة ولا تحتاج إلى شرح. أما أعداد اللاجئين إلى الجزائر، فهو الآخر نسبيا أعلى، مما أقرته الدراسات السابقة من قبل الباحثين والمؤرخين الجزائريين وغيرهم من الباحثين الذين تطرقوا إلى هاته الإشكالية.

(14) د. رزوق، محمد، "تطور استقرار الجالية الأندلسية بالمغرب الأقصى" في : ***Religion, Identité et sources documentaires sur les morisques andalous,*** t. 2, pp. 139-154, Publications de l'ISD, Tunis, 1984.

عالج الباحث تداعيات الوجود الأندلسي منذ الفترة الوطاسية، ذاكرا عديد الأعلام الفكرية والسياسية التي لعبت دورا مهما على عدد من الأصعدة : الحربية والدفاعية والتي توجت بإعمار عديد المدن والموانئ بل وتم إنشاء شبه جمهورية موريسكية بالمغرب في سلا...

(15) R. Landa, "Les morisques comme les représentations de la civilisation andalouse au Maghreb" in Métiers... *op.cit.*, p. 202.

تواصل حتى بعد قرن كامل من طردهم من الأندلس وهذا بشهادة أحد الرحالة الفرنسيين الذي زار مدينة تستور الموريسكية بإيالة تونس في أوائل القرن الثامن عشر، ذاكرا : "لقد وجدت النساء والأطفال يتكلمون اللغة الإسبانية بشكل جيد" (16). بل أن الجالية الموريسكية بإيالة تونس تجرأت بعد سنتين فقط من وصولها لمدينة طبربة التونسية، أن تفتح مدرسة لتدريس الإسبانية، وهي ظاهرة عالية للدلالة على هذا الانفتاح اللغوي والفكري، ولا أخالني أجد في الفضاء العربي-المسلم المشرقي برمته، فئة اجتماعية عربية ومسلمة، لها مثل هذه القناعة الانفتاحية على الغرب لتدريس لغة أوربية (17)، وهذا خلافا للمواطنين المسيحيين في لبنان أو سوريا والذين مارسوا مثل هاته المهنة، انطلاقا من عدد من الثوابت الدينية التي كانت تفسر مثل هذا التوجه... وقد مكنت هذه الممارسة اللغوية الغربية الموريسكيين من معرفة مجهرية للدين المسيحي وللعقلية والسلوك وعادات الإسبانيين وتقاليدهم، وكذا اطلاع الموريسكيين الدقيق والجيد على القوانين الإسبانية والأوربية عموما (18)، وهو الأمر الذي لم تعرفه المجتمعات لا العربية ولا الإسلامية يومئذ ! وهذا درس مهم جدا قدمه هؤلاء الموريسكيون إلى العالم العربي والإسلامي على حد سواء منذ بداية العصر الحديث.

إن هذه الصفات الاستثنائية، أهلتهم أن يلعبوا دور المترجمين الرسميين لدى البلاطات المغاربية مثل بلاط مولاي زيدان 1607-1630 ملك المغرب الأقصى (19)، وقبل ذلك

---

(16) Brahimi, Denise "Quelques jugements sur les maures andalous dans les régences turques au XVIIe siècle" (بعض الأحكام عن الموريسكيين الأندلسيين في الإيالات التركية خلال القرن السابع عشر) في ***Etudes sur les morisques andalous en Tunisie*** (دراسات حول الموريسكيين الأندلسيين بالبلاد التونسية) منشورات المعهد الإسباني العربي للثقافة، مدريد، 1973، 384 ص + الكشافات.

(17) د. عبد الجليل التميمي، دراسات... **نفس المصدر**، ص 36.

(18) د. فاطمة الرشيدي، Fatima Rachidi, "La présence des Andalous dans l'armée saadienne" (حضور الأندلسيين الموريسكيين في الجيش السعدي) في : ***Mélanges Louis Cardaillac***, T2, pp. 575-590 منشورات المؤسسة، زغوان، 1995.

(19) Jaime Olivier Asin "Un morisco de Tunis, admirateur de la Lope ; étude du ms. S.2 de la collection Gayangas" في : M. Epalza et R. Petit Etudes... **op.cit**, p. 211.

لدى بلاط أحمد المنصور السعدي ثم لدى الباب العالي. وبرزت شخصيات علمية مثل الحجري، الذي استوعب آليات الجدال الديني مع الطرف المسيحي باقتدار وفعالية مطلقة، عندما أجرى مناظرات وجدالا رفيع المستوى في باريس وبوردو وهولندا مع عدة أقطاب مسيحية ويهودية، وسجل لنا ذلك الجدال والحوار الديني بين الديانات السماوية الثلاث، وأن مثل هذا الأمر ليس هينا أمام رجال الدين المسيحيين المتمرسين يومئذ، والذين شبوا وترعرعوا على مهاجمة الخصم وخصوصا منه الدين الإسلامي والدولة العثمانية، التي تعتبر أهم قوة بحرية وعسكرية إسلامية يومئذ. إن كفاءة الحجري الجدالية الاستثنائية أهلته أن يكون موضع اهتمام وتقدير الملك أحمد المنصور السعدي (1578-1603) له، عندما قام باحتضان وبرعاية هاته الشخصية. وقد خلف لنا الحجري كتابا في غاية الأهمية، حوصل فيه أساسيات وثوابت هذا الجدال والحوار الديني مع المسيحيين واليهود (21)، بل إننا نسجل نبوغ أحد الموريسكيين الذي كان مقيما بفرنسا عندما اتخذه الوزير الفرنسي ريشوليو (Richelieu) مستشارا له، "تقديرا وتثمينا لكفاءاته وخبرته" (22).

ولا شك أن مثل هؤلاء الرموز الأعلام الموريسكية ومدى انفتاحها اللغوي ومعرفتها الدقيقة بالطرف المقابل، قد فرض على المغاربيين سواء السلطة السياسية أو النخب أو العلماء التقليديين، وشعورهم بالنقص وبالتقصير البالغ في موقعة أنفسهم، موقعا متقدما من الدولة والمجتمع ! وأن تداعيات وجود العنصر الموريسكي بهذه الخصال، كان مهما جدا وفاعلا، بل وحاثا للجميع على اكتساب آليات الانفتاح اللغوي ومعرفة الطرف الأوربي،

---

(20) راجع دراسة الأستاذة C. Sarnelli والتي قمنا بتعريبها : "الحجري في فرنسا..." في : **تطبيق الموريسكيين الأندلسيين للشعائر الإسلامية 1492-1609**، ص 81-86، منشورات المؤسسة، زغوان 1991.

(21) **ناصر الدين على القوم الكافرين**، تحقيق وتقديم وترجمة : شورد فان كوننكزفلد وقاسم السامرائي وجيرارد فيغرز، 506 ص، النص العربي والترجمة الإنقليزية، منشورات المجلس الأعلى للأبحاث العلمية والوكالة الإسبانية للتعاون الدولي، 1997.

(22) Asmin Ricau : "L'expulsion des Morisques Espagnols en 1610 : ses conséquences dans le Midi français" (طرد الموريسكيين الإسبانيين سنة 1610، ونتائجه في جنوب فرنسا) في Pyrenées, n° 103-104.، ص 17.

وهي ظاهرة جديدة لم يألفها المغاربيون ولم يمارسوها إلا نادرا، وأن نتائجها، على المدى البعيد، كانت على أية حال، محدودة بفعل عدة عوامل متداخلة وشديدة التعقيد...

– وبالإضافة إلى هاته العقلية الانفتاحية والواعية بمجريات الأحداث في عالم المتوسط، حمل الموريسكيون معهم إلى المغرب العربي، آليات ومهنا جديدة، مدعومة ومعززة بخبرة فنية عالية جدا، غير معروفة في عالم المهن المغاربية التقليدية يومئذ. وإن الذي زاد من أهمية ذلك، هو توفيق البعض منهم، في إنقاذ جزء من أموالهم من النهب والاستيلاء عليها، سواء أكان ذلك يوم مغادرتهم القسرية الأندلس أو من قبل ربان السفن الأوربية، الذين نهبوهم وغرروا بهم، تاركين إياهم في بعض جزر البحر الأبيض المتوسط الخالية... وقد تمكن هؤلاء الموريسكيون الذين نجوا من الآفتين السابقتين، من توظيف مخزونهم الحضاري والفني في عديد المشاريع الزراعية والتجارية والصناعية كما سنشرح ذلك. ويرجع الفضل لهم في إحداث نقلة جديدة في عديد المستويات : الفلاحية والصناعية والمعمارية والحضارية، حيث مازالت بصماتهم قائمة حتى اليوم في اللباس والتجهيزات المنزلية وهندسة الشوارع والبناءات الدينية والزركشة والبستنة وإدخال فنيات معمارية، ثم تفننهم في غرس أنواع من الزهور وفي صناعة الأسلحة والسفن وكذا إبداعاتهم في الموسيقى، فيما يعرف بالموشحات الأندلسية، والتي تشهد لهم بالنبوغ والإبداع من خلال فنيات الإتقان، وفوق ذلك هذا الشعور الاستعلائي الذي ميز هاته المجموعة ذات النفس البرجوازي والارستقراطي، عن غيرهم من المواطنين المغاربيين قاطبة وخاصة التزاوج فيما بينهم فقط. فلنتوقف حول هاته التأثيرات التي أدخلها هؤلاء الموريسكيون في إيالة تونس العثمانية كنموذج على ذلك :

-الميدان الفلاحي :

حملت الأقلية الموريسكية معها إلى إيالة تونس تجربة وخبرة نوعية عالية في إحياء الأراضي الفلاحية، تمثلت بادئ الأمر في حسن استغلال المياه عن طريق بناء السدود وإيجاد وتعميم الخزانات المائية والقنوات التي كان يصل طولها إلى 30 كيلومتر، وآليات تصريف المياه لسقي الأراضي والتي بلغت، وفقا لبعض الدراسات إلى 2500 هكتار يومئذ (23) وأنهم أحيوا خط جلب المياه من زغوان إلى قرطاجنة بطول 75 كيلومترا

(23) Ham-Joachim Kress : "Eléments structuraux 'andalous' dans la genèse de la géographie culturelle de la Tunisie"، (عناصر بنيوية أندلسية في

والذي كان سائر العمل به إلى حدود سنة 1900 (24). إن هاته التقنيات الفلاحية العصرية والمطبقة، قد أدخلت مشاتل عديدة وجديدة لغراسة الزيتون وخصوصا منها بفضاء طبربة وحيث أدى الموريسكيون دورا مباشرا في تطويرها (25).، كما قاموا بزراعة قصب السكر الذي زاحم الإنتاج الأوربي، وسجلت تقدما ملحوظا نتيجة استعمال طواحين الهواء، وتم غراسة الأشجار المثمرة وتربية الماشية وتجديد الغابات وعلى الأخص منها غراسة الكروم والرمان والسفرجل والتوت الأندلسي ثم التين الشوكي وكذا إدخال أنواع جديدة على المشهد الفلاحي المغاربي (26). وفي هذا السياق، أطلق على أحد أنواع "البيثر" المستجلب بالقوتي نسبة إلى (Goth) وهي التسمية القديمة لإسبانيا. كما ظهرت بزغوان وبالفضاءات الفلاحية الأخرى، أنواع مستحدثة من الفواكه والخضروات مثل البطاطا والطماطم والباذنجان والزعفران والكراث (Poireau) ويطلق عليه اليوم بتونس براسيله والقذيبط (chouxfleur) وغيرها من أسماء الخضر المستوردة وغير المعروفة والتي كان مأتاها الأندلس أو أمريكا اللاتينية (27).

كما قاموا بالإشراف على بساتين الليمون والأرنج والحوامض وعلى البقول (28). وتؤكد الدراسات أن هؤلاء الموريسكيين لم يتركوا شبرا من الأرض بحوزتهم دون زراعته (29). أما تربية دودة القز وصناعة الحرير والسكر، فقد عرفت على أيدي سكان

مكونات الجغرافية الثقافية للبلاد التونسية) في : Etudes sur les morisques andalous, p. 142.

(24) المصدر نفسه، ص 143.

(25) راجع دراسة د. عبد الحكيم القفصي سلامة : "Conséquences de l'expulsion des morisques : la régénération de la culture des oliviers à Tebourba en 1726" (نتائج طرد الموريسكيين : تعميم غراسة الزياتين في طبربة سنة 1726) في : L'Expulsion... *op.cit.*, pp. 147-157.

(26) محمد المزي. "نور القبس بين طبربة والأندلس" في : **بحوث عن الأندلسيين في تونس**، ص 14، منشورات المعهد الوطني للتراث، تونس 1983.

(27) S.M. Zbiss : "Apports des morisques andalous en matière d'agriculture en Tunisie" (ما جلبه الموريسكيون الأندلسيون في الفلاحة بالبلاد التونسية) في Religions, ***op.cit.***, t1, pp. 201-211.

(28) د. أبو القاسم درارجة. "آثار الأندلسيين في الفنون الشعبية بإسبانيا المسيحية وبلاد المغرب العربي" في : **صورة الموريسكيين في الآداب والفنون**، ص 47، منشورات المؤسسة، زغوان 1999..

(29) **المصدر نفسه.**

البشرات الغرناطيين الماهرين والمهجرين، تطورا بارزا في هذا المجال. ولا شك أن مثل هذه الإحداثات الزراعية، قد أنتجت أنواعا جديدة من الخضر والفواكه، أثرت مباشرة على نوعية المأكولات المحلية، بإحداثها أنواع جديدة منها "أمك حورية" و"المرمز" و"العجة" التي جلبها الموريسكيون من كاتالانيا و"الشكشوكة النابلية" وغيرها من المآكل الموريسكية الأندلسية (30) والحلويات والتي اشتهرت بها بعض المدن الموريسكية التونسية حتى اليوم مثل : السنيورة والملبس والحاج عالية كاتالانيا والصمصا وغيرها من الحلويات الموريسكية الأصيلة، والتي ترجمت على عمق التأثيرات المختلفة التي أحدثها الموريسكيون في المجتمع التونسي، ويستحيل علينا حصرها في هذا البحث. إلا أننا نؤكد على أهميتها البالغة في النسيج البنيوي والحضاري والتي مازالت قائمة حتى اليوم. واستكمالا لهاته المهن الجديدة التي أدخلها الموريسكيون، لم يغب على هؤلاء جلب بعض أنواع من الطيور والتي تحمل أسماء إسبانية مثل ما يعرف حتى اليوم بالكناري (31)، وهو نوع من العصافير ذي الأجنحة الملونة ويقبل عليه التونسيون لجمال ترنيماته الصوتية وتناسقها، وهو ما يدخل البهجة والحبور في مناخ البيئة المنزلية الموريسكية.

وفي هذا الإطار فإن سمة الاخضرار وروائح الأشجار، قد عزز من رونق وجمال البيت الموريسكي الداخلي والتي كانت السمة البارزة فيه، بحيث لا يمكن أن نعثر على بيت، دون وجود أشجار مثمرة بدواخل صحنه، وكذا غراسة الأزهار ذات الروائح الطيبة، وتلك في رأينا أحد أجمل وأبرز مميزات الحضارة الأندلسية بإيالة تونس...

المجال الصناعي والتجاري :

لا يقل المجال الصناعي والتجاري أهمية وطرافة وإبداعا عن المجال الفلاحي وحيث عرف هو الآخر نقلة جديدة بفضل خبرة هؤلاء المهجرين، بإدخال فنيات صناعية وتنظيمية، وكانت تأثيراتها بالغة جدا على الحياة الاقتصادية والتجارية وعلى الأخص منها التجارة الخارجية، بدءا من تطوير صناعة الشاشية التي احتلت حيزا كبيرا من المعاملات التجارية المحلية والمغاربية والتي وصلت إلى مصر. وقد تفنن الصناع الموريسكيون في حسن اختيار ألوانها وصوفها. وتذهب بعض الدراسات إلى أن هاته المهنة، قد تعممت في

---

(30) Zbiss, M.S. ***Apports... op.cit.***, pp. 201-211

(31) ***Ibid.***, p. 207

إيالة تونس، ووصل إنتاجها من خمسمائة ألف إلى مليون قطعة سنويا (32). وقد أثر ذلك القطاع في صناعة النسيج وخصوصا منها المعتمدة على الحرير وهو ما أطلق عليه ببروكار (Brocart) ثم إبداعات قطع السروج الجلدية الثمينة وكذا الصابون ذي الروائح الطيبة، وكذا صناعة العطور والتي عكست معرفة دقيقة وعميقة بمختلف الأزهار، والتي منحتهم أحقية استخراج أنواع مبتكرة من الروائح أطلق عليها العطور الأندلسية (33). ناهيكم أن هذا الشعور العالي القيمة بالأزهار، دفع إحدى سيدات القوم العثمانيات، وهي عزيزة عثمانة، على تحبيس مردودية ملكية لها، لشراء وتأمين وضع باقة أزهار يوميا على قبرها بعد وفاتها ! (34) إنه شعور حضاري راق جدا، يندر أن نجد مثيلا له في الفضاء السكاني العربي ...

كما تفنن الموريسكيون في صناعة الزرابي، وتم إدخال أبجديات الطباعة المستجلبة من الخارج، وهو أمر في غاية الدلالة على قدرات هؤلاء الموريسكيين الفنية ومعرفتهم الدقيقة للمهن الهامة، ولا يغيب عنا هنا تنوع هاته الصناعات لإبداعات الموريسكيين في صناعة الخزف والتي عرفت شهرة واسعة جدا إلى يوم الناس هذا (35). وتؤكد لنا الوثائق التي عثرنا عليها في أرشيفات فلورنسا، أن عددا من الموريسكيين الذين احترفوا صناعة الخزف، كانوا على علاقة مع خزفيين مهنيين فرنسيين من مرسيليا وأن بعضهم أقام مصنعا بمنطقةJurad de Bayonne ومنطقة Biarritz وBayonne وأن تلك المصانع مازالت قائمة حتى سنة 1806 و1809 (36). وحتى صناعة مختلف الأسلحة بجميع أنواعها وكذا صناعة البارود وملح البارود (37) وبناء السفن وتجهيزاتها، فقد غدت هي الأخرى وليدة إبداعاتهم الفنية. ثم ألم يكلف باي تونس يوسف داي، أحد

---

(32) Kress, *op. cit.*, p. 146.

(33) **المصدر نفسه**، ص 147.

(34) د. أحمد قاسم، "أحباس عزيزة عثمانة" في **المجلة التاريخية المغاربية**، عدد 91-92، ص 335، زغوان 2000.

(35) J. D Latham, "Mustafa de Cardenas et l'apport des morisques à la société tunisienne du XVIIe siècle". (مصطفى كردناس وتأثيرات الموريسكيين على المجتمع التونسي خلال القرن 17" في Etudes sur les morisques, *op. cit.*, pp. 157-177

(36) راجع كتابنا : **دراسات... نفس المرجع**، ص 55-56.

(37) د. أبو القاسم درارجة "آثار الأندلسيين... **نفس المصدر**، ص 55-56.

المهندسين الموريسكيين بتوسيع ميناء La Bocco de Quella Fiumara لاستقبال البواخر ذات الحجم الكبير (38) وأنهم لهذا الغرض قد حفروا أعماق البحر نحو 24 شبرا (39) ولا شك أن ذلك يتطلب استيعاب أسس وفنيات هذا العلم بدقة متناهية جدا. ولا يغيب عنا في هذا المجال دورهم الفاعل في الحركة البحرية ضد الإسبانيين وضد الأساطيل الأوربية ودعمهم للأساطيل العثمانية بالخبرة الفنية البحرية وتوفير القيادات العسكرية الكفأة يومئذ، هذا فضلا عن تقديم شبكة من المعلومات الصحيحة عن السواحل والموانئ الإسبانية أساسا.

- التأثيرات الحضارية والمعمارية المختلفة :

ذكرنا أعلاه بخصوصيات دواخل البيت الموريسكي المتميز بهندسته المعمارية الداخلية والخارجية والتي تترجم عن الخصوصيات الأندلسية والتي لا جدال في أنهم كانوا يحرصون على توريثها لأبنائهم وبناتهم. وبادئ الأمر، فقد وصل الموريسكيون مرتدين لباسهم الإسباني (40)، وذلك مؤشر واضح على تشربهم وتعلقهم بتقاليدهم الأندلسية، بل وتمسكهم بها في بيئة تنكر عليهم هذا الأمر، والذي أثار استغراب الجميع، مغاربة وأوربيين، هو بياض بشرتهم وجمال خلقهم، بحيث يستحيل على المغربي أن يجد بعض القواسم الفيزيولوجية مع هؤلاء الموريسكيين، وهو ما أثار ضدهم البدو الذين اتهموهم بأنهم مازالوا مسيحيين في الجوهر والظاهر، وقد جلب لهم ذلك عديد المتاعب من بعض السلط السياسية المغاربية (41) ومن النخب الدينية التقليدية والمقفلة فكريا وحضاريا على نفسها، والتي شككت في صدق إسلامهم وتأرجحهم بين المعتقدات الإسلامية والمسيحية...

---

(38) د. التميمي، دراسات ... **نفس المصدر**، ص 55.

(39) الشبر هو مقياس روماني قديم بطول راحة اليد.

(40) François Martinez : "Les morisques expulsés : quelques itinéraires de retour en Espagne" (الموريسكيون المهجرون : بعض مسارات رجوعهم إلى إسبانيا" ص. 143 في Morisques, Méditerranée... *op. cit.*, p. 143، مازلنا ننتظر مثل هاته الدراسات النوعية عن اللباس الموريسكي في البيئة المغاربية وتأثيراتها المختلفة على ألبسة المغاربيين، وهو مجال واعد لبحوث مستقبلية حول ذلك...

(41) لقد ألحق الملك أحمد المنصور السعدي ضررا كبيرا ببعض القيادات الموريسكية وتم تصفيتهم تماما والاستيلاء على أملاكهم، راجع :

Rachidi, F., La présence... *op.cit.*, pp 11-14.

وكذلك كانت النساء الموريسكيات يتزين بمجوهرات وحلي وألبسة حريرية متميزة جدا، كما أنهن يلبسن أحذية مرنة جدا، من صنع جلد الماعز الناعم وأطلق عليه "شبريلا". وفي هذا الإطار، فإن المرأة الموريسكية والطفل الموريسكي، يعدان العنصرين المغيبين في الدراسات الموريسكية-الأندلسية (42) سواء أكان ذلك بإسبانيا أو المغرب العربي أو الدولي.

أما تأثيرهم في الطرب فقد كان مباشرا حيث أدخلوا أنماطا موسيقية تعتمد على "الأداء الآلي القائم على الوتريات والصدميات وبصفة خاصة على الرباب والعود والطار (43) وقد منحوا للموشحات الأندلسية نفسا جميلا وهادئا وعميقا ليس فقط في إيالة تونس، بل على مستوى البلاد العربية وكذا بإسبانيا، حيث تم الانتباه منذ عدة سنوات فقط، إلى تقويم الموسيقى العربية-الأندلسية وكذا السفرادية Sefarade وإحلالهما موقعا جديدا في هاته الجدلية الحضارية (44).

أما مجال تأثيرات الموريسكيين المعمارية، فقد كان هو الآخر مميزا حيث كانت الشوارع مستقيمة وتنتهي دوما إلى ساحة مع تقاطع الأزقة على زوايا، وأنهم الذين قاموا بتمهيد وتبليط الشوارع واستعمال نوع جديد من العربات، وهو ما أطلق عليه بالكراريط وكذا استعمالهم المكثف "للقرمود" (45)، وهي مادة بناء مميزة للتقاليد المعمارية الأندلسية واستعمالها في عدة مناطق بإيالة تونس كتستور السلوقية وهو نظام تسقيف ذو انحدار

---

(42) لقد نظمنا أول مؤتمر حول : **العائلة الموريسكية : النساء والأطفال**، وهو أعمال المؤتمر العالمي السابع للدراسات الموريسكية، 438 ص، منشورات المؤسسة، زغوان 1997.

(43) راجع أيضا : Christian Roché, La musique arabo-andalouse (الموسيقى العربية-الأندلسية)، 155 ص، منشورات Cité de la Musique/Actes Sud، باريس، 1995، راجع أيضا د. عباس الجراري : "التأثير الموريسكي في الطرب المغربي"، ص 206، في **الموريسكيون في المغرب**، 278 ص، منشورات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 2000.

(44) I. Fernandez, *op.cit.*, p. 99.

(45) د. أحمد السعداوي : "La tuile creuse : matériau caractéristique de la tradition architecturale morisque en Tunisie :diffusion, fabrication et utilisation aux XVIIe et XVIIIe siècles" in, Métiers..., *op.cit.*, pp. 293-302. القرمود، مادة بناءة مميزة للتقاليد المعمارية الأندلسية بتونس : انتشارها وصناعتها واستعمالاتها خلال القرنين السابع والثامن عشر.

خفيف لا يتجاوز الثلاثين درجة، ويجعل السقف محميا من الرياح والانزلاقات"، وقد تبنت عدة أشكال كنصف اسطوانة بطول ذراع، وتوضع في واجهة البيوتات لتجميل المنظر الخارجي، وهو ما يترجم على حرصهم على شخصيتهم الفنية والثقافية المتميزة جدا، والتي مارسوها في بيئتهم بالأندلس بادئ الأمر، وسعوا بكل تفان، على استمرارها في بيتهم الجديد بإيالة تونس أو بالفضاءات المغاربية الأخرى.

* * *

لقد سعينا في هذا البحث إلى مقاربة تداعيات الوجود الموريسكي الأندلسي بإيالة تونس، وتوقفنا في بعض محطاته البارزة، ودون أن ننساق وراء النظرية القائلة بأنه يرجع الفضل لهم وحدهم في إحداث نقلة اجتماعية واقتصادية وفكرية، فهذا أمر لا سبيل إلى إقراره وقبوله بشكل تلقائي، دون تحديد إطاره خاصة إذا أخذنا بالاعتبار ما تم إنجازه خلال العهد الحفصي، مع العلم وأن بنى الدولة الحفصية كانت سليمة وثابتة ونظامها السياسي كان هو الآخر متماسكا ومنفتحا على العالم المتوسطي، التجاري والاقتصادي منه بصورة خاصة.

إلا أننا من جهة أخرى، نقر بأن تداعيات الديناميكية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والمعرفة للوجود الموريسكي بإيالة تونس وكذا بالفضاءات المغاربية، كانت إيجابية وفاعلة ومجددا لعديد الاختصاصات والمهن، وقد منحوا لها الشيء الكثير من فنيات وإبداعات. ثم ألم يكونوا من المتمسكين والداعين لإقامة الضمان والرعاية الاجتماعية من خلال عديد المبادرات التي خططت للاهتمام بالفقراء واليتامى والعجز، وذلك بتخصيص إيرادات أملاك حبست لهذا الغرض ؟ (46)

ولا شك أن هؤلاء الموريسكيين كانوا من أبرز رواد الحداثة والانفتاح والحوار بالمغرب العربي، بمساهمتهم في تسريع وتيرة التقدم والتطور، في فترة دقيقة اتسمت

---

(46) Kress, Eléments... *op.cit.*, p. 147، راجع كذلك دراستنا "وثيقتان حول فئة المهمشين من النساء والأطفال الفقراء والمصابين الموريسكيين بزغوان في منتصف القرن 19" في كتابنا **دراسات جديدة في التاريخ الموريسكي**، ص 83-94، منشورات المؤسسة، 2000.

بالإنغلاق الفكري والسياسي وعدم مواكبة المستجدات خارج الفضاء المغاربي، فكان الموريسكيون إذن حلقة الوصل الحضارية المثالية والأساسية للأندلس ومآثرها وإنجازاتها في جميع الميادين، وتلك هي الرسالة المعبرة، وهو درس في غاية الأهمية منحه الموريسكيون الأندلسيون إلى العالم العربي الإسلامي منذئذ.

لغة أواخر الموريسكيين وإقامتهم بالمغارب
من خلال نصوص وفرمانات عثمانية جديدة

كانت تحرياتنا في الأرشيفات التركية-العثمانية بإستانبول إيجابية جدا، وهو الأمر الذي سمح لنا بالعثور على عدد من الوثائق الهامة التي وظفناها في كتبنا ([1]). كما قمت أيضا ببعض التحريات في أرشيفات فرنسا والبندقية، وعثرنا على عدد جديد من الوثائق التي وظفت، هي الأخرى، في بحوثنا. واليوم نعيد إثارة هذا الملف حول موقف الدولة العثمانية تجاه الموريسكيين على ضوء ثلاثة فرمانات عثمانية وجهت إلى بيلرباي الجزائر وإلى القيادات السياسية العثمانية. كما أننا سوف نتوقف عند نص مخطوط حرر بخط مغربي غريب في شكله، كان قد عثر عليه في أحد ملفات محاكم التفتيش ([2]).

لنؤكد بادئ الأمر أن البحث التاريخي حول هذا الملف انطلاقا من وثائق أرشيفية أو مخطوطة تركية أو عربية، مازال محتشما جدا والباحثون في العالمين العربي والإسلامي بصفة خاصة، مازال عددهم قليلا جدا، وهذا خلافا للباحثين والمؤرخين الدوليين الذين أبدوا اهتماما بتركيزهم على الوثائق الإسبانية وكذا النصوص الأدبية الألخميادية، وهي المجالات التي سجلت خلال العقدين الأخيرين، تطورا نوعيا في العالم، وبصفة خاصة في جامعة بورتو ريكو تحت إشراف الأستاذة والعالمة لوث لوباث بارلت.

ولا شك أن الملف الموريسكي أثار وسوف يبقى يثير دوما، اهتماما متزايدا من قبل الباحثين والمؤرخين لدراسة الجوانب السرية والمؤلمة والمأساوية فيه، والتي مازالت لم تكتشف تماما حتى اليوم، وهذا على الرغم من عديد الأعمال التي أنجزت باسبانيا وفرنسا وبورتو ريكو. إن التاريخ الموريسكي يحتاج حقا إلى دراسته، على ضوء الاكتشافات

([1]) **الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلسيين**، 180 ص، منشورات المؤسسة، زغوان، 1989.
- **دراسات في التاريخ الموريسكي الأندلسي**، 168 ص، منشورات المؤسسة، زغوان، 1993.
- **دراسات جديدة في التاريخ الموريسكي**، 230 ص، منشورات المؤسسة، زغوان 2000.

([2]) هذا النص قد أمدنا به زميلنا المؤرخ رافائيل كاراسكو.

الجديدة في الأرشيفات الإسبانية والفرنسية والإيطالية وبصفة خاصة العربية والتركية-العثمانية.

وعلى ضوء ذلك سنتوقف حول موقف السلطات السياسية والدينية العثمانية إزاء المأساة الموريسكة، وهو الموضوع الذي مازال يثير لدى الباحثين العرب والمسلمين، مواقف متقاطعة، إذ كلا الفريقين، يؤاخذان بشدة الدولة العثمانية لإهمالها تماما الموريسكيين لمصيرهم المحزن، بعدم تقديم دعمها في الوقت المناسب، من توفير الأسلحة أو العمل على إنقاذهم من كابوس عدوهم اللدود، الذي حكم عليهم بموت حضاري بطيء، ومنعهم من الاحتماء بمرجعيتهم والاعتزاز بلغتهم ودينهم وتراثهم الحضاري. وقد أثرت المأساة الموريسكية ([3]) على المخيال للعالم الأدبي والفني ليس فقط العربي-الإسلامي، ولكن أيضا الأوربي، وهو ما يفسر وجود عديد الرسوم لفنانين أوربيين في المتاحف الإسبانية والأوربية. كما سجلنا أيضا مئات التمثيليات المسرحية خلال القرنين التاسع عشر والنصف الثاني من القرن العشرين والتي تناولت مأساة ومصيرية الموريسكيين، وإن الاهتمام بتاريخ الموريسكيين وبأدبهم، قد وجد صداه اليوم من خلال عديد الباحثين الشبان، على اختلاف جنسياتهم وهم الذين أبدوا اهتماما وشغفا لإعداد رسائلهم الجامعية حول ذلك ([4]).

إن ملف العلاقات العثمانية-الموريسكية، منذ سقوط غرناطة وحتى الطرد النهائي، قد عولج جانب منه من خلال أرصدة الوثائق العثمانية والبندقية والفرنسية والعربية والتي شرحت كيف أن السلط العثمانية العليا كانت على علم بالمأساة الموريسكية بواسطة استلامهم لعديد اللوائح التي وجهها الموريسكيون أنفسهم إلى أعلى السلط، وكذا من خلال

([3]) راجع كتابنا : **البيليوغرافيا العامة للدراسات الموريسكية الأندلسية**، منشورات المؤسسة، 1995. وحيث كشفنا كل الأعمال والبحوث المنشورة حول هذه المسألة، وبالإضافة إلى ذلك التفضل بمراجعة أعمال المؤتمرات الثلاث عشر للدراسات الموريسكية والتي نظمناها منذ 1983 إلى اليوم وتوجت بنشر أكثر من 600 دراسة أكاديمية، حررت من قبل أهم الباحثين الدوليين على اختلاف تياراتهم وأوطانهم، باللغتين الاسبانية والفرنسية، وهي الدراسات التي ساهمت في بلورة علم الموريسكولوجي الذي أصبح يتمتع اليوم، لدى الباحثين الشبان، ولمعرفة المزيد من المعلومات حول إنجازات المؤسسة في هذا المجال، التفضل بمراجعة موقعنا www.temimi.refer.org القسم الموريسكي.

([4]) نستلم من خلال البريد الإلكتروني، رسائل العديد من هؤلاء الباحثين الذين يستشرفون رأينا حول بحوثهم المستقبلية في هذا العلم لإعداد رسائلهم الجامعية.

عديد الوفود الموريسكية التي زارت عاصمة الدولة العثمانية، للفت الانتباه لمواجهاتهم المستمرة والدامية مع عدوهم الذي سعى إلى اجتثاثهم من أندلسيتهم ونجح في القضاء عليهم بصورة تدريجية بإعلان حرب ضروس عليهم، انتهت في آخر المطاف باتخاذ قرار الطرد النهائي من الأندلس سنة 1609.

ولكن هناك عامل جوهري يشرح هذه الاستفاقة الضميرية للقيادات العثمانية العليا تجاه المأساة الموريسكية، وهي المتعلقة بتلك المعلومات الأولية التي حصل عليها صاحب الخرائط الهامة منذ أواخر القرن الخامس عشر البحار اللامع بيري رايس وعمه كمال رياس، وقد قام الاثنان بارتياد الساحل الغربي للبحر الأبيض المتوسط وبصفة خاصة الساحل الأندلسي، حيث تمكن البحار بيري رايس من معرفة جيدة للساحل الأندلسي وضمنه في كتابه كتاب البحرية : ***Kitabi Bahriye*** والذي هو معلمة فريدا من نوعها وهي بالإضافة إلى المعلومات المتنوعة التي ضمها، فهو كتاب يحثنا على التفكير والتأمل" ([5]). ولا شك أن هاته المعطيات للجغرافيا البحرية لغرب البحر الأبيض المتوسط، قد ساعدت بيلرباي الجزائر خير الدين ([6])، أن يؤدي دور المدافع والمنقذ لآلاف الموريسكيين. وأن هذا الدور قد واصله بعده بيلرباي الجزائر كليج علي باشا الذي يعد في الحقيقة، أكبر المحامين والمدافعين الموريسكيين، لدى السلطات العثمانية العليا، وهي الأسباب التي ذكرناها بالتفصيل في بحوثنا السابقة ([7]).

لقد قام كليج علي باشا ودوريا، بإبلاغ أعلى السلط السياسية والدينية، كل المعلومات عن هذا الملف، كما يؤكده الفرمان الصادر عن السلطان بتاريخ 26 جوان 1571 وهو موجه إلى برتو باشا وجاء فيه : "لقد وصلتنا رسالة كليج علي حول أخبار مسلمي الأندلس وما هم عليه من مقابلة وجدال ضد الكفار، وكيف أنهم يبذلون النفس والنفيس

([5]) لا شك أن بيري رايس، يعد أول مهندس عثماني للخرائط وهو الذي أمدنا بالمعلومات الأولى عن السواحل الأندلسية، راجع : Robert Mantran, « La description des côtes de l'Andalousie dans le Kitabi Bahriye» in, *Actes del XII congreso de la UEAI, (Malaga 1984)*, pp. 497-507, Madrid 1986.

نفس المؤرخ البحث الثاني : « La description des côtes de l'Algérie dans le Kitab i. Bahriye de Peri Reis » in, *ROMM*, n° 15-16, pp. 159-168, Aix 1973.

([6]) لقد دعي فيما بعد لتولي منصب أميرال البحرية للدولة.

([7]) راجع كتبنا التي ذكرناها في الهامش الأول من هاته الدراسة.

للقتال. ورغم ذلك، فليس لديهم الطاقة الكافية لمحاربة هذا العدو وأصبحوا في حالة قهر واضحة، ومن قلة الذخيرة الحربية للاستمرار في حربهم ضد اسبانيا..." ([8]).

وعلى ضوء هذه الرسالة يتأكد لدينا أن الباب العالي قد استلم وبانتظام كل المعلومات الصحيحة والموثقة حول المأساة الموريسكية، كما يشرحه فرمان آخر وجه إلى بيلرباي الجزائر بتاريخ 9 مارس 1572 : "لقد اطلعت بإحاطة وشمول على كل ما تم عرضه على سبيل التفصيل وكانت نيتي السابقة إرسال أسطولي الهمايوني إلى تلك الجهات لمعاونة المسلمين من كل وجه ومؤازرتهم" ([9]). ألا يعبر مثل هذا الموقف على اهتمام بالغ وحرص شديد للسلط السياسية العثمانية العليا، بملف الموريسكيين الأندلسيين وعلى عزمهم تقديم الدعم لهم ؟ ولنا أن نتساءل ما إذا كانت الدولة العثمانية يومئذ قادرة بالقيام بحملة عسكرية في التراب الأندلسي لإنقاذ الموريسكيين الأندلسيين من جلاديهم مفتشي دواوين التحقيق ؟

للإجابة عن هذا التساؤل المنطقي والواقعي، وجب علينا إدراك رهانات المواجهة بين الإمبراطوريتين المتصارعتين الاسبانية والعثمانية، وهي الرهانات التي لا يمكن إطلاقا أن تمنح أحقية أخذ مبادرة نقل العثمانيين مواجهتهم العسكرية على أرض الأندلس نفسها، إذ كل الدراسات العلمية والدلائل والمؤشرات والحقائق التي بين أيدينا، لا تسمح أبدا بتبني مثل هذه المجازفة الخطيرة والتي ستؤدي حتما إلى إلحاق هزيمة منكرة بالأسطول العثماني وجيشه، لو تسنى نقل المعركة والمواجهة على أرض الأندلس. وعلى ضوء ذلك، تبنى الباب العالي تكثيف مساعيه السياسية بإرسال وفود دبلوماسية وسفراء على أعلى مستوى، حاملين رسائل خاصة إلى الملكة الولية على العرش كاترين دي مديسيس (Catherine de Médicis) ثم إلى دوج البندقية، لطلب مساعدتهم وتقديم العون لهؤلاء الموريسكيين، من خلال تسهيل مهمة اجتياز أراضي ممالكهم والالتحاق بأراضي الدولة العثمانية ([10]).

([8]) **أرشيف رئاسة الوزراء باستانبول**، مهمة دفتري رقم 10، فرمان بتاريخ 27 جوان 1571، راجع الوثيقة رقم 2 أسفله.

([9]) **المصدر نفسه**، مهمة دفتري رقم 35، فرمان بتاريخ 16 أفريل 1570، راجع الوثيقة رقم 1، المنشورة أسفله.

([10]) **المصدر نفسه**، مهمة دفتري رقم 23، فرمان بتاريخ 23 نوفمبر 1573، راجع الوثيقة رقم 3، المنشورة أسفله، ووفقا لمعلومة استمدت من محضر لدواوين التفتيش، فإن السلطان العثماني قد قرر إعداد

ومن جهة أخرى، وجهت تعليمات إلى بيلرباي الجزائر كليج علي باشا، الذي سيشغل منصب أميرال الدولة بعد ذلك بقليل، بتقديم العون العسكري إلى الموريسكيين وتوفير الأسلحة لهم وشد أزرهم في المقاومة، وكذا بتسهيل استقرارهم في الفضاء الترابي لإيالتي الجزائر وتونس ! وقد شدد الباب العالي على هذا الملف بالذات بحسن استقبال الموريسكيين ووقف المظالم التي لحقت بهم من قبل السلطات الإدارية المحلية وعلى الخصوص من قبل البدو، الذين ارتكبوا إزاءهم عديد المظالم. إن الفرمان الذي وجه إلى بيلرباي الجزائر سنة 1573-1574، يقدم صورة حزينة وبائسة حول هذا الوضع الذي يثير الشفقة ومما جاء فيه : " **قام حاليا الفقراء الأندلسيون والثغريون والمدجنون، بإرسال مبعوث عنهم إلى الباب العالي، وأحاطونا علما بأنهم بعدما تركوا أموالهم وأرزاقهم بإسبانيا، نزلوا بالجزائر والمناطق التابعة لها، وأصبحوا فقراء لا يملكون شيئا. وقد قام قياد وحكام تلك المناطق، بفرض الضرائب عليهم كغيرهم من رعايا البلاد، وهو الأمر الذي جعلهم يشتكون من ضيق وعسر المعيشة، بل وحتى الأجور التي كانوا يتحصّلون عليها، كانت تؤخذ من أيديهم، وحتى البحارة فقد أخذوا منهم أموالهم وأمتعتهم. فما هو سبب التعدي عليهم وأخذ أموالهم وأجورهم التي تحصل هؤلاء الفقراء عليها ؟ ونظرا للأمر السلطاني، عليك بالحيطة والانقياد وأن لا تؤخذ أموال وأمتعة هؤلاء الفقراء ولا أجورهم."و"لا تسمح لأي شخص بالتدخل أو التعرض لأحوالهم، ويعفى أمثال أولئك الفقراء من جميع التكاليف حتى يصلوا إلى حال الاقتدار، وتوفر لكل واحد منهم أسباب القوة، وتتم رعايتهم لحين تمتعهم بمقدار من القوة والاقتدار. وعندما تصبح أحوالهم جيدة، تؤخذ منهم الحقوق والرسوم المقررة في تلك الجهات، كسائر الرعايا في تأدية التكاليف وغيرها، ولا يعتدى على هؤلاء الفقراء بأي إجراء مغاير للشرع والقانون، وفقا لأمرنا الهمايوني، وليبق هذا الأمر الشريف بين يديك.**" ([11])

مكان واسع باستانبول، كما يفعل الإسبان يومئذ بطليطلة وغيرها من الأماكن، التي خصصتها محاكم التفتيش للاحتفال بحرق الموريسكيين، وقد هدد السلطان بحرق كل المسيحيين السجناء لديه، إذا لم يقم ملك اسبانيا بوقف المظالم ضد الموريسكيين وتسليمهم إليه...؟

إن هذه المعلومة غير الموثقة، والتي جاءت في رسالة لوي كارديناك، **نفس المصدر**، ص 105، تعكس حالة الغليان الشديد للسلطات العثمانية تجاه الملف الموريسكي بالأندلس.

([11]) المهمة دفتري، **نفس المصدر**.

يمدنا هذا الفرمان الموجه إلى بيلرباي الجزائر بعديد التعليمات التي استوجب أخذها بالاعتبار:

- عدم مصادرة أملاك هؤلاء الفقراء ولا الاستيلاء على رواتبهم...

- عدم السماح لأي أحد بالتدخل في شؤونهم الخاصة.

- وجوب إعفاء هؤلاء الفقراء خلال ثلاث سنوات متتالية، من تسديد الأداءات.

- أنه استوجب منحهم الأمن والأمان، لتستقيم حالتهم المادية ويومئذ يطالبون بتسديد الأداءات والضرائب، شأنهم في ذلك شأن بقية المواطنين.

- عدم الضرر بهؤلاء الموريسكيين البؤساء وتطبيق الشريعة عليهم وليس أمرا مخالفا لذلك، بل استوجب طاعة الأوامر الشريفة الصادرة عن الدولة العثمانية.

- وأخيرا فإن هذا الأمر السلطاني يبقى بيد البيلرباي والذي يعد المسؤول الأول على تنفيذه..." ([12]).

ماذا نستنتج من هذا الفرمان الذي اكتسى أهمية معلوماتية أساسية حول الموقف العثماني تجاه ملف الموريسكيين :

- أن هناك استفاقة ضميرية للسلطات العثمانية السياسية والدينية العليا، وهذا ما يدل على استعمال ألفاظ ومصطلحات معينة مثل : "أنهم فقراء وعاجزون تماما، ولا يملكون شيئا بعد طردهم من الأندلس، وحتى رواتبهم فقد صودرت وافتك منهم البحارة كل أملاكهم وثرواتهم، وقد استوجب عدم القيام بالاستيلاء على ممتلكاتهم ولا على رواتبهم ([13]).

إن هذه الاستفاقة والاهتمام الشديد بهذا الملف، يعكس عمق التعاطف مع هؤلاء المظلومين الذين لحقهم الظلم والحيف من الجميع، وهو الأمر الذي دفع السلط العثمانية أن تطلب من البيلربايات عدم مطالبة الموريسكيين، بتسديد الأداءات خلال ثلاث سنوات، في

([12]) المهمة دفتري، **نفس المصدر.**

([13]) المهمة دفتري، **نفس المصدر.**

انتظار تحسين أوضاعهم المادية، وقد ألح الباب العالي كثيرا على توفير الأمن والأمان للموريسكيين وعدم إلحاق الضرر بهم... ([14]).

ونفس هذا الموقف، اتخذه الباب العالي تجاه استقرار الموريسكيين بإيالة تونس، وحيث وجهت عديد الفرمانات الى بيلرباي تونس لهذا الغرض، وهي الفرمانات التي كنا قد قمنا بنشرها سابقا ([15])، وهو ما يترجم على مدى الأهمية البالغة التي أظهرتها الدولة العثمانية خلال القرن السادس عشر وحتى الطرد النهائي لهذا الملف. ومع هذا فإن المساعي السياسية والعسكرية للدولة العثمانية لتعزيز عثمنة الإيالات الثلاث الجزائر وتونس وطرابلس خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر، تدخل في هذه الرؤية الإستراتيجية لمجابهة المشاريع الهيمنية للإمبراطورية الاسبانية لاحتواء كل الفضاء المغاربي. وعلى ضوء ذلك اتخذت الدولة العثمانية قرارا بالغ الأهمية واستعدت له خلال سنتين كاملتين، بإعداد الحملة البحرية على تونس في ربيع سنة 1574، وهي الحملة التي تألفت من 250 سفينة ضمت 55.000 جندي ([16])، وهو ما عد أقوى دليل على عزمها لمساعدة الموريسكيين أولا وكذا العمل على عدم احتواء الشعب المغاربي والذي ما فتئ يتحمل ويلات التدخل الإسباني لفضائه الترابي وموانئه وتركيز حاميات اسبانية وبناء قلاع وحصون أيضا في هذه الفترة الزمنية.

لقد استوجب على المؤرخين المهتمين بهذا الملف، أن يكونوا أكثر إنصافا وحيادا في دراسة هذا الملف، آخذين بالاعتبار الوضعية الجيوسياسية للبحر الأبيض المتوسط الغربي والرهانات القائمة يومئذ وخصوصا استحالة أن تتدخل الدولة العثمانية عسكريا على أرض إسبانيا، لتقديم الدعم لإنقاذ الموريسكيين، مما أصابهم من اعتداء صارخ على مرجعياتهم الدينية والحضارية...

* * *

لنتناول الآن بعض الخصوصيات اللغوية لنص مخطوط أمدني به، منذ عدة سنوات، المؤرخ الفرنسي المهتم بالدراسات الموريسكية د. رافائيل كاراسكو، والذي من خلال

([14]) المهمة دفتري، **نفس المصدر.**

([15]) دراسات... نفس المصدر.

([16]) راجع بحثنا : "عثمنة إيالات الجزائر وتونس وطرابلس على ضوء المهمة دفتري (1559-1595)" **في المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية،** عدد 34، ص 19-189، تونس 2006.

أبحاثه في مختلف المراكز الأرشيفية الإسبانية، بحثا عن الملفات التي كانت موضع متابعة من محاكم دواوين التفتيش في الفترة 1580-1590، فقد عثر على عدد وافر من الوثائق المحررة بالأحرف العربية والتي أمدني بنسخ من البعض منها.

سوف نتوقف عند أحد النصوص التي عثر عليها في أحد ملفات محاكم التفتيش. وهذا النص لا يكشف هوية ولا اسم محرره ولا التهم التي وجهت إليه. ومما لا شك فيه أن تلك الاتهامات قد وجهت له نتيجة العثور على وثيقة محررة باللغة العربية، وهو ما يكفي في نظر محاكم التفتيش لتسليط أقسى العقوبات لمحاكمته نتيجة العثور لديه على مثل هذه الوثيقة المحررة باللغة العربية. والمؤرخ لوي كاردياك الذي قام بدراسة منهجية ونشر كتابه المرجعي الهام : **الموريسكيون والمسيحيون : المواجهة الجدلية 1492-1640** ([17])، درس طبيعة هذه الجدلية شارحا كيف أن محاكم دواوين التفتيش، تمثل بحق الخط المقابل للتسامح والحوار، ولم يبق للموريسكيين تجاه ذلك سوى الاختفاء والاحتماء وراء قناعاتهم" ([18]). كما أن الفتوى التي أصدرها مفتي وهران والتي عرفت رواجا واسعا والتزم الموريسكيون بها، قد حررت الموريسكيين دينيا لتطبيق وجعلتهم يلجؤون إلى ممارسة طقوسهم الدينية سرا ملتزمين أسلوب التقنية والاختفاء، وهو ما يفسر تعميم هذا الأسلوب والهروب إلى الأمام للحفاظ على تعلقهم المتين بدينهم من خلال المسالك الخفية" ([19])، وعليه فإن العثور ولو على ورقة صغيرة حررت بالأحرف العربية بها بعض سور القرآن أو الأحاديث النبوية، كانت تراها محاكم التفتيش، كملجأ روحي للموريسكيين اليائسين، وتعتبرها سببا لأن يمثلوا أمام المحاكم والتعرض بالتالي على السبب الذي حوكم من أجله الموريسكيون والذي سيخضعونهم تلقائيا إلى الملاحقة وإنزال أشنع العقوبات بحقهم، ألم تقم محاكم دواوين التفتيش بإصدار حكم بضرب موريسكي مائتي سوط وخمس سنوات كجداف على ظهر البواخر الاسبانية وهذا كله بسبب العثور في بيته على كتب

([17]) Cardaillac, Louis., 2 édition, publication de la Fondation, Zaghouan, Janvier 1995.

([18]) **المصدر نفسه**، ص 77.

([19]) **المصدر نفسه**، ص 79.

محررة باللغة العربية ([20]) ؟ وبالنسبة للإسبان فإن عدم الوشاية وإبلاغ المحاكم بممارسات للموريسكيين لدينهم الإسلامي، هو أمر يعاقب عليه عقابا شديدا.

فالموريسكيون والمسيحيون الجدد قد استعملوا "العربية والبربرية والقشتالية والبلنسية" ([21]) وأن الفضاء الجغرافي هو الذي يحدد استعمال اللغة. ووفقا لدراسة المؤرخ فنسان برنار فإن البلنسيين والغرناطيين مازالوا محتفظين (حوالي سنة 1586) باستعمال اللغة العربية ([22])، ولا شك أن هذه الإشكالية البحثية تحتاج حقا من مختلف الباحثين والمؤرخين، الاهتمام بها في دراساتهم وبحوثهم، وهي الإشكاليات التي تستحق أن نوليها الاهتمام على ضوء النصوص الجديدة التي حررها الموريسكيون واكتشفت ضمن ملفات محاضر محاكم التفتيش. وفي هذا السياق يندرج نصانا الجديدان اللذان ننشرهما في آخر هذه الدراسة.

ماذا نستنتج من هذين النصين الجديدين اللذين بين أيدينا ([23]) ويحتوي أولهما بعض أحاديث الرسول حول الأهمية الشرفية للصلاة في آخر شهر رمضان، وفي النص وجهت أسئلة عديدة للرسول حول ذلك، متبوعة بأجوبته عليها. ومن جهة أخرى، فإننا ندرك "كيف أن القرآن قد منح للخط العربي بعدا ساميا، أمكن للموريسكيون من استيعابه في الخفاء، للعمل للحفاظ على تراثهم الثقافي الكبير" ([24]).

يتبين لنا إذن كيف أن هؤلاء الموريسكيين الملاحقين من قبل دواوين التفتيش، يسعون بيأس، للمحافظة على الروابط الثابتة مع محيطهم الحضاري ومع دينهم وممارسة

([20]) واقع ومستقبل البحث عن تاريخ الموريسكيين الاندلسيين" في أعمال المؤتمر الثالث حول **تطبيق الموريسكيين الأندلسيين للشعائر الإسلامية 1492-1609**، ص 37-50، منشورات المؤسسة، زغوان 1991.

([21]) فنسان برنار، "لغة الموريسكيين"، تعريب د. عبد الجليل التميمي، في **تطبيق... نفس المصدر**، ص 107-110، منشورات المؤسسة، زغوان 1991. وقد لمح الباحث في هذه الدراسة أنه لم يعثر على وجود لهجة بربرية استعملها الموريسكيون بمنطقة جنوب La Huerto ببلنسية.

([22]) **المصدر نفسه.**

([23]) راجع نص الوثيقة أسفله.

([24]) د. نجيب بن جميع : "الخط العربي كتعبير لرمز مقدسي في النصوص الألخميادية-الموريسكية"، تعريب عبد الجليل التميمي، في **تطبيق... نفس المصدر**، ص 25-30، راجع أيضا كتابنا : **البيليوغرافيا... نفس المصدر**، البحوث المتعلقة باللغة العربية والخط والآداب.

تقاليدهم، وأن أي وثيقة عادية جدا، محررة بالأحرف العربية عن أحاديث الرسول أو سورة من القرآن أو بها ذكر اسم الله، قد اعتبرت كعلامة قوية جدا لارتباطهم بهويتهم الدينية، وهو الأمر الذي كان يمدهم دوما بارتياح روحي وطمأنينة بالغة، تسكن جوارهم وأفئدتهم. بماذا أمدنا نصنا هذا ؟

- إن الخط المستعمل قد حرر ولا شك من قبل أحد العوام من أشباه الأميين، وهو خط مغربي سيئ جدا، إذ لا تنسيق بين أحرفه وهو صعب القراءة تماما.

- إن النص الأول ذا صفحة واحدة فقط، وهو مليء بالأخطاء اللغوية والنحوية والصرفية وقد عددناها بحدود عشرين خطأ ([25]) وهذه قائمة الأخطاء ومقابلها قائمة التصحيحات :

الخطأ	الصواب
صلّ	صلى
وهيا	وهي
وعلِ	وعلي
فقال تا	فقالت
لمن	لا من
عنهَ	عنها
وكيفا	وكيف
ألابْكي	ألا أبكي
ذهبَ	ذهبا
المزِان	الميزان
أُصلِ	أصلي
ومكايلْ	مكاييل
عل حمالة	على حمّلة

([25]) راجع أعمال المؤتمر الأول الهامة جدا، للمائدة المستديرة التي نظمتها اللجنة العالمية للدراسات الموريسكية الأندلسية، حول **الأدب الألخميادو-الموريسكي : تزاوج وعالم الاستطرادات اللامتناهي**، منشورات المعهد الأعلى للتوثيق، تونس، 1986.

حوَ	حواء
اليل	الليل
منعً	منيعا
وحرزً	وحرزا
تلَ	تلا
حبيبُ	حبيبه
كثرًا	كثيرا

- إن هذه الأخطاء المسجلة أعلاه، تترجم على المستوى اللغوي الهزيل جدا للأغلبية الساحقة للموريسكيين ([26]) والذي يؤكد هذه الظاهرة، أن الإحصائيات قد دلت على أن 72 % من الرجال وعموم النساء كانوا من الجهلة تماما ([27]).

أما بالنسبة للنص الثاني وهو الوثيقة المنشورة أمدناه تحت رقم 5، فهو لا يختلف عن النص الأول وإن كانت كتابته أكثر وضوحا، وقد أحصينا فيه من جهة أخرى 27 خطأ نوردها في الجدول التالي :

الخطأ	الصواب
للصلحين	للصالحين
خائفَ	خائفا
عل	على
شهيدٌ	شهِيدا
أدا	أدى
لا إكرَهَا	لا إكراه
الظلمَتِ إلا	الظّلمَات إلى
اصْحَبُ	أصحاب
بلْحق	بالحق
الأرحم	الأرحام

([26]) عبد الجليل التميمي، **واقع... نفس المصدر.**

([27]) ميكانييل دي إيبالزا، خطاب في كتاب : **الأدب... نفس المصدر.**

ذالكم	ذلكم
شهيد	شهد
قائمَ	قائمًا
حديثَ	حديثًا
التّبع	اتبع
أحي	أوحيَ
وحدَ	واحدًا
الملئكة	الملائكة
عل	على
أخفِها	أخفيها
إذ ذاهبا	إذ ذهب
مغَ اضبًا	مغاضبا
سبحنَك	سبحانك
فأنّ توفكون	فأنّى تؤفكون
مثوكم	مثواكُم
البرء	البارئ
السبعة وثلاثين آية	السبع والثلاثين آية

- إنه بإمكاننا تحديد هذا الانحدار اللغوي البائس للموريسكيين زمنيا في الربع الأخير من القرن السادس عشر وحتى الطرد النهائي، وهو ما يترجم كيف أن محاكم دواوين التفتيش قد نجحت تماما في محاربة الموريسكيين بحرمانهم من استعمال اللغة العربية من خلال تشديد الحصار على هؤلاء البؤساء بحرمانهم من استعمال لغتهم الجميلة والتي استعملها آلاف الكتاب والمفكرين والفلاسفة والأطباء والمبدعون العرب واليهود أثناء مسيرة الحضارة الأندلسية طوال ثمانية قرون.

- أن عدم التسامح ورفض الآخر من قبل محاكم التفتيش، قد أضاع على الموريسكيين الذين بقوا في الأندلس الاستعمال السليم للغة أجدادهم، وهو ما دفع بالأغلبية إلى استعمال اللهجات المختلفة وعلى الأخص اللغة القشتالية في حياتهم اليومية، وأن النصوص الأدبية القليلة المحررة باللغة القشتالية والمكتوبة بالأحرف العربية هي في الحقيقة "تعبر بقوة عن

هذا الصوت الديني الذي ترجم عن مدى الإقصاء من الحياة الوطنية لهاته الأقلية التي كانت وريثة إشعاع الحضارة العربية-الإسلامية بالأندلس" ([28]).

تلك هي بعض النتائج المباشرة لدراسة هذا النص، وهي تترجم عن المستوى اللغوي البائس للشعب الموريسكي الذي بقي بالأندلس.

أ. د. عبد الجليل التميمي

****

الوثيقة رقم 1

دفتر المهمة رقم 9، ص 77 ؛ 10 ذي القعدة 977 / 16 أفريل 1570

أمر إلى أمير أمراء الجزائر علي باشا :

ذكرت في رسالتك المرسلة إلى المقام العالي، أن الولاية أصبحت قريبة من الأمن والأمان، وأنه جرى تعمير وصيانة المواقع المحتاجة إلى ذلك، وأن الرعية تعيش حاليا حياة جيدة، وأن طوائف الأعداء، نظموا جماعات كبيرة وهاجموا الولايات القريبة من اسبانيا، ونهبوها واستولوا عليها. ولكن منذ قيام ذلك تصدى أهالي الأندلس للأعداء، وقد انهزم رؤساؤهم وتشتت شملهم، وقام أهالي الأندلس بالهجوم عليهم وانتصروا بعون الله. وأرسلت لهم من هذا الجانب العساكر والذخائر لمد يد العون لهم ومساعدتهم في كفاحهم. ولكن الأعداء لم يتوقفوا عن مهاجمة الولايات المجاورة لهم، وشنوا الغارات عليها بين حين وآخر. وقد اطلعت بإحاطة وشمول على كل ما تم عرضه على سبيل التفصيل. لقد كانت نيتي سابقا، إرسال أسطولي الهمايوني إلى تلك الجهات لمعاونة المسلمين من كل وجه ومؤازرتهم. لكن قيام كفرة بجزيرة قبرص الواقعة قرب ممالكي المحروسة بنقض العهد، وتعرضهم وتعديهم على حجاج بيت الله الحرام، الذين يتوجهون لزيارة تربة سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام، وكذا على سائر طائفة التجار، وبعون الله تعالى وعلو عنايته وبالتوسل بمعجزات وبركات سر الكائنات ومفخرة الموجودات وسائر صحابته الكرام رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، استمدنا العزم من أرواحهم. وكانت نيتي فتح

([28]) رينولد كونتزي، "تعدد اللغات عند الموريسكيين" ص 107-122، **في الأدب... نفس المصدر.**

تلك الجزيرة والسيطرة عليها. وقد تم فتحها والاستيلاء عليها بسهولة ويسر في ذلك الربيع. وأصبح المسلمون كما كانوا في السابق، يؤدون شعائر الشرع الشريف، ويذهب الزوار والتجار ويعودون آمنين سالمين، يلهجون بالدعاء لدوام دولتي وثبات مجدي ورفعتي، ولهذه الأسباب تأخر إرسال العساكر إلى تلك الجهات.

وعليه آمرك أن تقوم من جانبك بإرسال العساكر أو الذخائر كلما كان ذلك ممكنا، لمعاونة المسلمين هناك ومؤازرتهم. وعند وصول أمرنا وبالطريقة التي شرحناها والمدونة في هذا الباب، قدم المساعدة والدعم والمؤازرة للمسلمين المذكورين، بما يتيسر لديك، وحيث لا تجوز الغفلة مطلقا إزاء العدو الكافر. وكن على أتم درجات الحذر والبصيرة، وفي ميدان الدين وأمور الدولة المهمة، ويجب إظهار أنواع الإقدام وأصدق الامتحان، وأعلمنا بكل أوضاع تلك الجهات وأحوالها ولا تتوقف في هذا الجانب.

****

وثيقة رقم 2

دفتر المهمة 10، ص 12 ؛ 3 صفر979 /27 جوان 1571

الموضوع : تجهيز الأسطول للتصدي للأسطول الإسباني ومعلومات عن أحوال أهل الأندلس:

هذا حكمنا الشريف إلى برتو باشا : لقد وجهتم رسالة إلى الباب العالي وأخبرتم فيها أنه في شهر محرم، وصلت سفنكم إلى جزيرة أغريبوز (Agriboz) واستقرت ما بين ستة أو سبعة أيام لتجهيز السفن وأخذ المؤونة اللازمة للإبحار، وتحصلتم على المجدفين (Karekçi). في اليوم الثاني من الشهر المذكور، قدم علي، بايلرباي إيالة الجزائر، بستة 6 سفن من نوع باشترده (Bachtarda) وسفينة واحدة من نوع قادرغه وإحدى عشر (11) قاليته، والتقى بكم في هذه الجزيرة. وقد وجهتم إلى إستانبول الحاج مراد، مصاحبا بسفينتين من الأسطول المذكور. كما التحق بكم والي طرابلس الغرب جعفر بمركبين : سفينة من نوع قادرغه وأخرى من نوع قاليوطه. وقد خرج الأسطول في اليوم التاسع من ميناء أغريبوز. كما تم معرفة اسطول العدو الذي أصبح يغير على الجزر والسواحل بالمتوسط. وقد وصلتنا رسالة قليج علي، حول أخبار مسلمي الأندلس وما هم عليه من مقاتلة وجدال ضد الكفار، وكيف أنهم يبذلون النفس والنفيس للقتال. ورغم ذلك

فليس لديهم الطاقة الكافية لمحاربة هذا العدو، وأصبحوا في حالة قهر واضحة، وقِلة الذخيرة الحربية للاستمرار في حربهم ضد اسبانيا. كما تم إخبارنا بأن أهالي تونس والجزائر في غاية الأمن والأمان، ولا خوف عليهم من هجوم الكفار. ولذلك نأمركم بمتابعة سفن سلطان اسبانيا اللعين وإلحاق الهزيمة بسفنه، خاصة أنه ينوي إلحاق الضرر والخسارة بالسواحل التونسية والجزائرية. ولذلك نأمرك بالحيطة وإعداد ما يلزم للتصدي لذلك وإفشال خطة الأسبان. ونحن على ثقة من شجاعتك وشهامتك لأداء هذه المهمة. وعليك بترتيب الجيش والعمل على الإغارة على الجزر والسواحل التابعة للعدو، وإنزال الخسارة والضرر بها، والتحقق من نية قصد اسبانيا بالهجوم على السواحل التونسية والجزائرية وبذل المجهود لمنعهم من ذلك، وإرسال الأخبار الصحيحة لنا. وعليك بالتنسيق مع قليج علي باشا والإقرار هل المعاونة تحصل بإرسال السفن (قادرغة) ؟ أو بأي طرق أخرى يمكن مساعدته ؟ ولذا نأمركم بالتنسيق مع علي وحسن الاتفاق معه، وعدم قطع الأخبار عن أحوال العدو، بل عليكم بتتبع الأخبار الصحيحة وإعلام الباب العالي على الدوام.

****

الوثيقة رقم 3

دفتر المهمة 23، ص 139 ؛ 28 رجب 981 / 23 نوفمبر 1573

الموضوع : أهل الأندلس المدجنون الذين وصلوا إلى الجزائر، يشتكون من ضيق المعيشة وتعدى رجال الدولة عليهم:

هذا حكمنا الشريف إلى بايلرباي إيالة الجزائر : قام حاليا الفقراء الأندلسيون والثغريون والمدجنون، بإرسال مبعوث عنهم إلى الباب العالي، وأحاطونا علما بأنهم بعدما تركوا أموالهم وأرزاقهم باسبانيا، نزلوا بالجزائر والمناطق التابعة لها، وأصبحوا فقراء لا يملكون شيئا. وقد قام قياد وحكام تلك المناطق، بفرض الضرائب عليهم كغيرهم من رعايا البلاد، وهو الأمر الذي جعلهم يشتكون من ضيق وعسر المعيشة، بل وحتى الأجور التي كانوا يتحصلون عليها، كانت تؤخذ من أيديهم، وحتى البحارة فقد أخذوا منهم أموالهم وأمتعتهم. فما هو سبب التعدي عليهم وأخذ أموالهم وأجورهم التي تحصل هؤلاء الفقراء عليها ؟ ونظرا للأمر السلطاني، عليك بالحيطة والانقياد وأن لا تؤخذ أموال وأمتعة هؤلاء الفقراء ولا أجورهم.

لا تسمح لأي شخص بالتدخل أو التعرض لأحوالهم، ويعفى أمثال أولئك الفقراء من جميع التكاليف حتى يصلوا إلى حال الاقتدار، وتوفر لكل واحد منهم أسباب القوة والاستقرار، وتتم رعايتهم لحين تمتعهم بمقدار من القوة والاقتدار. وعندما تصبح أحوالهم جيدة، تؤخذ منهم الحقوق والرسوم المقررة في تلك الجهات، كسائر الرعايا في تأدية التكاليف وغيرها، ولا يعتدى على هؤلاء الفقراء بأي إجراء مغاير للشرع والقانون، وأمرنا الهمايوني، وبعد ذلك ليبق هذا الأمر الشريف بين يديك.

****

الوثيقة رقم 4

فضل في وداع شهر رمضان

بسم الله الرحمان الرّحيم، روي عن رسول الله صلّ الله عليه وسلم أنه دخل على بنته فاطمة رضي الله عنها وهيا (كذا) تبكي وعلِ (كذا) رضي الله عنه يسكتها فقال صلى الله عليه وسلم لما تبكين يا فاطمة فقال تا (كذا) فاطمة لمن شيء يا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهل يبكي أحد من غير شيء أو يحزن أحد من غير شيء ثم قال صلّ الله عليه وسلم ما نشأ في دنيا مثل فاطمة فقالت فاطمة رضي الله عنهَ وكيفا ألابكي وقد حرمت صلاة الوداع من رمضان ثم قالت فاطمة رضي الله عنهَ (كذا) لو هللت وكبّرت وسبحت أيكون لي ثوابها فقال صلّى الله عليه وسلّم لو هلّلت وكبّرت وسبّحت عمرَك كله ما بلغ تلك الركعتين من ليلة الوداع. فقالت لو تصدّقت بصدقات أيكون لي ثوابها ؟ فقال صلى الله عليه وسلم لو تصدقت بوزن جبل أحدِ ذهبً (كذا) ما بلغ ثوابها فهي افضل في المِزانِ (كذا) من جبل أُحدِ ثوابًا فقال علِ (كذا) رضي الله عنه يا رسول الله كيف أُصلِ (كذا) الرّكعتين فقال صلى الله عليه وسلم يا علِ (كذا) طهر بيتك وثيابك وحضر ما عندك من الطيب ثم قم إلى محرابك وقل سبحان الله عشر مرات وصل على جبريل ومكايلْ (كذا) واسرافيلَ وعل (كذا) حمالت (كذا) العرش وعل (كذا) آدم وحوَ (كذا) وعل جميع الأنبيا لكل واحد منهم عشر مرّات وتقول أعوذ بالله من الشيطان الرّجيم عشر مرات وادخل في الصّلاة إن شئت أول اليل (كذا) أو آخره وآخره أفضل من أوله وأقرا الحمد الله وقل يأيها الكافرون وإذا جاء نصر الله وقل هو الله أحد وقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ بربّ الناس، كل واحدة سبع مرّات في كل ركعة وتتشهّد وتسلم وبعد السلام تسجد سجدةً طويلة

تقول في سجودك بسم الله الرحمان الرّحيم : سجد لك وجهي وخضعت لك رقبتي اللّهم تقبّل صومي وارحم ضعفي، اللهم لك صمت وبرزقك أفطرت وعليك السلام يا شهر رمضان ما كان أعظم بركتك كنت حصنًا منعَ (كذا) وحرزّ (كذا) لمن تلَ (كذا) فيكَ القرآن وعبَدَ فيكَ الرحمان فعليكَ السلام يا شهر رمضان ما كان أعظمُ بركتكَ وأكثرُ خيراتك فكم من صائمٍ لا يصومُك أبدًا وكم من قائمٍ لا يقوم فيك أبدًا رضي الله عنك وعنّا وعلَ (كذا) جميع المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمُومنات الأحياء منهم والأموات وصلَ الله على سيدنا محمّد سيد الأكوان وحبيبُ (كذا) وعلى آله وصحبه وسلّمَ تسليما كثِرًا (كذا) إلى يوم الدين.

****

الوثيقة رقم 5

بسم الله الرحمان الرحيم والحمد لله ربّ العالمين روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه قال : تعلموا هذا الدعاء وعلِموه للصتلحين ولا تُعلموه للسّفهاءَ فوالذي بعثني بالحق بشيرا ونذيرا، ما دعا بهذا الدعاء أحدٌ في سنةٍ أو في شهرٍ أو في زمانٍ، فإن الله يدخله الجنّة بغير حسابٍ. قلنا يا رسول الله وإن سَرقَ، قال وإن سرقَ. قلنا يا رسول الله وإن زنا، قال وإن زنا. قال عليه السلام والذي بعثني بالحق بشيرا ونذيرا ما دعا به من أصابه الجوع والعطش، إلا أطعمه الله وسقاه، ولا دعا به من كان خائفً، إلا آمنه الله من خوفه أو عُرْيانا إلا أكساه اللّه ولا دعا به رجل بنيّةٍ خالصة، على نهر يجري لوقف عن جريه، ولا دعا به على جبلٍ، حال بينه وبين الطريق الذي يريدُ، لانتقل من موضعهِ، وإن دعا به مظلومٌ، فرّج لله عنه، وينظُرُ الله إليه بعينه التي لا تنام، ومن كتبه وجعله بين أكْفانه، كان له شهيدٌ يوم القيامة، فإنه قد توفّى عنه كلّ دين ولو كان عليه دينٌ مثل جبلَ تُهامةَ إلاّ أدا الله عنه وهذا هو التهليل المبارك نفعنا الله به وجعلنا من أهل تهليل القرآن العظيم، بسم الله الرحمن الرّحيم، وإلهُكُمُ إلهٌ واحدُ، لا إلهَ إلاّ هو الرّحمان الرّحيم، الله لا إلهَ إلا هو الحيّ القيوم لا تخذه سنَةٌ ولا نومٌ له ما في السّموات والأرض من ذا الذي يشفع عنده إلاّ بإذنه، يعلم ما بين أيديهم وما خلفُهمْ ولا يحيطون بشيء من علمه ألاّ بما شاء، وسّع كرسيهُ السّماوات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العليّ العظيم، لا إكرَهَا في الدين قد تبيّن الرّشدُ من الغير فمن يكفُرُ بالطّغوتِ ويؤمنْ بالله فقد استمسك بالعُرْوة الوثقى لا انفصَام لها والله سميعٌ عليمٌ، الله وليّ الذين آمنوا يخرجُهم من الظُلُمت إلا النّور والذين

كفروا أولياؤهمْ الطّاغوت يخرجونهم من النور إلى الظُلمَت أولئك اصْحبُ النّار همْ فيها خالدون. الم، الله لا إلهَ إلاّ هو الحيّ القيّوم نزلَ عليكَ الكتابِ بالحق مصدقا لما بين يديه وانزل التورة والإنجيل من قبل هدً للناس وانزل الفرقان إنّ الذين كفروا لهم عذابٌ شديدً والله عزيزٌ ذو انتقام إنّ الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السّماء هو الذي يصورَكُمْ في الأرْحمِ كيف يشاء لا إله إلاّ هو العزيز الحكيمُ شهيدَ الله أنه لا إله إلاّ هو العزيز الحكيمُ، والملائكة وؤلوا العلْمِ قائمٌ بالقسطِ لا إلهَ إلاّ العزيز الحكيم، الله لا إلَهَ إلاّ هو ليجمعنّكمْ إلى يومَ القيامة لاَ ريْبَ فيه ومن أصْدقَ من الله حديثً ذا لِكُمْ الله ربّكم لا إله إلاّ هو خالق كلّ شيءٍ فأعبُدُوه وهو عل كلّ شيء وكيل، التّبعْ ما أُحيَ إليْكَ من ربكَ لا إلهَ إلاّ هو واعْرضْ عَنِ المُشْركِينَ الّذي له ملْكُ السّماواتِ والأرضِ، لا إلهَ إلاّ هو يحيي ويميتُ فأمنُو بالله ورَسوله، وما أمِروا إلاّ ليعْبُدُ الَهًا وحدً لا إلَهَ إلاّ هوَ سُبحنُهُ عمّا يُشْرِكُون، فإنْ تولوْا فقُلْ حسْبي اللّه لا إلَهَ إلاّ هو عليه توكّلتُ وهو ربّ العرْشِ العظيم. قال آمنْتُ أنه لاَ إلَهَ إلاّ هو الذي آمنتْ به بنُو إسْرائيلَ وأنا منَ المُسلمين فَأعلمُوا إنّما أُنْزلَ بعِلْمِ الله وأن لا إلَهَ إلاّ هوَ، فَهلْ أنتُمْ مُسلمون قلْ هو ربّي لا إلَهَ إلاّ هوَ عليه توكّلتُ وإليه متَابُ يَنْزلُ الملَئكَة بالرّوحِ من أمْره عل منِ يشارك من عبادهِ أن انذروا أنّه لا إلَهِ إلاّ هو، فاتقون وإن تجهرْ بالقولِ فإنّه يَعلَمُ السرّ واخفَى الله لا إلَهَ إلاّ هو له الأسماءُ الحُسنى وأنا اختَرتك فاستمع لما يوحَى أنّني أنا الله، لا إله إلاّ أنا فأعْبُدْني وأقِم الصّلواةُ لذكْري إن الساعة آتيةٌ أكادُ أُخفِها لِتُجزَا كلّ نفسٍ بما تسعَا، إنّما إلَهُكُمْ الله الذي لا إله ألاّ هو وسِعُ كلّ شيء علْما، وما أرْسلنا من قبلك من رسولٍ إلا يوحى إليه أنه لا إلَهَ إلا أنا فاعبدونِ وذا النون اذَ ذاهبا مُغ اضبًا فظنّ أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمت أن لا إله إلا أنت سبُحنَكَ إني كنتُ من الظالمين، فتعلَى الله الملِكُ الحقّ لا إلَهَ، إلا هو رب العرش العظيم الله الذي لا إلهَ إلاّ هو رب العرش الكريم وهو الله الذي لا إلهَ إلا هو لَهُ الحمدُ في الأولى والآخرة وله الحكمُ وإليه تُرجعون ولا تدْعُ مع الله إلهًا آخرْ لا إله إلاّ هو كلّ شيءٍ هالكٌ إلا وجهَهُ له الحكمُ وإليه تُرْجَعونَ، يأيّها النّاسُ اذكُروا نعمتَ الله عليكم هل من خالق غير الله يرزُقُكم من السّماء والأرض لا إله إلاّ هو فأنَ تُوفكون. إنّهم كانوا إذا قيل لهم لا إلَهَ إلاّ الله يستكبرونَ ذلكم الله ربّكم له الملكُ لا إله إلاّ هو، فأنى تصرفون غافرَ الذّنب وقبل التوبِ شديدُ العقاب ذي الطول، لا إلَهِ إلا هو إليه المصير ذلكّم الله ربّكم خالق كل شيءٍ لا إله إلاّ هو فأنى توفكون هو الحيّ لا إلَهَ إلاّ هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين ربّ السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين، لا إله إلا هو يُحيي ويميت

ربّكم ورب آبائكم الأوّلين أعلم أنه لا إلَهَ إلا هو واستغفر لذنبك وللمومنين والمومنتِ والله يعلم متقلّبكم ومثوكم هو الله الذي لا إله إلا هو عالمُ الغيبِ والشهادةِ هو الرحمان الرّحيم هو الله الذي لا إلهَ إلاّ هو الملك القدّوس السّلام المؤمن المهيمنُ العزيز الجبّارُ المتكبّر سبحانه الله عما يشركون هو الله الخالق البرء المصور له الأسماء الحسنى يسبّح له ما في السّماوات والأرض وهو العزيز الحكيم الله لا إله إلاّ هو وعلى الله فلْيَتوكّل المومنون ربّ المشرق والمغرب لا إله إلاّ هو فاتخذْهُ وكيلا تمّت السبعة وثلاثين آية من القرآن العزيز بحمْدِ الله وعونهِ.

الحجري في فرنسا

د. كليليا سارنلي- تشركو
المعهد الجامعي الشرقي-نابولي

إنه لشرف لي أن أدعى للمشاركة في المؤتمر العالمي الثالث للدراسات الموريسكية-الأندلسية، وعليه فإنه يسعدني أن أثير معكم شخصية الكاتب الموريسكي أحمد بن قاسم بن الشيخ الحجري الأندلسي (X-XI هـ/ XVI-XVIIم) (1) لأتحدث عن عمله الذي مازال مخطوطا وهو **كتاب ناصر الدين على القوم الكافرين وهو السيف الأشهر على كل من كفر** (2) وعلى الخصوص القسم الذي يصف فيه وصوله وإقامته بفرنسا (3) ويتعلق الأمر بعمل بيبليوغرافي، يضم مجموعة من التقديرات التبريرية والدفاعية عن الإسلام مقارنة بالدين المسيحي، وألفها موريسكي هرب من الأندلس واستقر بالمغرب الأقصى حيث اشتغل بادئ الأمر لحساب السلطان السعدي أحمد المنصور الذهبي (1578 -

---

(1) راجع دراساتي :

- "La fuga in Marocco di al-Shihab Ahmad al-Hagari al-Andalusi, dans *Studi Maghrebini*, 1, Naples 1966, pp. 215-229 + XVIII tav.
- "Lo scrittore ispano- marocchino al - Hagari e il suo kitab Nasir al - Din , dans ***Atti del III Convegno di Studi Arabi e Islamici*** (Revello, 1966), Naples 1967, 595 - 614 + X tav
-"Al-Hagari in Andalusia" dans ***Studi Maghrebini***, III, Naples 1970, pp. 161-203+ XXVI tav.
- "Un voyageur arabo-andalou au Caire au XVIIe siecle: al-Shihab Ahmad al-Hagari" dans ***Collogue international sur l'histoire du Caire***, le Caire 1969, 103 - 106.
- "L'ecrivain hispano-marocain Al-Hagari et son Kitab Nasir al-Din", in M. De Epalza, et R. Petit, ***Etudes sur les moriscos andalous en Tunisie***, Madrid 1973, 248 - 257.

(2) راجع فؤاد السيد، فهرس المخطوطات التي اقتنتها دار الكتب من سنة 1936-1955، القاهرة، 1963، ص 148.

(3) راجع كتاب ناصر الدين، ورقة 25 أ-53 أ.

1603) ثم لابنه مولاي زيدان (1603-1627) وخلال حكم هذا الأخير، أمر فيليب الثالث ملك إسبانيا بطرد كل المسلمين من الأندلس (1018هـ/ 1609م). ونظرا إلى أن العدد الأكبر من الموريسكيين الملتجئين إلى المغرب الأقصى، قد اشتكوا من سوء المعاملة والمضايقات العديدة التي تعرضوا لها خلال سفرهم من قبل المسيحيين، قرر الملك إرسال مذكرة احتجاج سلمت إلى وفد رسمي، وحيث كان الحجري أحد أعضائها وللغرض نفسه تحول الحجري إلى فرنسا وهولندا. ولدى رجوعه إلى المغرب الأقصى بقي يعمل مدة مع السلاطين السعديين ثم تحول إلى الشرق ليؤدي فريضة الحج، ولدى رجوعه مكث بعض الوقت بمصر.

وقد اخترت هذا الموضوع لسببين : أولهما إنني مهتمة كثيرا بهذه الشخصية الممتازة والتي بفضل تأليفها قد ساهمت مساهمة كبيرة في التعريف بهذه الفترة الزمنية المجهولة نسبيا عن تاريخ الأندلس. أما السبب الثاني فهو أن حياة هذه الشخصية ارتبطت بتونس التي وصلها خلال سنة 1047هـ/ 1637م (4) أثناء رجوعه من الحج مصحوبا بأفراد عائلته أو على الأقل بجزء منها، إذا علمنا أن ابنه محمد خوجة كان معه (5) ومما لا شك فيه أنه في هذه المدينة التي عاش فيها فترة زمنية في أواخر سني حياته حيث انتهى من تحرير مخطوطته كتاب ناصر الدين وحيث توجد نسخة منه في دار الكتب المصرية بتاريخ 20 رجب 25/1051 أكتوبر 1641 (6)، وهو التاريخ الذي نعلمه عن إقامته بتونس وحيث نفقد بعد ذلك كل أثر له. وفي تونس اتصل بالداي أبو المحاسن مراد (1638 - 1640) حيث تحدث عن حياته وإنجازاته بإعجاب (7) كما التقى بالموريسكي محمد بن عبد الرفيع بن محمد الشريف الحسني الجعفري الموريسكي الأندلسي المالكي المتوفى سنة 1052هـ/ 1642 م وهو فقيه أندلسي أجبر على مغادرة الأندلس سنة 1609 واستقر بتونس مع عائلته (8) وكان هذا الأخير مؤلف **كتاب الأنوار النبوية في**

---

(4) **نفس المصدر**، الورقة 116 ب.

(5) L.P. Harvey, "The Morisco who was Muley Zaidan's Spanish Interpreter", dans, *Miscelanee de Estudios arabes y hebraicos*, Universidad de Granada, VIII, 1, 1959, p. 72.

(6) قارن كتاب ناصر الدين، ورقة 111ب.

(7) قارن هارفي(Harvey) **نفس المصدر**، ص 77.

(8) كتاب ناصر الدين، ورقة 13 ب، راجع أيضا:

أبي خير البرية والذي يقدم لنا شهادة حول ظروف عيش الموريسكيين وطردهم النهائي من الأندلس (9).

كما التقى مؤلفنا بالموريسكي إبراهيم غانم، صاحب مخطوطة عن الأسلحة حررها باللغة الإسبانية، وقد طلب إليه هذا الأخير نقلها إلى العربية (10). وقد حررها الحجري تحت عنوان : "**كتاب العز والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع**". وحسب الحجري فان هذه الترجمة تعد الأولى من نوعها عن فن الأسلحة باللغة العربية وبفضلها تمكن التونسيون من إتقانه عند استعمال المدافع والبارود وفي "فوهات" النار الأخرى (11) وبالفعل فإن مفتي وإمام جامع الترك بتونس السيد أحمد الحنفي الذي طلب منه الحجري أن يقرأ المخطوطة، قد ذكر بأنها هامة ومفيدة جدا للمسلمين، ولحسن الحظ فقد عثرت في دار الكتب المصرية على مخطوطة كتاب ناصر الدين وحيث بدأت أشتغل عليه وقد نشرت ترجمة النص إلى الإيطالية مع مقدمة من خمسة فصول مصحوبة بنسخة مصورة لصفحات المخطوط. وإني لأحيل القارئ للفصول المنشورة لكل ما يتعلق بالسنوات التي قضاها مؤلفنا بالأندلس (12) ثم التجائه إلى المغرب الأقصى وإقامته بمراكش ثم رحيله إلى فرنسا وهولندا.

وسوف أقدم هنا ملخصا موجزا للفصول التي تناولت وصوله ثم إقامته بفرنسا فقد سافر من آسفي سنة 1019/1610 وأرسى في هافر (Havre) بعد ثلاثين يوما من الإبحار (13). وبعد ذلك تحول إلى روان (Rouen) حيث التقى بمسيحي تعرف عليه سابقا بالمغرب الأقصى باسم السيد كارت (Quart) ويمكن أن يكون جاك جانكار الذي

John D. Latham," Towards a Study of Andalusian Immigration and Its Place in Tunisian HistoRy",dans *les Cahiersde Tunisie*, XVII _ XVIII Tunis, 1957, pp. 205 - 206 .

(9) عبد المجيد التركي "وثائق الهجرة الأندلسية الأخيرة إلى تونس" في : **حوليات الجامعة التونسية** IV، سنة 1967، ص 63-25.

راجع كذلك محمد المنوني "المخطوطات التونسية بالمغرب"، في المغرب، 7-6، الرباط، 1965، ص 57-58.

(10) راجع بحثي "Lo scrittore ispano-ma rocchino..." : **نفس المصدر**، ص 603 و606.

(11) **المصدر نفسه**، ص 606 "The morisco who was "Harvez، **نفس المصدر**، ص 97.

(12) **المصدر نفسه**، ص 97.

(13) كتاب ناصر الدين، الورقة 25 أ- 25 ب.

عاش بمراكش في عهد مولاي زيدان وكان يتقن العربية جيدا (14). وقد أقام معه الحجري المحادثة الأولى حول الطبيعة الإلهية للمسيح وموته لإنقاذ الإنسان من الجناية الأولى وفي هذا السياق ذكر المثال التالي: "إذا أمر أحد السلاطين أتباعه بأن لا يدخلوا حدائقه وإذا فعل ذلك أحد الأفراد، هل يمكن لهذا السلطان القوي أن يأمر بإحضار إبنه ليقتله بحضوره سعيا منه لإنقاذ من لم يطعه؟" (15).

ثم كانت له محادثة أخرى حول الإسلام مع القاضي الأكبر للمدينة الذي يتقن اللغة القشتيلية (يطلق عليها اللسان الأعجمي الأندلسي) وقد عبر القاضي عن عميق سروره للشروح التي قدمها مؤلفنا، وقد أظهر له نتيجة لذلك صداقة إفادته إفادة كبيرة خلال إقامته بمدينة روان (16).

وقد تحدث الحجري أيضا عن وصوله لمدينة باريس وعن اتصالاته الرسمية الأولى، وقد قدم للمجلس الملكي (الديوان السلطاني) المسألة التي جاء من أجلها لهذا البلد وقد سلمت إليه رسائل الملك الموجهة إلى القضاة التي أعطى أسماءهم وكذلك إلى قاضي الأندلس. وبالفعل فقد كتب الحجري بالنسبة للمجلس أنهم اختاروا "قاضيا" مسيحيا من بينهم ووجهوه إلى الأندلسيين، قصد فصل قضاياهم وجمع الخُمس من ثروات أغنيائهم الذين وصلوا فرنسا ليقع استعمالها للمعوزين منهم (17). وقد التقى مؤلفنا في باريس أيضا بعالم أطلق عليه أوبرتو (Ubirtu) وحيث كان يعرف العربية التي درسها بالمغرب الأقصى (18). ولا شك أن هذه الشخصية هي الطبيب والمستشرق الشهير هوبير (Hubert) المولود في أورليان (Orléans) الذي أرسله ملك فرنسا هنري الرابع (Henri IV) إلى المغرب الأقصى سنة 1598. وقد أقام سنة بمراكش كطبيب الملك وفي نفس الوقت كمترجم عن العربية. وقد تعين أستاذا للغة العربية في الكوليج

---

(14) راجع : Henry de Castries, *Sources inédites de l'Histoire du Maroc, 1ere série, Saadiens*, France III , Paris 1911, p. XL VIII

(15) كتاب ناصر الدين، الورقات 25 ب- 26ب.

(16) **المصدر نفسه**، الورقة 27 أ- 27 ب.

(17) **المصدر نفسه**، الورقة 28 أ.

(18) **المصدر نفسه**، الورقة 28 ب، راجع أيضا كاستري (Castries)، **نفس المصدر**، المجموعة الأولى، السعديون، فرنسا، ج II ، باريس 1909،، ص 314، و400-399، جIII ، باريس 1911، ص XVII, XXII, XXVII.

دوفرنس (Collège de France) وكان تلميذه الهولندي أربينوس (Erpenius) والذي كان يعرف العربية جيدا (19) وبالفعل فقد التقى الحجري باربينوس في إحدى الأمسيات عند هوبير وسوف يلتقي به فيما بعد في ليد (Leyde) وقد وعد هوبير الحجري بالإضافة إلى ذلك، على مساعدته لأداء مهمته على شرط أن يقرأ معه عددا من النصوص العربية التي يملكها منذ مدّة وهذا ما تم فعلا وبالإضافة إلى ذلك، كانت (20) لديهما محادثات طويلة تناولت الزواج والعلاقات مع النساء والعزوبة والقساوسة والكهنة وحول الثليث (21). وبعد ذلك تحول الحجري إلى مدينة بوردو (Bordeaux) وسان جان دو لوز (Saint-Jean-de-Luz) ليلتقي بقاضي الأندلسيين، وكان ذلك سنة 1020هـ/ 1611م-1612م. وحيث يوجد في هذا البلد الصغير أواخر الموريسكيين الذين وصلوها من الأندلس (22)، ومن بينهم يوجد شخص باسم كالس ؟ والذي أخبره أنه وفقا لموظفي المجلس الملكي بمدريد، فان العدد الإجمالي للأندلسيين المطرودين وصل إلى ثمانمائة ألف نسمة، وان العدد الأكبر منهم التحق بتونس حيث أحسن الداي عثمان 1007 - 1019هـ/ 1598 - 1611م وأبو الغيث القشاش استقبالهم وقدما لهم كل المساعدات (23).

أما القاضي الإسباني الذي كلف بالإشراف على مؤلفنا وبقية الوفود، فقد أجرى محادثات معمقة مع الحجري، وقد نصحه في الأخير أن يعتنق الدين المسيحي. إلا أن المؤلف وللإجابة على كل سؤال ، دخل في مجادلة، مصرحا إن أحكام وقانون الدين المسيحي غير مأخوذة من الإنجيل، ولكنها موافقة لمذهب المجوس الموجودين في رومة

---

(19) **المصدر نفسه.**

(20) كتاب ناصر الدين، الورقات 85 ب-86 أ .

(21) **المصدر نفسه**، الورقات 28 ب-33 ب.

(22) **المصدر نفسه**، الورقة 33 ب.

(23) **المصدر نفسه**، الورقات 33 ب-34 أ، راجع أيضا: ابن أبي الضياف، **اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**، ج 2، تونس، 1963، ص 31-28، قارن Latham **المصدر نفسه**، ص 222-224.

لمزيد من المعلومات عن القشاش راجع : محمد المحبي، **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**، ج 1، القاهرة، 1284هـ/1868م، ص 142-140 و Latham **المصدر نفسه**، ص 225، راجع :

Mikel De Epalza "L'auteur de la "Tuhfa al-arib" Anselm Turmeda (Abdallah al-Tarjuman)" dans **IBLA**, XXVIII, Tunis 1965, pp. 274-275, N: 43; Pieri, ***op. cit,*** pp 63 - 70 .

وأن كتب وقانون الدين المسيحي، مترجمة عن كتبهم· وكمثال على ذلك الكتاب المسمى بلد (Bald) (24)، إلا أننا على الرغم من التحريات الطويلة التي أجريناها حي يومنا هذا، فإننا لم نوفق لمعرفة من هم هؤلاء المجوس الموجودين برومة ولا طبيعة هذا الكتاب بلد الذي ذكره الحجري، وقد استمر مؤلفنا في مجادلته عندما تحدث عن كل الاختراعات التي أدخلها مختلف البابوات والتي بموجبها ينص على ما يلي : إذا كان مسيحي يعيش في عهد المسيح وآخر يعيش خلال القرن السادس عشر المنصرم، وباستطاعة كل منهما أن يعيش من جديد فسيجر إلى الإعلان بأن المسيحيين أصبحوا كفارا (25).

من بين الاختراعات المذكورة، سوف أذكر فقط ما يلي : أن (البابا) لينــو دو فولتــيرا (Lino de Voltera) (67-76) والذي ذكر مؤلفنا بـــ : ليون، قد أمر أنه وجب على كل النساء أن يدخلن الكنيسة عاريات الرؤوس (26). وقد صرح البابا الكسندر الثاني (1061-1073هــ) إن كل قس وجب أن يحتفل بصلاة واحدة في اليوم (27) : وفي الحقيقة فإن البابا كان قد صرح بأن كل قس يمكن أن يكتفي بصلاة واحدة في اليوم ، إلا إذا كان ضروريا فبإمكانه أن يؤدي ثانية ونفس هذا البابا قد أمر بوضع الماء المقدس في مدخل الكنائس وان يضاف الماء إلى الخمر الذي يشربه القس أثناء آداء القداس (28).

وفي الحقيقة فان البابا ألكسندر الأول (1105 - 1115) هو الذي أمر بوضع الماء في مدخل الكنائس: أما طريقة إضافة الماء إلى الخمر حتى يشربه القس، فهو استعمال قديم جدا، يرجع إلى عهد المسيح وعشائه الأخير مع حوارييه قبل صلبه. إن الذي يثير الانتباه هو أن مؤلفنا قد لاحظ أن النساء المسيحيات يذهبن إلى الكنيسة وهن "في غاية الزينة" (29)، وهي عادة ذكرها الرحالة المسلمون: وفي هذا الصدد فإني أتذكر مثلا أندلسيا آخر هو ابن جبير (1145-1217)، في رحلته ولدى وصفه مدينة بالرمو لاحظ

---

(24) كتاب ناصر الدين، الورقة 34 أ-34 ب·

(25) **المصدر نفسه**، ورقة 34 أ·

(26) **المصدر نفسه**، ورقة 35 أ·

(27) **المصدر نفسه**.

(28)**المصدر نفسه**·

(29)**المصدر نفسه**، ورقة 36 أ.

من ضمن مشاهداته أن النساء الصقليات يتحولن إلى الكنيسة وهن في غاية الجمال ومعطرات ومزينات (30).

ولدى رجوعه من باريس مصحوبا بالقاضي الأندلسي، استدعى هذا الأخير الحجري في إحدى الأمسيات لتناول العشاء عنده بغرض تقديمه شخصيات رفيعة المستوى. وقد قام القاضي أثناء هذا العشاء بدور المترجم وقد تمت مناقشة عدة قضايا : الصوم وتحريم شرب الكحول وإمكانية التزوج بأربع نســـــاء إلى غير ذلك من المسائل. وقد تمكن الحجري أن يقدم لهم أجوبة حيرتهم كثيرا، وقد هنؤوه وأحاطوه علما أنهم لم يلتقوا بمسلمين مثله، وقد ذكر لهم مؤلفنا بشيء من الغرور قائلا "إنني ترجمان سلطان المغرب الأقصى، ولأداء هذه الوظيفة، كان علي أن أعمل كثيرا لأتحصل على ثقافة متعددة الاتجاهات" (31).

واستكمالا لمهمته، تحول الحجري إلى اولون (Olonne) حيث استدعي في أحد المنازل وقد تعرف على آنسة جميلة جدا هام بها كثيرا وقد شرح كيف أن النفس المادية تدفع الإنسان لإرضاء شهواته بالاستعانة بالشيطان من جهة، ومن جهة أخرى كيف أن الروح تمنعه من ذلك بالاستعانة بالله (32). وقد تحول بعد ذلك إلى بوردو حيث التقى قساوسة وقاضيا مسنا جدا، كان له معهم مناقشات حول جنة المسلمين ومسائل دينية أخرى كالاغتســـال الذي يعتبر وسيلة للتطهير من الذنب الأصلي. وبهذا الصدد فقد شرح قائلا: " نغسل اليدين اللتين بهما قطف آدم الثمرة المحرمة والفم الذي أكلها والأنف الذي استنشق عبيرها والوجه الذي رأى به الشجرة والرأس الذي مر تحت الأغصان، والأذنين الذين بهما استمع إلى الأمر المخالف لأمر الله، كما نغسل الرجلين الذين تسلق بهما آدم الشجرة" (33).-

وبعد ذلك زار الحجري مدينة تولوز حيث حلّ بمينائها عن طريق سفينة صغيرة عبر بها نهر قارون (Garonne) حتي بوردو، وقد التقى فوق ظهر السفينة بقس إيطالي وقد

---

(30) راجع :
The Travels of Ibn Jubayr, ed. W Wright dans E.J.W. Gibb Memorial series, v. Leida- Londre 1907, p.333.

(31) كتاب ناصر الدين، الورقة 43 أ.

(32) المصدر نفسه، الورقة 47 أ.

(33) المصدر نفسه، الورقات 57 ب-59 ب.

ذكر أنه باستطاعته فهم ما يقوله في لغته القريبة جدا من لغة الأندلس (لسان الأندلس العجمي) (34). ولدى رجوعه إلى باريس، تعرف على أشهر منجمي العصر، إلا أنه لم يذكر اسمه، وكان من تلاميذ الفقيه أحمد المصيوب الفاسي (توفي 1022هـ/1613 – 1614م) وكان هذا الأخير من أصل أندلسي وهو متحصل على إذن بالعمل في مكتبة السلطان السعدي المنصور الذهبي التي تضم اثنين وثلاثين ألفا من المؤلفات (35).

وقد ذكره المنجم الفرنسي أنه يملك أكثر من مائة مؤلف حول التنجيم وأنه قادر على قراءتها وفهمها وأضاف أن علم التنجيم هو علم خاص وأنه عموما فان نتائج البحوث والدراسات مريحة ومسرة وفي هذا الخصوص، أشار إلى اغتيال والد ملك فرنسا في هذا الوقت وهو لوي الثالث عشر (Louis XIII) وقد شرح أنه حاول أن يقيم حساباته على أساس النجوم، إلا أنه لم يتحصل على نتيجة طيبة، وفقا للقوانين المشروحة في النصوص (36).

وأثناء وجوده بباريس، قدمت إليه سيدتان تركيتان تنتميان إلى إحدى العائلات الكبيرة باستانبول وقد أسرتا أثناء تحولهما لأداء فريضة الحج وقد جلبتا بادئ الأمر إلى البندقية، ثم أن سفير فرنسا أرسلهما إلى ملكة فرنسا ماري دي ميديسيس (Marie de Médicis) وحيث اشتغلتا عندها كخياطتين ممتازتين، وقد رجتا من الحجري مساعدتهما للرجوع إلى أهلهما وقد وعدهما بالاهتمام بوضعيتهما وبالفعل فقد نجح في إرسالهما إلى هولندا ومنها تمكنا من الإبحار في اتجاه استانبول (37)، وعند مغادرته باريس، تحول مؤلفنا إلى روان ومنها إلى هافر ثم التحق بهولندا (38).

وهنا تنتهي نصوص كتاب ناصر الدين حول رحلته لفرنسا وهي تغطي الورقات من 25 ب إلى 84 ب وهي التي قدمت حولها هذا الموجز، وفي هذا الجزء كما في غيره من أجزاء الكتاب، شرح لنا المؤلف بكثير من الواقعية، الوسط التاريخي لعصره. أما علاقاته بالمسيحيين، فهي شهادة باهتمامه البالغ للعلاقات بين الإسلام وبقية الأديان الأخرى. إن

---

(34) **المصدر نفسه**، الورقة 61 ب.

(35) **المصدر نفسه**، الورقات 82 ب– 83أ، راجع بحثي Lo Scrittoro marocchino : ص599.

(36) كتاب ناصر الدين، الورقات 82 ب–83 أ.

(37) **المصدر نفسه**، الورقات، 84 أ– 90 ب.

(38) **المصدر نفسه**، الورقة 84 ب.

هذا الاهتمام يمثل إرثا واضحا ودالا على أصوله الموريسكية وهو الاتجاه العام الذي نجده لدى كل الموريسكيين لإيجاد جسر بين الإسلام والمسيحية.

تعريب د. عبد الجليل التميمي

ثمن العقيدة
محاكم التفتيش ببلنسية وأملاك الموريسكيين (1566-1609)

د. رافاييل كاراسكو
جامعة بروفنس - فرنسا

إن ربط الضمير بمعيار المال من شأنه أن يقلل من ثمن التطلع إلى الحياة الخالدة وهذا هو بالذات ما سنعالجه في هذه الدراسة· إلا أنه في حالة ما إذا أردنا أن نكون مثاليين أو سذجا فانه لا يمكن أن نترك جانبا أهمية هذه المسألة التي شرحت للحصول على السلامة والنجاة· وهذا المشكل سيكون أكثر حدة إذا تعلق الأمر بالمجموعات التي كانت ممارستها الدينية سرية، وأنها على ضوء ذلك لا تستطيع أن تحافظ على ذلك إلا بفضل المجهود اليومي الذي قبله ورضي به البعض.

وخلال النصف الثاني من القرن السادس عشر، كان الحفاظ على الروابط التقليدية للتضامن الديني، قد أصبح بالنسبة للمجموعة قضية مكلّفة جدا وهذا ما أدى بالشكل الديني أن يكون وراء التراكم الاقتصادي المعقد والذي غذّى المؤسسة المالية الضخمة ذات المداخيل المتعددة وقد تحملت إدارتها بالقوة العائلات الموريسكية وهي الأكثر التحاما فيما بينها ووعيا بالقضية الغنية جدا. على أن مؤرخي الإسلام الموريسكي لم يمنحوا هذا العنصر المالي في صراع العقيدة ما يستحقه من أهمية، وفي رأينا فان هذا الموضوع ذو أهمية كبيرة ويشكل أحد العوامل الحاسمة التي وجب أخذها في الاعتبار لتحليل سليم للتطور السياسي لهذا الصراع· وكذلك للممارسات الدينية للمسيحيين الجدد ليس فقط في مملكة بلنسية ولكن أيضا لدى المجموعات الموريسكية حيثما وجدت سواء أكان ذلك بالنسبة للمنتمين قديما أو حديثا بقشتيلة الجديدة وهذا بعد وصول الغرناطيين المتعبين مثلا.

وفي ضوء ذلك سوف نسعى من جانبنا، إلى دراسة الجماعة التابعة لمقاطعة ديوان التفتيش ببلنسية، وهو الذي يضم بالإضافة إلى مملكة بلنسية الذي فصل عنها والحق يقال أسقفية اريهوالا بالجنوب واسقفيات طورطورو وتريوال البيازين بالشمال·

إن التضامن الديني كان يمثل بالفعل أساس الظواهر الاجتماعية الموريسكية وعليه فان الحفاظ أو القضاء عليها يرمز فعلا للاستمرارية الثقافية للمجموعة وبالإضافة إلى ذلك فهو يترجم وجود الأمة الموريسكية كواقع حقيقي وعليه هل بمقدورنا أن نكتب وفقا لنموذج متعاقب للمجتمع وتأسيسه؟ إن رأي الجماعة لم يكن على أية حال جبريا ولم يكن الأمر يتعلق بالاستمرار، رغم كل الملابسات والتكيف يوما بعد يوم وفقا للمتغيرات المفروضة من طرف سلطة المسيحيين القدامى، ولكن أيضا المطالبة بحقهم التاريخي بامتلاك الأرض والتملك وتسييس مجموعاتهم وفقا للقوانين التقليدية.

إن المطالبة بهذا الحق كان سيفضي بالنسبة للقياديين الموريسكيين إلى مفاوضات رسمية تسمح بتأمين قانوني للمحافظة على ثقافة المدجنين في الأرض البلنسية: إن هذه العزيمة السياسية للجماعة التي تهدف للعثور على مخرج سلمي يتفاوض حوله بين كل الأطراف قد تم التعبير عنها بشكل واضح خلال المحادثات مع الملك خلال سنتي 1525-1526 وتم التمسك بها منذ الطعنات الخطيرة الأولى التي تبنتها السلطة ضد الحريات الموريسكية : كحملات التنصير ونزع السلاح الجماعي. وقد تؤكد من جديد هذه السياسة تبني حزم شديد خاصة بعد مأساة النكسة الحربية للغرناطيين في حرب التيرات هذا ما يؤكد، للجماعات البلنسية، الواعية كل الوعي بأهميتها الديمقراطية ودورها الاقتصادي المحلي، وكذلك أيضا بعزلتها وضعفها السياسي ومن اجل هذا فهي لا تريد أن تتحمل مسؤولية قطيعة تأخذ شكل المغامرة.

إلا انه خلال سنة 1580 فقط، تبين لبعض عناصر المقاومة الموريسكية والمتشكلة من بين الزعماء الأثرياء والأكثر تصلبا والتحاما للجماعة والذين يعيشون وفقا للتقاليد والأكثر قربا أيضا للجزائر، إنهم نجحوا لإسماع صوتهم لإخوانهم في الدين لمجابهة السياسة المسيحية القديمة المهاجمة والمتطرفة ومع هذا فان بعد هذه الفترة الزمنية ازدادت ملاحقات محاكم التفتيش الرهيبة خلال السنوات 1590-1595 وقد ظهر تيار موريسكي قوي كان ينادي بالتفاهم مع السلط المحلية ضد محاكم التفتيش: وقد بينا سابقا هذه الحقائق من دراسات أخري غير أنّ الذي نريد شرحه اليوم هو أن التفاهم مع الأشراف أو مع الكنيسة البلنسية، شأنه في ذلك شأن التفاهم مع الباب العالي كانت كلها سياسات مكلفة جدا للموريسكيين: وفي الواقع فان هؤلاء شكلوا بالفعل رهائن ظرفية لسياسة تتجاوزهم وهي أكثر ذيوعا وانتشارا على الصعيد الوطني والدولي.

ومن وجهة نظر سياسة شبه الجزيرة، فإن أمة المسيحيين الجدد من العرب، لا تستطيع أن تعول على مساندة كبار رجال الدين أو نيل التاج الملكي ببلنسية وهذا في حالة أن هاتين المجموعتين من طرف (Fueras) الذي يمثل سورا منيعا، مقرّان العزم على رفض السلطة المركزية القشتيلية. وفي هذه المسألة فان المجابهة عن طريق موريسكيين عرضيين يدخل من جهة السلطة الدينية والعسكرية الملكية ومن جهة أخرى فان نائب الملك الذي تسانده محاكم التفتيش لم يهتم أساسا بالحريات التقليدية للمسيحيين الجدد. وبالإضافة إلى هذا الأمر، ومع الصراع في البحر الأبيض المتوسط بين تاج إسبانيا والسلطنة العثمانية، فانه يستنتج من كل شهود العيان التي جمعناها أن المساعدة التي وعدت من طرف الديوان للموريسكيين، العالي للاستيلاء على بعض المواقع المسيحية في البحر الأبيض المتوسط ولعل المغرب الأقصى يشكل أحد تلك المواقع.

وعليه فان الموريسكيين سوف يشنون معركة بطريقة يائسة وانفرادية في مملكة أراقون للحفاظ على ثقافتهم وعقيدتهم، أن هذه المعركة تشبه إلى حد كبير المعركة التي شنها اليهود المتمسحون من سنة 1480 إلى 1520 ومن وجهة النظر هذه كان على الموريسكيين أن يسددوا أموالا كثيرة وعلى عدة جهات وانه من المعجزة أن لا يكونوا قد هلكوا ودمروا تماما وتركوا هذا المشروع.

ومع هذا فان كل شيء يشير أنه أثناء خطة الطرد، كانت المجموعة الموريسكية تتمتع على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي وبشكل اقل على المستوى الديمغرافي، بصحة جيدة تحسد عليها وهي بذلك كانت بعيدة كل البعد عن حالة الفساد غير المتميزة وحيث كان أنصار الدمج القسري لإخضاع وإضعاف المجموعة الموريسكية أن هذا، ليس بالأمر الغريب لوضعية كانت على أية حال حدودها وتطورها مجهولة تماما لدينا.

وبادئ الأمر فان الجماعة كان عليها أن تتحمل نفقات التنظيم بشكل مواز للإسلام الجماعي: فالجزارون يعملون بجانب جزاري المسيحيين القدامى هم وحدهم الذين قبلوا بصورة قانونية المقابلات والقضاة والأمناء والفقهاء أما القاعات فقد تحولت إلى مساجد وحمامات وقبور.

إن كل هذه النفقات قد أضفت أساسا لتأمين تسيير الكنائس الجديدة، وكل ما يرتبط بالمجال الديني كالختان والتعليم الذي يشرف عليه الفقهاء وخصوصا مراسم الدفن، السرية والتي حوربت محاربة شديدة، كانت جد مكلفة وهي مرتبطة بصفة عامة بحسن إرادة

الوجهاء الموريسكيين وهذا ما جعل بعض العائلات الموريسكية تتحول بحكم الواقع إلى ملجأ لتجسيد بعض مظاهر الأحقية المبنية على احترام صحة المعتقد وهي الأحقية التي ينازعها العامة المعوزة والمبعدة عن دائرة الأحباب والزبائن وعليه فإننا نرى وبشكل تدريجي جانبا من المواطنين يمارسون دينا اضطر بحكم الملاحقة إلى التقاص وفي نفس الوقت الذي أصبح أكثر شفافية للتأثيرات المسيحية، نراه قد ابتعد عن الذي عاداته التقليدية، والتي تشكل أحد دعائم هذه المجموعات ومثل تقسيم الملكيات على الطريقة الموريسكية، عقود الزواج والخضوع إلى صيغ العدالة القديمة.

وثانيا: إن الجماعة التي كانت أكثر تنظيما وعددا، كانت تسدد إلى الباب العالي ضريبة التبعية التي كانت ترسل إلى الشرق بواسطة عدد من الرسل الموريسكيين وحيث جابهوا آلاف المفاجآت والمخاطر. غير أننا مع أسفنا الشديد نجهل الكثير عن هذه الممارسة كما أننا نتردد من جهتنا أن نؤيد ما قدمه بعض الجواسيس المسيحيين في خدمة دواوين محاكم التفتيش من أرقام هي ولا شك مبالغ فيها جدا.

وثالثا: إن الموريسكيين كان عليهم في كل لحظة رشوة أحد المسؤولين في دواوين محاكم التفتيش أو أحد أعضاء الحرس البلدي (Alguacil) لدى زيارته البيوت والأساقفة والعدول إلى آخره وهم بذلك يتحصلون بثمن غال، على تواطئ مرغوب فيه إلا أنه ظرفي ويتراجع فيه من حين لآخر وهنا أيضا كان على الجماعة الأكثر نفاذا وقوة وحماية من طرف أسيادهم قد وفقوا في مجابهة هجمات سلطات المسيحيين القدامى "بجدار من الفساد" اعتبر في كثير من الأحيان محكم الانسداد.

ومن جهة أخرى كان على المسيحيين الجدد تسديد ما عليهم للكنيسة مقابله حسن استقبالهم وضمهم إليها وكذلك وجبت عليهم تسديد كل الضرائب والأداءات القانونية للملك أيضا.

إننا نعلم عدة حالات لموريسكيين أثرياء - وبنو الأمير من هؤلاء- قد اعتمدوا - شأنهم في ذلك شأن المسيحيين الجدد- على جمع الضرائب، على أن جميع الأدلة كانت تؤكد أنه على الرغم من المستويات المتواضعة جدا، فانه الأفضل كان للموريسكيين الذين أكدوا على دعم هذه الحقوق في الأماكن الأكثر سكانا وأغلبهم من المسيحيين الجدد. إلا أن الوضعية الاستثنائية لحديثي عهد بالنصرانية، -وجب التأكيد على ذلك قد ترتب عنه أيضا مصاريف استثنائية وخصوصا تمويل حملات التعميد وحيث كان المال الموريسكي يتدخل

مرة أخرى، لتخفيف حماس السلطة ولتخفيف العقوبات المسلطة على الذين يخلون بواجباتهم تجاه الكنيسة.

خامسا: إن الموريسكيين التابعين أغلبهم، كما هو معلوم لطبقة النبلاء البلنسية كانوا قد عددوا لعمال الحاكم، ضرائبهم الإقطاعية وهي التي تختلف وفقا للمقاطعات إن أغلب الأسياد -مقابل ثمن التسامح- استمروا يجمعون الاداءات القديمة والتي التزمت بها الجماعة أيام حكم الكفار، وعليه فان دون سانشو دو كاردونا (Don Sancho de Cardona)ودون لوي بالاس (Luis Pallas) أو دوك دو سيقورب (Duc de Segabe) يجمعون اداءات ثقيلة من الموريسكيين يقال أن الإدارة الملكية كانت تغض الطرف على جملة من الممارسات والعادات القديمة مثل استعمال اللغة العربية والتقلب والتزين بما هو عربي وإمكانية صيانة "المساجد" النصف سرية والحمامات والمدافن وتعليم الأطفال وكذلك أيضا تنظيم (Zambras) الشهيرة وكل الحفلات المتعلقة بالولادات والختان والزواج والقيام بصوم شهر رمضان.

إن هذا العطف المقصود قد دفع بإشراف الموريسكيين أن يدفعوا ثمنه غاليا في بعض الأحيان وحتى نهاية سنة 1570، فان اكبر أسماء النبلاء البلنسيين والتي ظهرت في أوراق محاكم دواوين التفتيش، قد حوكموا بتسديد غرامات مشطة وهذا بسبب انتشار الهرطقة والبدع في أراضيهم أو لاعتراضهم للتضييق الحر لقانون محاكم التفتيش، وكذلك بمنعهم لعمال المحاكم الولوج لمدن الموريسكيين مثلا. فالدون لوي بالاس قد سلم في قضية معينة اكثر من نصف ثروته ([1]) ودون سانشو دوكاردونا (Sancho de Cardona) كان عليه أن يسدد المبلغ الضخم المتمثل في 2000 دوكا. ودون لوي باردودي لاكاستا

([1]) Archivo Historico Nacional (A.H.N), Inquisicion (Inq.), legajo (leg.) 4660 (1571). Don Luis ne possédait pas une fortune fabuleuse.

لا يملك دون لوى (Don Luis) ثروة كبيرة وهذه قائمة مصادرته محاكم التفتيش لأملاكه :

-حلي وأشياء فضيات	734 جنيها
-أقمشة وأمتعة منقولة اخرى	"1024
-ماشية (193 من الخيول و 26 بغلا)	"3771
-رأس مال استثمر في الاقطاع	"1050
-ديون للفائدة	"637
المجموع..........	7216 جنيها

(Luis Pardo de la Casta) كان عليه أن يدفع 400 دوكا ودون لوي كاستلفي (Luis Castelvi) كان عليه أن يدفع 500 دوكا ودون ريكـــاردو مونـــوز (Don Ricardo Munoz) 400 دوكا أما بروكسيتا (Les Proxitas) وفيلارازا (Les villarrasa) وسانتال (Les Centelles) وكرانولاس (Granulles) وحتى رئيس دي فالدينيــا (l'Abbé de Valldigna) كان عليهم أن يسددوا مبالغ ليس في إمكاننا تحديد مبالغها بالضبط، لكن يبدو انها وصلت وفقا لتقديرات محتملة إلى 400 أو 500 دوكا غير أن هذه العقوبات جاءت ولا شك لتضاف بطريقة استثنائية إلى استحصال الضرائب القانونية والتي كانت توزع على أعضاء الجماعة.

وأخيرا ولا يعد هذا آخر الضرائب التي يتحملها الاقتصاد الموريسكي ونعني به أن محاكم التفتيش قد مارست بحرية دور النشال كما سوف نشرحه، وهو الدور الذي عرف كيف يخشاه كل شخص يتعلق به ذلك الأمر على انه في الوقت الحاضر لا نملك ولا دراسة واحدة محددة تسمح لنا بدراسة حجم كل هذا الابتزاز وتأثيره الزمني أو نتائجه الحقيقية على الثورة الموريسكية، إلا انه في صورة امتلاكنا لبعض المعلومات عن الاقتصاديات الموريسكية والكنسية والنبلاء البلنسيين خلال القرن السادس عشر، فانه يخشى أن فقدان المعلومات حول هذه الموضوعات سوف يستمر كثيرا. فمصادر دواوين محاكم التفتيش لهذا الموضوع كما هو الشأن لغيره من الموضوعات الأخرى، مكنتنا من تفاصيل مهمة وشعورنا أن الأسياد كانوا على الخصوص نهمين وعرفوا كيف يستمدون فائدة كبيرة من قلق الموريسكيين في محاولة منهم لاجتذاب كميات كبيرة من السيولة النقدية لفائدتهم، وهي الكميات الضرورية للمحافظة على نظام حياتهم المترف والمهلك الذي كانوا يعيشونه إلا أن أبحاثنا قد بينت لنا أن محاكم دواوين التفتيش قد استفادت هي الأخرى من ابتزاز الثروة الموريسكية، حيث كانت مبالغنا مرتفعة جدا. واليكم العناصر الأساسية لهذا الملف كما شرحتها وسمحت بها حسابات دواوين محاكم التفتيش ([2]).

اتفاقية سنة 1571 :

نحن نعلم أن الموريسكيين قد انتزعوا هذه الاتفاقية من محاكم التفتيش بعد صراع عنيف وعلى صدى أحداث غرناطة المقلقة. وفي الحقيقة فان محاكم التفتيش قد وجدت

A.H.N., Inq., leg. 4661.([2])

حسابها المتمثل في عدم ارتياحها لحجب القضايا التي لا تنتهي والتي كانت تؤدي إلى استصدار الأملاك، هذا وفي نفس الوقت انه ضمن هذه الدعاوي كان الأسياد عنصرا أساسيا فيها، وهذا ما يستوجب عدم إمكانية تجنب الفضائح الخطيرة والعنف المسلط والمصحوب دوما بالاستيلاء على الأملاك أو بيعها في المزاد العلني في القرى الموريسكية. وكانت الاتفاقية تنص على التسديد لمحاكم التفتيش 50.000 سيالدو (Sueldos)سنويا وهي العملة البلنسية، أي ما يعادل مبلغ 25000 ليبراس (Libras) لنفس العملة أو بصورة تقريبية 2375 دوكا قشتيلية، ويتم ذلك على دفعتين بنهاية شهر مارس وسبتمبر ومقابل ذلك ترفع استصدار أملاك الموريسكيين وهذا بالنسبة للموريسكيين أصحاب البدع والهرطقة، ما عدا غرامة واحدة بمبلغ 10 دوكا يمكن أن تسلط عليهم ويقع استخلاصها لتغطية صندوق الصدقات والأعمال الخيرية وبطلب من الجماعة، تم الاتفاق على أن تسدد هذه الضريبة مرة واحدة في أول شهر جانفي من كل سنة. وأول تسديد لهذا الأداء تم خلال النصف الأول من شهر جانفي سنة 1572. وعليه فإن كل جماعة موريسكية مكلفة بجمع هذه الضريبة من مواطنيها الذين يسددونها وفقا لثروتهم. ومنذ سنة 1572 حتى الطرد النهائي، فان المسيحيين الجدد من العرب قد سددوا وفقا لهذه الاتفاقية مبلغا عاما قدر بـــ: 90.250 دوكا أن الاتجاه القاضي بالاعتقاد بسرعة أن هذه الضريبة قد شكلت الجزء الأكبر من المال الموريسكي الذي دخل خزائن محاكم التفتيش، فهذا أمر غير صحيح. وإذا كانت هاته الاتفاقية تمثل بالفعل الجزء التنظيمي والأكثر يسرا لاستحصاله من محاكم التفتيش إلا أنها لم تكن الأكثر حجما وأهمية.

2 – صيغ التسديد الاخرى :

أولا : وجب إضافة العشرة دوكات التي يسددها كل موريسكي اتهم بالبدع وهذه الغرامة تمثل –إذا أخذنا بالاعتبار أن عدد الموريسكيين المتهمين للفترة المحددة من سنة 1566 إلى 1609 بلغ أربع عشر ألفا دوكا (14.000)، وهذا الرقم هو ولا شك اقل بكثير من الواقع، إلا أننا كنا قد شرحنا ذلك في دراسات أخرى، وعليه كان هناك 14.000 دوكا إضافية ومن جهة أخرى فان اتفاقية سنة 1571، لم تضع الموريسكيين التائبين في حمى فرض الغرامات المالية وقد بدأ لنا مهما معرفة المبلغ المتوسط لهذه الغرامات. نلخص هنا نتائج بحوثنا في الجدول التالي :

الجدول رقم 1 :

الفترة	عدد الموريسكيين الناشئين	المبالغ المجموعة	المعدل العام
1570-1563	92	3443	37.4
1581-1571	72	3501	48.6
1590-1581	88	2938	33.4
1599-1591	182	7130	39.1
1610-1600	167	4357	39.1
الجملة	601	21369	35.5

إن هذه الأرقام العامة لا تعطي فكرة عن طرفي النقيض ذات الدلالات المعينة وعليه فان 10% من هذه الغرامات لا تتعدى 8 دولارات في حين أن 5% كانت تسدد ما بين 100 و400 دوكا. وحالة واحدة سددت 500 دوكا ومن جهة أخرى، وجب أن نلفت الانتباه أن الغرامات النقدية قد فرضت اختياريا على نوعين من الأشخاص :

(Les Taqarinos) وهم المنحدرون من أراقون أما الآخرون فهم الذين كانوا مشاركين في أعمال المشاغبة والتي ألحقت كل شهود العيان أو عمال محاكم التفتيش أن هذه المميزات تشرح نسبية المعدلات العامة المرتفعة والتي سجلت خلال السنوات التالية 1571-1580 و 1591-1599، وهي المعدلات التي ترجمت عن فترات القمع والزجر والأعمال التخريبية وحيث تميزت بعنفها الشديد والتي تورط فيها عدد هام من الممثلين لجماعة (morerias) الصاخبة بتروال (De turuel) ووقا دو البراسين (Gea de Albarracin)وفقا لحسابنا إذن فان 72% من الموريسكيين التائبين قد سددوا غرامات كان معدلها العام ثلاث مرات أعلى من العقوبة المسلطة على التائبين وإذا أضفنا إلى هذه المبالغ، الغرامات المسلطة على الأسياد، أصدقاء الموريسكيين، وهي التي سددها في آخر لحظة المواطنون أنفسهم، فانه يظهر بشكل واضح أن محاكم التفتيش قد ابتزت من عقوبات التوبة على شكل نقد ضعفي الأموال المسددة من طرف الموريسكيين المتهمين بالبدع والهرطقة وليس هذا الأمر بكاف فان الفضيحة الملصقة باللباس المفروض نتيجة عدد من القرارات وكذلك النتائج الخطيرة التي يمكن أن تؤثر مباشرة على الحياة المهنية أو الخاصة للمحكوم عليهم كالطرد وهذا إذا لم نذكر الحكم بالتجديف، قد أدى بالمحكوم

عليهم أن يقترحوا على محاكم التفتيش، اتخاذ إجراءات تخفيفية· أن هذه الغرامات الخطيرة والشائنة على الخصوص يمكن لها أن تعوض بهبات تلقائية كان قد عرضها المحكوم عليهم على رأي الحكام إلا أن المجلس الأعلى لمحاكم التفتيش هو القادر على اخذ القرار حول ذلك تبعا لخصوصية كل ملف شخصي. إن هذه التسويات لا تهم فقط الأقليات الدينية ولكن أيضا المسيحيين القدامى. وقد استعمل المال لأغراض شتى، ففي سنة 1608 مثلا، التجأ مفتشو دواوين التحقيق بشكل موسع إلى هذا الفائض المالي للقيام بترميمات كبرى لسجن التوبة (3)· وقد عثرنا بالنسبة للسنوات 1570-1609 أثار ذلك في الثمانية والثمانين غرامة المتعلقة بالموريسكيين. وقد وصل المبلغ العام لهذه الهبات إلى 11.123 دوكا، والمعدل العام بمبلغ 126.4 دوكا. على أن تخفيف العقوبة المشطة طبقت على غرامة التجديف (حيث وصل مبلغها) حيث كان المبلغ لا يختلف طوال كل هذه الفترة، فقد وصل إلى 400 دوكا بالإضافة إلى عبد لم يقع تعميده بعد وهو صالح للتجديف عوضا عن المحكوم عليه· أما إذا تعذر توفير العبد يسدد مبلغ 100 دوكا إضافية لاشترائه بعد ذلك· أن تسعيرة العقوبات الأخرى اختلفت من حالة لأخرى وهي توازي بشكل واضح بدرجة مرتفعة ما تقدر عليه العائلات بعد إجراء محاكم التفتيش تحقيقا· وقد سمحت لنا تحرياتنا إقامة الحساب التالي: ما بين 20 و 30% من المحكوم عليهم بدرجات متفاوتة بسبب اتباعهم الدين المحمدي، قد استفادوا بتخفيف الأحكام عليهم وهذا ما يمكننا أن نجري تقويما عاليا وفي نفس الوقت أن نحصر المبالغ المسددة من طرف الموريسكيين خلال الفترة التي نحن بصدد دراستها· وحسب التقدير الأول، فان تحقيق الأحكام قد تجاوز المبلغ الضخم التالي: 124.380 دوكا. أما التقرير الثاني فقد وصل إلى مبلغ 82.920 دوكا· وعليه نأخذ بالاعتبار مبلغا كبيرا ومعقولا في حدود 000 100 دوكا. وهذا يمثل كما رأينا المبلغ المتحصل عليه سنة 1571، يفسر هذا الأمر بالهروب من عقوبة التجديف على السفن. وحيث كان الموريسكيون على استعداد لتسديد ما يعد بالفعل ثروة صغيرة وحقيقية وهذا كما يشرحه الجدول التالي :

الجدول رقم 2 :

العقوبات المخففة	عدد المحكوم عليهم	تقوميها عاليا	تقويمها منخفضا	المعدل العام	المجموع

(3) A.H.N., Inq., lib 935, fol. 124 r -134 r.

		(30%)	(30%)	المنخفض	
السفن	503	150	100	500	75.000 50.000
الأشغال الشاقة أو السجن	1.282	384	256	70	26.880 17920
اللباس	1.500	450	300	50	22.500 15.000
					124.380 82.920

إن هذه المبالغ هي بعملة الدوكا.

وبالتالي فإننا مستعدون أن نقدم تقريبا إجماليا ومعقولا للثروة الموريسكية المستولى عليها من محاكم التفتيش ما بين سنة 1566 و1609 :

جدول رقم 3 :

اتفاقية سنة 1571 الغرامات المسلطة على التأتبين العقوبات النقدية تخفيف العقوبات	90.250 دوكا 14.000 21.369 100.000
المجموع المعدل السنوي	225.619 5.127

وهذا ما يمثل 23% لمداخيل المحكمة وفقا للمعدل السنوي دائما على أن المناصب الكهنوتية والتي تمثل 18% لها مدخول سنوي متوسط. أما المداخيل الأخرى مثل الضرائب القارة إلى آخره فهي تجلب 11%.وهذا ما يمكن تفسيره بأن القصاص المفروض على بقية الأصناف الأخرى من المجرمين والمتمثلين في المسيحيين القدامى بالنسبة لهاته الفترة لا يمثل إلا 8% فقط من مداخيل محاكم التفتيش إلا أننا قد بينا أن محكمة التفتيش لبلنسية قد لاحقت بالنسبة للسنوات 1566 و1610، 74% و26% من

غير المسلمين، ويعني هذا أن الموريسكيين سددوا، نسبيا، ثماني مرات ما كان يسدده الآخرون (4).

وبصفة إجمالية إذا حذفنا الآن من المبلغ العام 250 90 دوكا التي تغطي الأداء المفروض سنة 1571 وحيث سدد كما ذكرنا ذلك، من طرف كل الموريسكيين والذين كان لهم ارتباط أولا مع محاكم التفتيش، فانه يبقى مبلغ 369 135 دوكا سددها فقط المحكوم عليهم، وهذا ما يمثل 60 قضية بمعدل سنوي بـــ: 51 لكل دعوى وإذا أضفنا إلى هذا المبلغ تكاليف الأسر والإقامة بالسجن، نستطيع أن نحدد مبلغ 100 دوكا بشكل تقريبي المتكلفة المتوسطة لمثول موريسكي أمام محاكم التفتيش.

ولنا أن نتساءل عما يمثل هذا الأمر بالنسبة لثروة المتعمدين الجدد ! إن معلوماتنا مع أسفنا الشديد سيئة للغاية والتقديرات العددية الإجمالية الوحيدة التي نملكها ترجع إلى فترة الطرد النهائي وتهم ممتلكات الموريسكيين في الأراضي الخاضعة للسلطة الملكية (5) إلا أننا لا نعرف شيئا عن الممتلكات التي بحوزة المسيحيين الجدد في مقاطعات الأسياد والتي على أرضها تعيش الأغلبية الساحقة للمتنصرين الجدد. ومن جهة أخرى فيما لا شك فيه أن اغلب الموريسكيين لهم أملاكا في الأراضي الملكية كما أن لهم أملاكا في مقاطعات

---

(4) إن هذه الحسابات لا تدخل ضمنها العقوبات المفروضة خلال الزيارات أو المبالغ الهامة عادة والتي منحت بادئ الأمر لدى نشر أوامر العفو.

(5) نعني بها دراسة بوفارير (Pau Ferrer)

Los Moriscos de la Corona de Aragon. La propiedad morisca en los realengos de Valencia en 1609,

وحرر رسالة جامعية ما زالت مرقونة نوقشت بتاريخ 10 ديسمبر 1981. وقد قدم المؤلف ملخصين لها ظهرا بنفس العنوان، أحدها في Pedralbes عدد 2، (1982)، ص 239-247. أما ثاني الملخصين فقد نشره مركز منشورات جامعة برشلونة سنة 1982 في 50ص. راجع لنفس المؤلف.

"La Propiedad morisca en los realengos valencianos", Les Morisques et leur temps, Paris, 1983, pp. 358-381.

وكذلك دراسته:

"El endeudamiento de los moriscos valencianos propietarios en los lugares de realengo en 1609", Religion, Identite et Sources Documentaires sur les Morisques Indalous, I. Tunis, 1984, pp. 281-300.

راجع أيضا انطلاقا من نفس الرصيد الوثائقي ما قام به يوجنو سسكار بلارياس (Eugenio Ciscar Pallares) عندما درس ديون المسيحيين القدامى مكان الموريسكيين سنة 1609:

"Prestamistas moriscos en Valencia", Cuadernos de Historia, 5 (1975), pp. 269-286.

الأسياد المجاورة وعلى الخصوص في أماكن إقامتهم ونتيجة لذلك فان التحليل الدقيق للثروة الموريسكية الذي وصل إلينا من مأموري الحسابات الملكية وفي أراضي الملك زمن الطرد النهائي، هو ولا شك تحليل جزئي، مع العلم انه ليس بمقدورنا أن نقيم ذلك الآن فقط كانت الديون على ثروة الموريسكيين تهم مملكة بلنسية القديمة وعلى أية حال إليكم ما توصلت إليه بحوث السيدان سزكار (Ciscar) وفارير (Ferrer) وحيث سمحوا لنا بتقدير ذلك وبشكل إجمالي فان ما يملكه الموريسكيون في الأراضي الملكية من عقارات في حدود 312.31 جنيه بلنسي. أما الديون المفروضة على هذه العقارات ارتفعت إلى مبلغ 66 498 جنيه، ونسبة الاستدانة لكل مالك بلغت 30% تقريبا أما المبالغ المستحقة للمسيحيين القدامى من الموريسكيين في كامل مملكة بلنسية القديمة، فقد وصلت إلى الرقم القياسي التالي: 197.679 جنيه أن هذه الأرقام لها دلالات مفيدة جدا، فهي بادئ الأمر تقضي فجأة على الأسطورة المصاحبة لها والمدعية بأن الموريسكيين يشكلون مجموعة لا أهمية لها في ثروة المملكة الشرقية المحترمة وعليه كان الواجب الوصول إلى عكس ذلك وبشكل خاص، كل شيء يذهب بنا إلى الاعتقاد بأن الادخار الموريسكي يشكل في بداية القرن السابع عشر آخر أمل للنجاة من أجل اقتصاد أرستقراطي متزعزع، كان عرضة للعراقيل والرهن، كما وضع بإشراف اكثر من عائلة معتبرة اجتماعيا تحت مراقبة قضائية ملكية.

إن المال لم يكن له في ذلك الوقت أي رائحة شأنه اليوم والأسياد باستطاعتهم أن يتظاهروا متسامحين لكل ما يتعلق بشؤون الدين، إذ كان ذلك في فائدتهم إلا انه وجب الآن أن ننظر إلى ذلك عن قرب فبو فارير (Pau Ferrer) قد تمكن من دراسة حالات 971 مالكان موريسكيان يستحوذون على مجموع 160.834 جنيه من العقارات وهو ما يعادل أكثر من 50% من المجموع على أن القيمة المتوسطة للملكيات التابعة لشخص واحد كانت في حدود ما يساوي 167 جنيه بلنسي، وهو مبلغ متواضع إلا أننا نلاحظ أن 688 من المالكين أي 70 من هاته العينة، لا يملكون إلا جزءا أو جزءين من الأرض، بالقيمة المتوسطة الإجمالية لـــ 90 جنيه وهذا ما يعني أن 30% الباقين يملكون عدة قطع تمثل معدلا متوسطا بمبلغ 350 جنيه لكل مالك.

ويبدو أن التركيز تم على عدد الموريسكيين وليس على الثروات الشخصية لعدد كبير منهم إلا أننا من جهة أخرى وجب أن نميز هذا الأمر.

وكما لاحظ اوجنيو سزكار (Eugenio Ciscar) وبوفارير (Pau Ferrer) من خلال دراساتهم لتفتيت الألقاب كان يختفي جغرافيا اكثر من مجموعة عائلية على الرغم من علاقاتهم الوطيدة، وهذا بالنسبة للسلطة الاقتصادية المتسمة بالتقدير والاحترام وأنه مما لا شك فيه أن أقلية تتمثل من 8 إلى 10% تستحوذ على إمكانيات ضخمة ولها علاقات صداقة هامة جدا وهي بالإضافة إلى ذلك تحوم حول البحر الأبيض المتوسط.

لقد عثرنا من جهتنا على آثار لذلك في الأوراق المالية لمحاكم التفتيش ببلنسية وهذا من خلال 22 كشاف اشتملت على ملكيات الموريسكيين امتدت من 1571 إلى 1590. وعلى الرغم من ضعف هذه العينة، فانه بمقدورنا أن نخاطر لنصل إلى بعض النتائج. أن هذه الكشافات تغطي مجمل المتهمين، والتي بلغ معدل قيمتها 838 جنيها إلا أن الغريب في الأمر أن 27% من المتهمين لهم أملاك تتجاوز قيمتها 2300 جنيه، وهذا في حين أن 73% الباقين يملكون ما بين 25 و610 جنيه. أن معدل القيمة لكل كشاف هي 215 جنيه، على أن فارق الثروة بين الأغلبية وما أطلق عليهم فيما بعد النخبة الموريسكية يوجد في هذه الحالة الثانية الهامة.

لنقارن النتائج التي تحصلنا عليها انطلاقا من الأرقام التي وفرها بوفارير لسنة 1609مع تلك التي وفرتها كشافات محاكم التحقيق للسنوات التالية: 1571-1590:

جدول رقم 4 :

	1	2	3	الفارق بين 2 و3
أ	167	350	90	3.8
ب	838	2500	215	11.8
الفارق بين أ وب	5	7.1	2.3	

أ= المحاسبات التي تمت انطلاقا من الأرقام التي قدمها بوفارير لسنة 1609.

ب= الحسابات التي أخذت من كشافات محاكم التفتيش (1571-1590)

1= المعدل العام للثروات (بالجنيهات)

=2 المعدل العام للأملاك العقارية لـــ 30% من الموريسكيين الأكثر غنى

=3 المعدل العام للأملاك العقارية لـــ 70% الباقين

أن الجنيه كان يساوي في أواخر القرن السادس عشر حوالي 0.90 دوكا.

أن الفرق بين أ وب بالنسبة للعمود 1 يفسر بكل سهولة بالأمر التالي، ذلك انه خلال سنة 1609 ليس لدينا إلا قيمة الأملاك العقارية الكائنة على الأراضي الملكية وعليه فان الفكرة القائلة بأن هذه الأملاك لا تمثل إلا خمس المعدل العام لثروة المالكين، تبدو لنا اكثر قبولا وإدراكا، إلا أن ذلك يفرض وضعية وشروطا مشابهة خلال الأربعين سنة، وهذا يعد احتمالا أقل قبولا وإدراكا ومع هذا فإن أساس حساب الصنف ب ضيق جدا لنصل إلى النتيجة القائلة بفقر الموريسكيين العام ما بين 1590 و1609 إلا أن هذا المظهر ليس هو الذي يهمنا جدا استخلاصه. أن الفــارق بين 2 و3 يبدو لنا، في الواقع اكثر المقارنات إيماء فهنا يهمنا بدرجة اقل أرقام لا تهم البتة مجموع الثروة لكل شخص والذي نستنتجه حسب رأينا وهو مشكوك فيه، هو هذا الانضمام الشديد للثروات والذي حضر في العقد الثامن من القرن السادس عشر وسنوات 1610 يؤدي هذا إلى الاستنتاج التالي والقاضي بذبول ومرض النخبة ؟ أننا نذهب إلى الاعتقاد في ذلك والأسباب عديدة ومقنعة وقوية. هنا أيضا فان أوراق محاكم التفتيش تقدم لنا إيضاحات هي ولا شك قيمة وشخصية إلا أنها مدققة جدا وظرفية وتسمح بتكوين رأي ما يوجد أولا المغادرون السريون نحو شمال إفريقيا أو الشرق. وبعد سنة 1580 فان الأطباء والفقهاء والصناع وأبناء العائلات الكبيرة أمثال : ازكياردو (Izquierdo) وبني نصر وشارين (Cherrin) غيرهم كثير، قد غادروا السواحل منذ صغرهم وأخذوا نتيجة لذلك بدليل هجرة أخرى سابقة وجماعية ويمكننا وصفها بأنها غير نخبوية إلا أن السلطات قد نجحت في تعطيل هذه الهجرة عبر البحر الأبيض المتوسط ثم وقفها عندما ألزمت الأسياد بذلك، وعززت مراقبة السواحل ودفعت بمجالس بلديات السواحل أن تقوم بحملة برية وبحرية. على أن الذي استخلص بعد سنة 1580، كان شيئا آخر، فالموريسكيون الذين عاشوا وضعية التوتر المتزايد عرضة لمضايقات محاكم التفتيش ونائب الملك، قد تحملوا بطريقة سيئة ثنائية لغة الأسياد والأساقفة، ونتيجة لذلك استفاقوا فجأة في أن نهاية الصبر قريبة جدا. ومن هنا فرض عليهم أحد الخيارين كلاهما مؤلم وممزق.

أما السبب الثاني فيسمح بشرح الفقر الظاهر للنخبة الموريسكية والذي يشكل في نفس الوقت موضوع هذه الدراسة أن ابتزاز النبلاء ومحاكم التفتيش إذا لم يكن وراء الثروة الموريسكية، فإنها قد نجحت على أية حال لضربها في القمة وما من شك أن استمرار هذا الأمر طويلا، قد أدى مع طول الزمن إلى أضعاف الهجوم الموريسكي ومنه إلى تلوين الإسلام بشبه الجزيرة تلوينا خاصا.

إن الوضعية سنة 1609 تبدو لنا إذن قد تغيرت كثيرا فالفارق الكبير الموجود خلال سنوات 1580 بين الأغنياء جدا والأقل ثراء يشكل بنسبة 70% من الموريسكيين العنصر الأساسي ومن ضمن 610 جنيها لأحد الموريسكيين، الأقل فقرا، ينتمي إلى مجموع الأغلبية و2300 جنيها لأقل الأغنياء يمثل الأقلية الموسرة، مع أننا لم نعثر على أية قيمة وسطية أن هذه الفجوة التي لا يمكن اجتيازها، تستحق منا كل تفكير وتأمل لأنها تشتمل على مخرج التعليل والشرح على أن كل شيء يذهب بنا إلى الاعتقاد انه يوجد في طي (morerias)الأكثر أهمية، مجموعة قليلة العدد من الموريسكيين الذين كانوا منظمين وقد وجدوا التشجيع والتعليم والتأييد من هاته المجموعة الذين يعتبرون بالفعل رؤساء حقيقيين للعقيدة، كما أن هؤلاء الرجال بفضل سمعة تقواهم الواسعة حينا وببطشهم في بعض الحالات الأخرى، كانوا من الأوائل الذين اهتموا بمحاكم التفتيش التي سعت في كل مرة، ولكن بدون نجاح، أن تجلبهم في المجتمع بدون مشاكل وهذا من الناحية الاقتصادية والاجتماعية، إذا أخذنا بالاعتبار ثروتهم ووضعهم المحلي والذي سوف يمر حتما من خلال ارتباطات دينية جديدة والأشنع من هذا هو التزامهم أن يعطوا المثال وبكلمة أخرى أن يتعاونوا وهذا ما وقع لبني الامير، حالة معروفة جدا، لشرين حيث كانت ثروة لورونزو شرين (Lorenzo Cherrin) قد قدرت بمبلغ 100.000 دوكا وقد عثرنا على قسم مصادرة أملاك دون هرنندو بني الأمير (Don Hernando Abenemir) الأخ والمشارك لدون كوسم (Don Cosme) المشهور وقد وصلت الديون لفائدة هارنندو سنة 1570 مبلغ 23.523 جنيه وهو ما يساوي 21.170 دوكا، وهو مبلغ حقيقي وهام جدا في تلك الفترة أن هذه الديون تعادل 75 مدينا، بمبلغ 6.313 جنيه لكل معدل ديون وهذا ما يضعنا في وضعية جد مشرفة وبعيدة كل البعد عن الصفقات الصغيرة التي تميز بها اقتصاد الإنقاذ الشعبي اليومي ومع هذا فان 28% من المال المقترض من طرف دون هارنندو قد اخذ من عدد من أعضاء الارستقراطية البلنسية على أن بقية الديون أخذت من بيع عدة أقساط من ملكية ارض –9 عمليات– من بيع الحرير بمبلغ 1750

جنيه والزيوت والجلد والصوف، والقمح، وقد أكد هارنندو في (Les tercias reales) بـ (Alpuente) أي بارضة وهذا ما يعني بيع ضيعاته الصغيرة· أن هذه العملية قد جلبت إليه سنة محاكمته 667 جنيه· وقد لوحظ بالإضافة إلى ذلك في الكشاف وجود ثلاث "منازل أساسية" أحدها ببلنسية وحيث كان يقيم هو في الطابق الشرفي، وقد اكترى البقية· أما المنزل الثاني فيوجد بشاطبة (Jativa) والثالث ببني سانو (Benisano) بني الأمير وهذا ما يترجم عن أسلوب معني للحياة· وقد ذكر أيضا في كشافات المصادرة وجود "كثير من الذهب والفضة والجواهر" وحتى اللآلئ و(Cens) وشجر التوت والزيتون قد زرعت بشاطبة وبني سانو· على أن هارنندو كان لديه على الأقل زوجتان وحيث لا نعلم شيئا عن الزوجة الشرعية والمعترف بها من طرف الكنيسة أما الثانية فهي فكتوريا فيلومينا (Victoria Filomena) والتي دعيت بالعبدة أو المحظية من طرف محاكم التفتيش. وقد ادعت هي نفسها اثناء محاكمتها بأنها أم أولاد دون هارنندو إن هؤلاء الأطفال قد طبقوا صفة دونا (Dona) ودون (Don) التي يحملهما أبوهم. وقد أكد ذلك شهود العيان ونظرا إلى أن الأطفال شرعيون، فإننا نستنتج بأن الوالدين متزوجان شرعا وأنها (more morisco)· وقد ذكر أحد شهود عيان أن فكتوريا فيلومينا كانت تخرج سافرة ومرتدية الحرير والذهب والجواهر وكأنها زوجة دون هارنندو وليس عبدة حررت (6) وفي الواقع فقد كانت عبدة ولدت بتونس في عائلة نبيلة موسرة وان أباها قاسم عزيز (Cacim Agez Aziz) كان أحد مستشاري الملك المتنفذين إلا أن مغامرات البحر الأبيض المتوسط قد استجلبها إلى صقلية حيث كان سنها عشرين سنة وقد تعمدت رغما عنها· ومن صقلية رحلت إلى قشتيلية القديمة حيث اشتراها أحد أعوان هارنندو لحساب سيده وجلبها إلى بني سانو· إلا أنها أحرقت حية بتاريخ 6 جويلية 1567 بسبب أنها أجنبية ومؤمنة جدا وتتمتع باستقلال في الرأي والحكم "وهذا ما جعلها لا تتمتع بتخفيف الظروف عليها ولأنها شكلت بالنسبة لمحاكم التفتيش حريفة سهلة للوصول إلى مجموعة الموريسكيين الأكثر غنى وحماية من طرف دون دو سيقورب (Duc de Segorbe)، وكان ذلك عندما ادعوا وفاءهم للدوك عندما قام بني الأمير بتسليم مواطنيهم إلى محاكم التفتيش وأثناء التصويت النهائي لقضية فكتوريا فيلومينا، فان أمر التحقيق هو الوحيد الذي اعترض على الموت، شارحا للمحققين أن المرتدين، أصيلي

---

(6) A.H.N., Inq., leg. 551, N 13 (1567).

الأراضي الإسلامية، وجب أن يعاملوا بحكمة" وهذا الأمر هو دون طوماس دي اوزيان (Don Tomas Osian)، اسقف ساساري بسردينيا رأيه يتماشى مع سياسة الدمج التي كان ينادي بها البابا والتي اتبعت بصفة عامة من طرف الكنيسة ودواوين محاكم التفتيش مشارف البحر الأبيض المتوسط الحدودية (7).

إن محققي بلنسية، لم يكونوا موافقين على هذا الرأي والمجلس الأعلى قد وافقهم في تحليلهم السياسي بالنسبة للشرق وشبه الجزيرة وكانوا يعملون على إضعاف العائلات الموريسكية الكبيرة، أحد المفاتح الجوهرية للمقاومة الوطنية لحديثي عهد بالتعميد واحد العناصر الأساسية لطبقة النبلاء في العهد الوسيط والتي لم تخضع لأحد.

إن الخطة المدروسة لهذا الغرض من طرف محاكم التفتيش لها هدفان يتمثلان في فضح النخبة وتفقيرها وكل أزمات 1580 المتعلقة بالكونت دوفوانت (Comte de Fuentes) وبأتباعه جيا اليراسين (Gea de Alabanau) أو قضية لورنزو بولو (Lorenzo Polo) تاروا (Teruel) وكذلك أيضا قضية ازكياردو (Izquierdo) سيقورب (Segorbe) وهذا دون أن نعرج لموضوع جيل باريز المقلق، قد دللت على هذه السياسة بكل وضوح على أن العائلات التي قاومت هذه السياسة، قد أضاعت أملاكها وشرفها وأبناءها نتيجة التزامها، أما العائلات التي تعاونت مع محاكم التفتيش فقد احتفظت بأملاكها، إلا أنها أضاعت ماء الوجه.

إن المعادلة الصعبة المتمثلة في المحافظة على السمعة لدى الأغلبية الكادحة للمجموعة قد أدى بالنخبة الموريسكية إلى سياسة خطيرة ذات حدين تتمثل في التعاون مع الأسياد والسلطة العثمانية المفروضة، كما رأينا، بحكم الواقع إلا أنها سوف تكون مهلكة تماما، خاصة عندما كان الأسياد محل تهديد من طرف الملك ومحاكم التفتيش، والذين اقتنعوا من جهة أخرى بموقف الموريسكيين المتقلب ولعل السببين معا كانا وراء سحب تأييدهم لأتباعهم الثائرين.

وفي نهاية هذا المطاف الطويل، لن نكون على استعداد للإجابة بصورة واضحة على السؤال المطروح ويمكننا أن نؤكد أن 70% من الموريسكيين، أو مبلغ 100 دوكا التي

---

(7) راجع Voir Anita Gozalez, ***Islam et Inquisition dans les îles espagnoles de la Méditerranée***,
رسالة جامعية مازالت مرقونة نوقشت ببوزنسون (Besancon) بتاريخ 14 فيفري 1987.

فرضها محاكم التفتيش، كانت مبلغا لا يطاق، يمثل بالنسبة لأكثر من النصف من هذا الصنف، جملة ما يملكون. ووفقا لحسابات مقتصد محاكم التفتيش فإن 30% من المنعزلين يدخلون السجن مفلسين وبأمتعتهم القديمة التي باعوها في المزاد العلني، وهذا لا يكفي لتغطية ثلث تكلفة الأكل فقط وعليه فإننا نرى كيف أن الأغنياء كانوا مجبرين على الدفع، له حتى بالنسبة لأغلبية الفقراء المدانين إلا بوضعنا هذا السلاح، سلاح المال، نؤكد أن محاكم التفتيش توفقت في استعماله بنجاح كبير جدا أن المخبرين الذين كانوا في خدمتها والذين يعرفون الأوساط الموريسكية ورؤساء الاسقفيات الجديدة والمندريون المقربون، كان جميعهم يذكرون انهم تحت وطأة خوف السقوط، تولدت ظاهرية التعاون الموريسكي على أمل كسب كل البيانات الأخرى.

نقله عن الفرنسية: د. عبد الجليل التميمي

الممارسات الإسلامية في مجابهة الطقوس المسيحية
في نصين لموريسكيين : إبراهيم الطيبلي وأحمد الحنفي

أ.د. ميكال دي ايبلزا
جامعة الياكانت-اسبانيا

تعريب: د. عبد الجليل التميمي

1- الوضعية الدينية للموريسكيين المطرودين في القرن السابع عشر :

إن الوضعية الدينية لموريسكيي إسبانيا قد تناولتها بإسهاب أقلام عديدة وعلى الخصوص منها أعمال لونقاس وكارديياك. وعلى الرغم من أنها بقيت بعد الطرد، غير معلومة تماما، فإن الأبحاث حول موريسكيي الأندلس بالبلاد التونسية وعلى الخصوص منها أعمال بيـــاري (Pieri) وبينالا (Penella) والهيلة، قد بينت ارتباط الموريسكيين العام بالإسلام وحاجاتهم لثقافة إسلامية وهذا بعد طول بقائهم تحت السيطرة المسيحية وحيث كان تخلي النخبة الإسلامية أثناء الفتوحات المسيحية ومساعي رجال الدين المسيحيين بعد التعميد القسري في أوائل القرن السادس عشر قد أدى إلى أن الثقافة الدينية لهؤلاء المسلمين بالبلاد التونسية، كانت، على أية حال، تختلف عن بقية مواطنيهم وهم التونسيون الأصليون.

وعليه فإن هؤلاء الموريسكيين يعرفون جيدا الدين المسيحي حيث دربوا عليه في مجتمع أغلبيته من المسيحيين. وقد شاركوا دوما في التأثيرات الاجتماعية المسيحية وهذا هو الأمر الذي أحست به النخبة التونسية الأصل وكذلك مجموعات مهاجري الأندلس، للعمل على استكمال وتطوير الثقافة الإسلامية لهؤلاء المسلمين، وحيث كان أغلبهم لا يعرف اللغة الإسبانية وعليه فإن هذا التعليم سوف يتم من خلال هاته اللغة في انتظار أن أبناء المهاجرين الذين يعرفون الإسبانية، سوف يتأقلمون مع اللغة العربية شأنهم في ذلك شأن المسلمين بالبلاد التونسية على أن الأمر لا يتعلق فقط بمشكل لغوي، فعقلية هؤلاء

المسلمين الإسبانيين كانت متشربة بالدين المسيحي، ونتيجة لذلك وجب تكييف تعليم الإسلام مع وضعية الموريسكيين العقلية التي كانت مصطبغة بالمسيحية.وقد نتج عن هذا الأمر مجادلة عنيفة ضد المسيحية والتي نعثر عليها في هذه النصوص الإسبانية والتي كان الهدف منها "تطهير هؤلاء المسلمين من كل التأثيرات التي تلقوها طواعية أو بالقوة من الوسط المسيحي الإسباني. إن هذه النصوص الإسبانية لهؤلاء المطرودين المسلمين وعلى الأخص نصوص إبراهيم الطيبلي وأحمد الحنفي تتمتع ولا شك بطابع بيداغوجي أساسي وهذا ما جعل حججهم سهلة جدا ودون أن نهمل، مع هذا، الأدلة العفوية المعقدة والتي كانت في متناول رجال الثقافة في إسبانيا الدينية خلال القرن السابع عشر. إلا أننا نعثر بالإضافة إلى ذلك في وضعية إبراهيم الطيبلي، على اهتمام أدبي كان يسعى أن يشاركه مع بقية مهاجري إسبانيا الذين كانوا يكتبون نصوصهم شعرا، وقد درس ذلك اليفيي آسين (Olivier Asin). ويمكن لنا أن نعتقد أن هذا الأمر كان المقصود به معاملة "فنية" من خلال الاهتمام البيداغوجي، غير أنه وجب ربط هذا الشعر بثقافة أدبية إسبانية محبة بالتدقيق والمراجعات.

2 - ابراهيم الطيبلي ودوره ككاتب وناشر للكتابات الموريسكية :

إن ما نعرفه الآن عن إبراهيم الطيبلي قد عرضه اليفي آسين وأنا شخصيا.ونصه الشعري الذي وعدنا به أوليفيي آسين حتى مماته، قد نشر في النهاية بعناية لوي فرننـــادو بارنابي بونــس (Luis-Fernando Bernabe-Pons) في إطار رسالة جامعية قدمت في جامعة اليكانت والتي سوف يعتني بنشرها معهد "فارنندو الكاثوليكي (Fernando) بسرقوس (Saragosse).

فابراهيم الطيبلي الأندلسي أصيل قرطبة والذي استقر بتستور، يعد في نفس الوقت كاتبا أصيلا وموزعا للإنتاج الذي حرره غيره من الكتاب. وقد اعترف في بعض الأحيان بمصادره: أما لكل ما يتعلق بأشعاره فقد ارتبط بشكل جلي بخوان اراقوناس (Juan Aragones)المقيم بتطوان وهو الذي حرر نص أحمد الحنفي ويمكن لنا أن نعطيه أهمية أخرى للدور الذي قام بِه في التحرير الأخير لأنجيل دي برنابي (Evangile de Barnabe).

3 - أحمد الحنفي ونفوذه لدى الأتراك- العثمانيين والأندلسيين بالبلاد التونسية :

إن بيوغرافية أحمد الحنفي التي كشفت لنا عنها الوثائق العربية والأوربية المتوفرة حاليا، تتفق على القول بأنه موريسكي غادر إسبانيا يافعا، بعد الطرد النهائي، وقد تبحر في العلوم الدينية في الوسط التركي ببورصة ثم غادرها ليستقر بعد ذلك بالبلاد التونسية صحبة عائلته التي طردت هي الأخرى من إسبانيا وقد مارس التعليم الفقهي والقضاء الأول بالبلاد التونسية أنه يعرف الإسبانية جيدا، إلا أنه يحتاج إلى مساعدة إبراهيم الطيبلي لتحرير نصه وحيث أصلحه على هوامشه بيد قليلة المهارة إذا قبلنا ما ذكره المخطوط (unicum) المحفوظ في الفاتيكان رقم 14009.

ويمكن لنا أن نؤكد كذلك أن هذا النص من تحرير كل من إبراهيم الطيبلي وأحمد الحنفي على أن دراسة مصطلحات النص اللغوية، المليئة بالكلمات ذات الأصل العربي مباشرة وكذلك حججه، تبين مدى الارتباط الواضح بين هذين المؤلفين المستقرين بالبلاد التونسية، واللذين كانا يخصصان كلاهما لهاته الحرص المشترك والمتمثل في رفع المستوى الثقافي الإسلامي لمواطنيهم المهاجرين، ورفض المعتقدات المسيحية المعارضة للعقيدة الإسلامية.

4 - الممارسات الإسلامية المعارضة للطقوس المسيحية :

أ- العموميات: وجب أن نلاحظ بادئ الأمر أن البيانات حول الممارسات الإسلامية لم تعرض وفقا للنظام التقليدي كما ينص عليه الدين والفقه الإسلامي ويمنحانها عادة لمثل هذه الممارسات المفروض أنها تمثل أشياء معروفة. أن هذا العرض سوف يتم وفقا للممارسات والطقوس المسيحية على أن هذا يهدف للوصول إلى التجربة الدينية المسيحية، كما هي معروفة من طرف المسلمين الذين عاشوا في وسط مسيحي وتحملوا حصص الإرشاد ووعظ كنيسة إسبانيا إلا أنه وجب القول أن وصف ورفض الطقوس المسيحية المعارضة للتعاليم والقواعد الإسلامية، تمثل مكانة أقل في هذه النصوص من المجابهات النظرية حول طبيعة الخالق والمسيح.

إن هذا الفرق في معالجة المعتقدات المسيحية يفسر بأسباب مختلفة وقبل كل شيء فإن الله هو الغاية من كل الممارسات والطقوس الدينية، وذاته وطبيعة هذه الأفعال لها الأولوية المنطقية على الطقوس نفسها أن الإيمان بالله وبوحدانيته –المعارضة للمعتقدات التثليثية المسيحية– يشكل هو الآخر، جزءا من بداية الممارسات الدينية الإسلامية : كالشهادة أو ممارسة العقيدة أن الصراعات الجدلية التي تبدو في الظاهر نظرية للمراقب المسيحي

تتمثل في الواقع عملا أساسيا للعقيدة وهو أمر طويل ودقيق جدا، وماذا يجب أن يفعله المسلم تجاه التعبير المسيحي للمعتقدات التي يراها مخالفة للعقيدة وهو أمر طويل ودقيق جدا، وماذا يجب أن يفعله المسلم تجاه التعبير المسيحي للمعتقدات التي يراها مخالفة للعقيدة الإسلامية أما المسلم فهو مدعو هنا أن يبرهن وبعمق عن عقيدته. وقد قام من خلال معاهدة جدلية حيث فند وبإسهاب كل بنود المعتقدات المسيحية واحدة بعد الأخرى: حول طبيعة الخالق والمسيح. إن هذه المناقشة الجدلية والإيمان بالعقيدة يمثلان ممارسة إسلامية، وهو الأمر الذي جعل الموريسكيين المشبعين بروح الجدال الإسلامي-المسيحي، يؤدونها بعناية. إن مظهر العنف في الهجومات الموجهة ضد المعتقدات يتمثل في تأكيد أقوى وسلبي للعنصر الإيجابي للمعتقدات الإسلامية وعليه وجب عدم إغفال أن ممارسة الدين الإسلامي يعبر عنه هو الآخر بطريقة سلبية "لا اله إلا الله".

ولتحديد أهمية المناقشات اللاهوتية في هذه النصوص، وجب أيضا الأخذ بالاعتبار التجربة الإسلامية الطويلة في الجدال ضد المسيحيين (أمثال عبد الله الترجمان، هذا الرجل الديني-الإسباني-الإسلامي والمستقر بتونس قرنين قبل وصول الموريسكيين، وحيث كان هؤلاء قد قرءوا وثمنوا كتاباته وعملوا على ترجمة كتابه العربي إلى اللغة التركية، لتقديمه كهدية إلى السلطان العثماني). إن الكتاب الموريسكيين بإمكانهم أن يستفيدوا من السنة بعدة مواضيع أكثر سهولة ويسرا لمجابهتها ضد الطقوس والممارسات المسيحية وبالإضافة إلى ذلك، فقد كانوا، بفضل ثقافتهم الإسبانية، متعودين على المناقشات التصورية والفلسفية واللاهوتية وحيث كان مسيحيو إسبانيا يستعملون ذلك استعمالا واسعا في الحياة الثقافية والدينية للقرن السابع عشر كما وجب ملاحظة أصالة جدال الموريسكيين بالنسبة للمجادلات الإسلامية ضد المسيحيين في العصور الوسطى: على أن حججهم هي في بعض الأحيان ثمرة تجربة عاشوها وتفكير شخصي. لقد ذكرنا ذلك بالنسبة لعبد الله الترجمان (اسمه انسلم طورميدا) (Anselm Turnada). وهذا ما يشكل نتيجة لمجابهة تمت بين التجربة الدينية الإسلامية والمعتقدات المسيحية. وأخيرا وجب علينا أيضا أن نفهم كيف أن الرفض الإسلامي لبعض المعتقدات المسيحية ينبع من سوء فهم منهم أو من رفض مطلق : وهو المتعلق بالمفهوم المسيحي للخلاص من خلال المسيح، أو الخطيئة الأصلية والخطايا الشخصية: وهذا الخلاص قد تحقق من أسرار الكنيسة ووفقا للعقيدة المسيحية. إن هذه الملاحظات لا تدخل عامة في تقدير للفكرة الإسلامية للكتاب الموريسكيين، في حين أنها تعتبر أساسية في منطق المعتقدات والطقوس المسيحية.

ب- المفارقات الأساسية :

إن الجدال الديني للمؤلفين المسلمين التونسيين في اللغة الإسبانية قد جابه الممارسات الإسلامية مع الممارسات المسيحية في إطار يعمل معه إدراك الطقوس المسيحية والممارسات الإسلامية ويمكننا أن نقيم بصورة مبسطة والى أقصى حد التطورات التي تحتل عدة صفحات من النصوص، المفارقات التالية :

-التعميد المسيحي مقابل الختان الإسلامي مع مثال المسيح الذي عمد من طرف "المعمداني" في حين كان الاثنان مختونين من قبل، وعليه فإن على المسيحيين أن يختتنوا شأنهم في ذلك شأن المسيح.

-الماء المقدس الذي استعمله المسيحيون وضع مقابل ممارسات الطهارة بالنسبة للماء لدى المسلمين (طهارة، غسل ووضوء).

-اشتهر القداس لدى المسلمين بأنه عمل غير معقول ووضع مقابل الصلوات الإسلامية الخمس اليومية، وفي بعض الأحيان فإن صلاة الجمعة الإسلامية وضعت مقابل "الحمد الرباني المسيحي".

-الاعتراف بالتوبة المسيحية مقابل العفو الإلهي الإسلامي (الغفران) مع تقديم حجج ضد دور الوسيط للقساوسة والذي يشبه إلى حد كبير دور البروتستانت ضد الكاثوليكيين خلال القرن السادس عشر.

-عادات الزواج المسيحي مقابل الزواج المسلم قد وضعت هي الأخرى تحت الدرس وعلى الخصوص لكل ما يتعلق بالعزوبة الكنسية وإمكانية الطلاق وتعدد الزوجات وقرابة الزوجين.

-الكتابات المسيحية التي اعتبرت كاذبة وخاطئة من طرف تلاميذ المسيح وعلى رأسهم بول (Paul) مقابل القرآن الذي اعتبر عنصرا أساسيا للمجادلة، كما وجد في عدة مواضيع جدلية أخرى.

-سلطة الكنيسة بالنسبة للديانة المسيحية وعلى الخصوص سلطة البابا لدى المذهب الكاثوليكي لتغيير الطقوس الدينية وأسرار القربان المقدس، كانت هاته السلطة قد انتقدت، وبالنسبة لهذه النصوص، فإن الحدث الوحيد المتمثل في التنقيحات التي أدخلت على

التاريخ المسيحي، يعد حجة ضد مصدرها الإلهي، وهي تتعارض مع الممارسات الإسلامية، النابعة من وحي القرآن.

وأخيرا فإن رسم القسيس في عملية التمثيل للتعاليم المسيحية قد انتقدت بشدة في هذه المجادلات واعتبرت كوساطة لا تغتفر لحركة إلهية ولعلاقات المؤمن مع الخالق.

لقد ذكر مرارا الأصل البروتستانتي لأدلة الموريسكيين الجدلية ضد كثلكية إسبانيا المسيحية خلال القرن السادس عشر. وفي مجال الأسرار المسيحية، فإن هذا التأثير كان واضحا جدا وهذا خلافا لمعتقدات العقيدة والتي تستند أساسا لأهمية حججها إلى التقليد الجدلي الإسلامي ضد المسيحية خلال العصور الوسطى.

أ.د. ميكال دي ايبلزا
جامعة الياكانت-إسبانيا

تعريب: د. عبد الجليل التميمي

أ. د. لوي كاردياك
جامعة مونبيلي فرنسا

لما كنت مهتما قبل سنوات بالنصوص الجدلية الموريسكية ضد المسيحيين، خصصت في كتابي عشر صفحات لظاهرة التكهن عند الموريسكيين (1) ثم قادتني منذ ذلك الحين، مطالعة بعض المؤلفات العامة من جهة ككتاب "الخوف في الغرب" La peur en Occident لجان ديليمو (Jean Delumeau) (2) وبعض المقالات المتخصصة من جهة أخرى كمقالات ألان ميلهو (Alain Milhou) (3) إلى التعمق في التفكير حول هذه النقطة وهذه بعض الأفكار التي أريد عرضها في نطاق هذا المؤتمر الذي جعل هدفه الأول البحث عن الهوية الموريسكية.

---

(1) راجع الطبعة الثانية لهذا النص لدى منشورات المؤسسة.
Cardaillac, Louis, Morisques et chrétiens, Klincksiecl, pp. 49-59, pp. 401-407 (1 et pp. 407-414, 1977 (نقحرة لاحدى التكهنات الموريسيكة).
راجع الترجمة العربية لكتابنا والتي قام بها د. عبد الجليل التميمي "الموريسكيون الاندلسيون والمسيحيون : المجابهة الجدلية " منشورات سيرمدي، الطبعة الثانية، زغوان 1989.

(2) Delumequ, Jean, La peur en Occident (XIVeme-XVIIème siècles), Paris, Fayard, 1987.
خاصة الباب السادس من الجزء الثاني. كما انه من المفيد قراءة كتاب : N. Cohin, Les Fanatiques de l'Apocalypse, Paris, Payot, 1983. (طبعة منقحة ومزيدة).

(3) Milhou (Alain), "De la destruction de l'Espagne à la destruction des Indes: histoire sacrée et combats idéologiques", Etudes sur l'impact culturel du Nouveau Monde, Séminaire Interuniversitaire sur l'Amérique espagnole coloniale, Paris, Editions l'Harmattan, 1982, tome, I, pp. 25-47.
ومن نفس المؤلف : "La chauve-Souris, le nouveau David et le roi caché (trois images de l'Empereur des derniers temps dans le monde ibérique, XIIIe - XVIIe siècles" Mélanges de la Casa de Velazquez, tome XVIII, 1982, pp. 61-78.

لنحدد قبل كل شيء معنى هذه الظاهرة، ثم لنتعرض إلى أهميتها، فهي في كل مكان عنصر أساسي للواقع الديني، بما أنها تفترض أن العمل الإنساني يقع في حضرة الله، يعلم كل شيء وهو خالد، بينما المخلوق البشري في ظرف زمني معين ويمكن لهذا الله أن يكشف تدابير عنايته على مجرى الأحداث وأن يكشف مصير الإنسانية وخاصة مصير شعبه المختار إلى بعض المخلوقات التي يختارها ومن بين هذه التكهنات، ما ينتمي للمعتقدات الصحيحة، لكن الأديان لها أيضا نصوصها المزيفة ولا أهتم اليوم بهذا الفرق لأن وجهة النظر ليست بوجهة نظر رجل الدين بل المؤرخ الذي لا يهمل، أي نص من النصوص التي يمكن أن تعينه على فهم العقلية، وسوف يقتصر دور المؤرخ في هذه الحالة، على تأويل النصوص للوصول إلى معرفة أشمل بالمجموعات التي أنتجتها.

وقد تعاقبت بالذات في إسبانيا في القرن السادس عشر وفي بداية القرن السابع عشر تكهنات عديدة وتكهنات معاكسة لها حول تدمير إسبانيا كما يراه الموريسكيون وتدمير الإسلام كما يفكر فيه المسيحيون فالنصوص هي حينئذ صادرة عن جانبين مضادين لنشير، بالإضافة إلى ذلك ومن جهة نظر منهجية، إلى أهمية المصادر التي نملكها والتي تنحصر، للتكهنات الموريسكية في النصوص التي كتبها الموريسكيون أو على الأقل التي ترجموها من العربية من جهة، وفي الشهادات الإضافية الصادرة عن المسيحيين والتي نجدها هي الأخرى، إما في قضايا محاكم التفتيش أو في الروايات الواردة عن مدوني أخبار الطرد وخاصة منهم بليدة (Bleda) وقوادالاخارا إي كزافيي (Guadalajara y Xavier) وأزنار كادونا (Aznar Cardona) من جهة أخرى (4).

---

(4) Aznar Cardona (Pedro), Expultión justificada de los Moriscos españoles y suma de las excellencias de nuestro rey don Felipe el Catolico Tercero deste nombre, Huesca, Pedro Cabarte, 1612.

Guadalajara Y Xavier (Fray Marcos de) Memorable expultion y justisimo de los Moriscos de Espana, Pamplona, Nicolas de Assiayn, 1613.

Guadalajara Y Javier (Fray Morcos de) Memorable expulsión y justisimo destierro de los Moriscos de España, Pamplona, Nicolas de Assiayn, 1614.

Bleda (Jaime), Coronica de los Moriscos de España, Valencia, Felipe Mey, 1618.

وللدخول في صلب الموضوع، سأعرض عليكم استشهادا طويلا، اقتبسته من كتاب قوادالاخارا إي كزافيي لسنة 1616، والخاص بمراسلة كتبها أحد الموريسكيين الغرناطيين الذي أطرد إلى مدينة الجزائر والمسمى مولينا (Molina) إلى أحد سكان مدينة تروخيلو (Trujillo) الاسبانية دون خيرونيمو دي لويزا (Don Gerónima de Loaysa)) (5).

غير أننا لا نعرف مع الأسف هذه الرسالة إلا عن طريق النص الذي نقله لنا قوادلاخارا، ومع ذلك فاني أقول بأن البيانات الدقيقة التي تحتوي عليها والخاصة مثلا بما يتعلق بمرور الموريسكيين إلى اللنغدوك (Languedoc) بفرنسا أو إلى ايطاليا، أو المقارنة التي يمكن القيام بها حول بعض النقاط مع مصادر أخرى، تدفعنا إلى الاعتقاد بصحتها. وإليكم المقطع الذي يهمنا : "لتعتقد فضيلتك وأن الطرد لم يكن من عمل ملك إسبانيا، بل هو ناتج عن وحي إلهي. فلقد رأيت هنا بالفعل تكهنات ترجع إلى أكثر من ألف سنة تنبئ بما سوف يقع لنا : وكنت أقرأ فيها بأن الله سوف يخرجنا من بلادكم ومن أجل ذلك سوف يغرس هذه الفكرة في عقل الملك وعقول مستشاريه، وأن عددا كبيرا من ذوينا سوف يهلكون برا وبحرا، وباختصار كل ما حدث فعلا كما تنص هذه التكهنات على أن الله سوف يأخذ على حسابه أقل إهانة تصيبنا وسوف يبعث ملكا يفرض، بكلمة اللّه وحدها، سيطرته على العالم كله، وتعجز عنه الحصار والمدافع. وهناك أشياء أخرى كثيرة لا أريد أن أذكرها هنا لكي لا أطيل. كما رأيت تكهنا آخر لمنجم بلنسي وقع نقله من بلنسية في نفس هذه السنة. إذن إن هذا الطرد هو معجزة حقيقية، فهو طرد لخرفان وديعة، كادحة ومجردة من السلاح من قبل ذئاب ضارية غادرة. إنها معجزة حقيقية تلك التي تجعل بإمكان النعاج المسالمة أن تقيم وسط الذئاب الجشعة. لكن صدقني، إني لا أكتب هذا تحت الانفعال الناتج عن صدمة الإهانة، وإنما بنفس العقلية، كما لو كنت في إسبانيا، فلم إجبارنا هنا على القيام بأي عمل روحي أو مادي مخالف لما كنا عليه، وسوف أكون مسرورا لو قرأتم تكهنات القديس ايزيدور (Saint-Isidore) "الجزائر في 25 جويلية 1611".

ويثير هذا النص جوابا من قبل قوادالاخارا الذي ينقله وهذا الجواب جدلي. ولدينا إذا هنا حالة جديدة لعصر ما بعد الطرد. ولكن هناك حالات أخرى : فقد ذكرت مثلا في مقام

---

(5) Guadalajara Y Javier, Production y distierro..., **op. cit.**, f 75 v - 80 r.

آخر مجادلة تطور في تونس بين أحد الموريسكيين وأسير مسيحي. ويوجد النص الموريسكي في روما في مكتبة الفاتيكان والنص المسيحي الموافق في المكتبة الوطنية بباريس ([6]). ويجيب قوادالاخارا على هذا الموريسكي حول نقطة فيكتب ما يلي : "إن هذا الملك الذي يهددنا به الموريسكي، يقول القديس ايزيدور بأنه سوف يذهب إلى بيت المقدس وسوف يموت هناك. إما أنه سوف ينتصر بكلمة الله وحدها، فهذا حساب مخطئ بالنسبة للمسلمين".

ويلخص قوادالاخارا هذه المجادلة بعد ذلك بقوله : "لا يقدر الموريسكيون على فهم التكهنات المسيحية، لأن ذكاءهم المنحرف لا يمكن أن يؤدي بهم إلا إلى التأويلات الخاطئة". ثم يضيف إن : "هذا البعث لاسبانيا كان قد تنبأ به العديد من القديسين والرجال المشهورين، الذين حدّدوا عهده، ومن بينهم مطران إشبيلية المقدس ايزيدور الذي قرأه الموريسكيون، لكن بدون أن يفهموه، لأن الحقيقة الثابتة هو أن التنبؤات الإلهية لا تتماشى وانحراف ذكاء أبناء الغضب". وكانت لأقدم المنجمين والفقهاء والسحرة الموريسكيين نفس التكهنات زمن احتلال مملكتنا. وقد وجدوا عن طريق الكواكب وعن طريق كهنتهم المزيفين، بأن هذا الاحتلال سوف يدوم إلى سنة 1610، عندما يحصل التطابق بين ما يدعون وتنبؤات القديس ايزيدور".

وهذان النصان المتناقضان اللذان أريد تحليلهما، هي محاولة كيف تظهر الهوية الموريسكية تجاه المسيحيين من خلال ظاهرة التكهن هذه. وسوف أوضح قولي بالاعتماد على نصوص أخرى، سوف أذكرها فيما بعد. وعليه نرى إذا أن الموريسكي يثبت هويته تجاه المسيحيين بإثبات شخصه ككائن متعلق بالدين أساسا، فيضع قدره في مخطط مقرر سلفا من عند الله لصالح مجموعته. وحتى لو بدا له بأن المظاهر هي التي تثبت أن العدو هو المسير للأحداث والصانع للتاريخ، فلا بد من تجاوز هذه النظرة السطحية للأحداث. فالطرد ليس بانتصار لفيليب الثالث، وما هزيمة الموريسكيين إلا لحظة من المحن

([6]) المقصود بذلك المخطوط رقم 49 الموجود بالمكتبة الوطنية بباريس تحت عنوان : Tratado de la defensa de la Santa Fe catélica christiana, respondiendo a los argumentos que de nuestras sagradas escrituras nos opone et Mahometano.

يجيب هذا النص الجدلي نقطة نقطة على حجج الحنفي (Al - Hanafi) (ms 14009 de la Biblioteca Vaticana).

الضرورية التي تنبئ بمستقبل ملؤه الأمل. فأمام الخوف الشديد المرتبط بالظرف الحاضر، يخلق التكهن حركية جديدة . إن رؤية التاريخ الموريسكي تبدو إذا كما يلي : هناك حلقة أولى هي قرن من المحن وسط المسيحيين. أما قمة هذه المحن، فتتمثل في عملية الطرد وظروفه المأساوية. لكن منذ تلك اللحظة بدأت الحلقة الثانية أي إقامة الموريسكيين بالأراضي الإسلامية : وسوف تتجلى هناك بكل وضوح الهوية الموريسكية، لا فقط ببعدها عن كل ضغط بل وأيضا بفضل الانتصار النهائي على المسيحية بعد تصادم جديد. وسوف يبعث الله ملكا يسيطر على الأرض كلها. ويؤول التكهن إذا إلى الاعتقاد في المسيح، وفي عديد من النصوص تبدو اللغة التركية "الأمل الأكبر للموريسكيين" ([7]).

وتتجلى هذه الهوية الموريسكية في خطاب متأصل بصفة جذرية في عصره وأبعد ما يكون عن المجانية. فليس الموريسكي مسلما كجميع الآخرين بل شخصا كان يعتنق الديانة المسيحية بصفة رسمية ويشارك، أحب أم كره، في حياة المجتمع المسيحي ويبني شخصيته في ظروف تطغى عليها التنازعات والتناقضات. وهذه النصوص التكهنية (التي لا بد من إحصائها ودرسها بعمق في يوم من الأيام) تعكس حقيقة تاريخية مضبوطة : هي أنها تعبر عن مجتمع متنازع يعيش في وضعية متأزمة· وتتجلى ظاهرة التكهن إذا عند الموريسكيين وكذلك أيضا في مجتمعات أخرى مختلفة تماما، في وقت يحدث فيه ارتجاج مستديم في العقول، وتغلب فيه اللاعقلانية على التفكير المنطقي، وليس من باب الصدفة تكاثر هذه النصوص في أراغون وبلنسية وغرناطة أي في المناطق التي كان فيها الإسلام أشد تأثرا وفي الفترات التي بلغ فيها توتر العلاقات بين المجموعتين حدّه الأقصى، خاصة زمن الثورات الموريسكية المختلفة وفي زمن الطرد وتعبر هذه النصوص عن قلق كبير تجاه القدر المشترك، ويظهر ذلك في جو "انتهاء العالم" الذي تصوره البعض من هذه التكهنات ([8]). وسوف تأتي فترة السعادة الطويلة المعلنة، لتعوض هذا القلق. وبينما يشعر الناس بشبه الحصار، هاهم يبصرون عبر الحائط منفذا نحو الحرية.

([7]) انظر : Cardaillac (Louis), "Le Turc suprème espoir des Morisques", in, **Actes du 1er congrès d'histoire et de civilisation du Maghreb**, tome 1, Tunis, 1979, pp. 37 – 46.

([8]) من الجانب المسيحي يتوقع ازناركاردونا (Aznar Cardona) الذي يدعي ذكر تكهنات من اصل عربي، بان المسلمين سوف يهزمون ويؤسرون حتى يوم القيامة "هذا ما يعلمه العرب انفسهم وهم خبراء في علم الطبيعة كـ (Hali) والفرابي (Alpharabio) والقابسي (Alcabicio) وابو مصار

وهكذا يصير التكهن حركية تثير الطاقات. وأبعد من الانتظار الأخروي، يعبر الموريسكيون في هذه النصوص المتعلقة بالنكبة، عن أملهم في الأخذ بالثأر بتدخل إلهي. فهل هناك ضمان أحسن من الكلمة الإلهية بصدد هذا الأمل وهذا ما يعبر عنه المطرود مولينا (Molina) في النص الذي ذكرته أعلاه.

ينسب هذا التكهن أحيانا إلى النبي محمد نفسه، حيث يظهره في قالب حديث. وقد جاء في بعض الروايات التي بلغت إلى علم محكمة التفتيش بطليطلة بواسطة أحد الموريسكيين أن النبي محمدا، بكى ذات يوم، فلما سأله أصحابه عن أسباب حزنه أجاب قائلا : "لأنه سيأتي يوم يحتل فيه المسلمون أرض المسيحيين ثم يأتي يوم آخر، يسترجع فيه المسيحيون هذه الأرض، وبعدما يسترجعون غرناطة، سوف يفرضون المسيحية على المسلمين ويلحقون بهم الأذى ويعرضونهم إلى عذاب النار" ([9]). لكن النبي بين هنا بكل دقة أن هذا العذاب ستكون له نهاية طيبة حيث سيأتي فجأة محرّر لا بد من الاعتراف به. وهذه النصوص كما قلت، تعبر عن الهوية الموريسكية تجاه المسيحيين، أي أنها نصوص ذات صبغة جدلية، وإن الموريسكي سوف يظهر فيها شخصيته المناضلة. وقد نجد في الواقع في هذه التكهنات كل الخاصيات المميزة للنصوص الجدلية، فالهدف هو في نفس الوقت، إبراز التفوق للوضعية الشخصية وتحقير وضعية العدو. ويريد الموريسكي أن يقلب لصالحه وضعية قد تكون معاكسة له مؤقتا. وفي رسالة الموريسكي وأيضا في تعليق قوادالاخارا، نكتشف في نفس المحاولة : إذا كان الموريسكي يعتبر نفسه المترجم الوحيد للإرادة الإلهية، فإن المسيحي لا يحترم نبي الموريسكيين، بل يضعه على نفس المستوى الذي يضع عليه المنجمين والسحرة. أما نبي المسيحيين، فهو طبعا في مكانة القديسين وذوي المقام الرفيع. وكذلك على مستوى الحجج، فإننا نجد نفس الخاصيات التي تميز المخطوطات الجدلية : أي عدم التردد في استعمال الوسائل مهما كانت، كنصوص العدو التي تذكر في مثل هذه الحالات وتستغل لصالح النظرية التي يراد الدفاع عنها، كما هو

(Abumacar) الذين يقولون بان الامبراطورية الاسبانية سوف تسيطر على الامبراطورية التركية وتؤسر كل من ينتمي إلى دين محمد وكل الأتراك وذلك حتى ظهور المسيح يوم القيامة" ، Aznar Cardona, op. cit., II, f 144 v.

كما يذكر قوادالاجرا (Guadalajara) في كتابه: Prodicion..., op.cit., f 17 r .

"الانهيار والخراب التام للملة المحمدية قبل انتهاء الالفية".

(9) **Archivo Histórico Naciónal**, leg. 197, n° 16.

الشأن بالنسبة لتكهنات القديس إيزيدور التي كثيرا ما قرأها الموريسكيون واستعملوها، حيث نجدها بالألخميادو في المخطوط 774 الموجود بالمكتبة الوطنية بباريس. وقد نشر هذا النص مرتين : الأولى من طرف لينكولن (Lincon) والثانية في كتاب حديث جدا من المجموعة المخصصة للأدب الألخميادو والتي يديرها أ. قلماس دي فوانتيس A. (Galmes de Fuentes) .([10])

وأحيانا نجد حجة تداول في المجادلة تتمثل في التهمة الموجهة للمسيحيين بتزوير النصوص التكهنية (المسماة "القواثياس" او"خفوراس" Jofores - Alguacias) لجعلها تتلاءم مع قضيتهم وقد كتب بيخرانو (Bejarano) الموريسكي المطرود والمجادل الكبير هنا في تونس في سنة 1635، بخصوص هذه النصوص ما يلي : "إن المسيحيين كذبوا في ذلك وأضافوا الكثير من الأكاذيب الأخرى، لأنني قرأت هذا النص نفسه في كتاب هنا في تونس، مترجم إلى العربية، لا يحتوي على هذه الأكاذيب المضافة" .([11])

فنحن إذا أمام شخصية موريسكية تكونت عبر السنين تجاه المسيحيين وفي حضرتهم. وهذه البطاقة الوصفية الموريسكية التي نحاول رسمها، تعكس فقط تعاقب الأجيال من الرجال في إسبانيا خلال القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر بعد أجيال أجدادهم المسلمين. والحقيقة أن كل واحد منهم عاش في نطاق فرديته وحسب أسلوبه هذا التواجد الفعلي مع المجموعة المسيحية الأصلية. فالشيء الذي نحاول إثباته حينئذ هو بكل بساطة تلك الاتجاهات الكبرى لهذه الشخصية مع تجاوز اختلاف الوضعيات والأمكنة والفترات التاريخية المعينة.

---

(10) Lincoln (Joseph), "Alijamiado Prophecies", Publication of the Modern Language Association, L II, 1937, pp. 631 - 644.

Sanchez Alavez (Mercedes), El manuscrito miscelaneo 774 de la Bibliothèque Nationale de Paris, Colección de Literatura Aljamiado Morisca, dirigida por Alvaro Galmès de Fuentes, Editorial Gredos, Madrid, 1982, pp. 243 et suivantes: Prophétie de Saint Isidore, et pp. 246 et suivantes: Planto de España (Lamentation sur l'Espagne

(11) هذا المخطوط (m D 565) الموجود بالمكتبة الجامعية ببلونيا (ايطاليا) وقعت دراسته من طرف :

Juan Penella Roma, Los Moriscos españoles emigrados al Norte de Africa después de la expulsión, Barcelone, polycopie, 3 volumes.

فقد كون الموريسكي إذا شخصيته في حضرة المسيحيين. ومن المؤكد أن المجموعتين اللتين عاشتا جنبا إلى جنب بصفة متداخلة طيلة العشرات من السنين، لا يمكن إلا أن تؤثر الواحدة على الأخرى، وأحيانا بصفة لا شعورية. ولا شك أن المجموعة التي لها الأقلية هي التي تتأثر أكثر من الأخرى بحكم المنقوص.

ومن الجدير بالملاحظة فعلا، أن نجد، إذا ما رجعنا إلى النصوص التكهنية، عند المسيحيين وأيضا عند الموريسكيين، نفس التصور الاستدلالي ونفس الأداة اللغوية وأولا نفس التصور الاستدلالي، الذي يدعي ببعث إمبراطورية عظيمة بعد تحطيمها المؤقت ([12]). وسوف يكون للأشخاص وللأمكنة، في نطاق هذا التصور التاريخي، ومن الجهتين، نظائر متطابقة، ويظهر ذلك في حالة انتظار شعب لشخص فوق طبيعي سوف يتمكن حسب الموريسكيين من تجميع عنف المضطهدين، حيث يتقمص التدمير ليفتح بواسطة عصر طويل من السلم. ونجد نفس الانتظار عند المسيحيين، لكن في اتجاه معاكس كما سنراه.

ومن الثابت أن "بلانتو" (Planto) القديس إيزيدور يروي خرافة الملك المختفي، ولكن ظهور هذا الملك من جديد هو أسطورة إيبيرية قديمة، تنتمي إلى مجموعة الأساطير الأوروبية وهي شائعة أيضا في بلدان المغرب. وسوف يعرّف الموريسكيون والمسيحيون، كل حسب طريقته، بهذا الملك المنقذ. فإن كان هذا الملك المسمى "الانكوبيارتو" (-El Encubierto) يشبه، بالنسبة للمسيحيين، تارة دون خوان (Don Juan) ملك النمسا، وتارة فليب الثالث (Fhilippe III) ([13])، فهو أيضا ملقب بداوود الجديد، حيث أن داوود هو أكبر ملك لعصر الأب المسيح وإن داوود الجديد هو مسيح عصر الابن على

([12]) في المقالة المذكورة : Milhou (Alain), "De la destruction de l'Espagne..."، حلل الكتاب بصفة جيدة هذا التصور التاريخي الأساسي الذي ينطبق تماما على نصوصنا.

([13]) يوجد دون بيدرو ديزا (Don Pedro Deza) إلى رئيس محكمة التفتيش بغرناطة بتاريخ 29 جانفي 1572 تقريرا ليطلعه على بعض التكهنات التي تخص اسبانيا · وقد نقرأ فيه : "ان الانكوبيارتو (Encubierto) سوف يأتي بالنجاة للمسيحيين ولكنه سوف يبيد ذرية هاجر (Agar) "· وفي مكان آخر : "ان الانكابيارتو يسمى اوسترو (Austro)"،
Archives de l'Inquisition de l'Institut Valencia de don Juan, Envoi I

الوجه الأكمل، ولافتتاح عهد (الألف سنة) الذي يمثل سلطان الروح ينتظر بــروز داوود جديد تماما سوف تتجسم فيه، في نفس الوقت، السلطتان الزمنية والروحية ([14]).

أما من الناحية الموريسكية، فهناك كثير من النصوص تخبرنا عن الهويــة المحتملــة لهذا الملك الذي يمكن أن يكون "الزمن الماضي في معركة ضد جيش الملــك دون جــام (Don Jaime) أو ذلك "السيد الكبير" الذي كان منتظرا قبيــل الطــرد نفســه ليأخــذ الموريسكيين تحت حمايته، ويمكنهم من عبور أزمنة المحنة بأكثر سهولة ([15]). ونجــد إذا في المعسكرين هذا الانتظار لشخص غير عادي، سوف يقــود انــدفاعات الشــعب إلــى الانتصار النهائي كما أن هناك نفس الانتظار الضمني لتدمير العالم والذي سوف يفضــي، بعد عدة محن، إلى الإنقاذ العام. فــ"الخلاصية" المسيحية تطابق "الخلاصية" الإســلامية : أشخاص بنفس الدور وفي وضعية متناظرة أولا ثم تطابق بين الأماكن الرمزيــة، ســوف يقع احتلال الأرض من جديد وسوف تغني بعض الأمكنة الرمزية انتصار معسكر علــى آخر.

وفي المخطوطة 18 للأكاديمية الملكية للتاريخ بمدريد، نجد هذه العبارة تعاد مرتين : "ستجعل تحت سلطتك سطح الأرض من المشرق إلى المغرب" ونجد في إحدى الإعادتين هذه العبارة الواضحة جدا والتي زيدت للعبارة الأولى : "وسوف يناول جواده "الهرطمان" على هيكل بيار وبول (Pierre - Paul) وسوف يذهب إلى القسطنطينية لكي يتــوج"، فتلعب روما والقسطنطينية هنا، دورهما تماما كأمكنة رمزية.

كما نجد في هذا النص الذي نشرته في مقام آخر بعد نقله ([16]) اللعبة الجدليــة بــين الهلاك الأبدي والتدمير من جهة وبين البعث والإنقاذ من جهة أخرى. وهذا النص ينحدر، كما نلاحظ، مباشرة من تكهنات القديس إيزيدور حيث نجد العبارة المرددة المذكورة أعلاه والتي سيستعملها المطرود مولينا في رسالته. كما نجد أيضا عنــد المســيحيين تصــورا استدلاليا مشابها وذكرا للأمكنة الرمزية. فليس هناك أي تردد في البحث في التراث نفسه عن الاستشهادات التي يمكن أن تعلن عن نهاية الإسلام في إسبانيا. فــإذا كانــت إســبانيا

---

(14) انظر : Milhou (Alain), "La chauve-Souris..." art, cit., pp. 67-75

(15) انظر : Aznar Cardona, Expulsión justificada..., **op. cit.**, II, f r, et Guadalajara, Memorable expusión..., **op. cit.**, f 51 r

(16) Cardaillac, Morisques.., **op. cit.**, pp. 401-406.

بالنسبة إلى أزناركاردونا (Oznar Cardona) قد ذهبت إلى الهلاك من جراء الاحتلال الإسلامي، فسوف تنتهي هذه الوضعية بطرد الموريسكي الأخير الذي سوف يجسم هزيمة الإسلام وبعث إسبانيا. فهذا الانهيار للإسلام الايبيري الذي يمثل الهزيمة التامة، يبدو أنه جاء في تكهنات النبي داوود الذي كتب في المزمور 82 (ضد أعداء إسرائيل) : "Adnihilum devenient tanquam aqua recurrens" ويجد ازنار (Aznar) هنا أسلوب الجيلين السابقين (وهو يستشهد أيضا بالـ "-Anti Alcoran" لبيراز دي شنشون (Peres de Chinchon) ليبين أن الكتب المقدسة كانت تنبئ بطرد الموريسكيين على يدي فيليب الثالث وبمحق العالم الإسلامي. ثم يذكر نصا آخر ينبئ بتدمير مكة ([17]). ويقول إن هذه التكهنات تنص على عهد جديد وشيك الحلول سوف يغدق على المسيحية وعلى إسبانيا خاصة "العميم من الخيرات الروحية والمادية والرخاء وامتلاك الأراضي الجديدة والأمطار الغزيرة بالعديد من النعم السماوية" ثم تتويجا لكل ذلك يتم "احتلال الأراضي المقدسة وبيت المقدس وهذه عملية جليلة لا يمكن أن تعهد إلا لمثل هذا الملك" ([18]).

وقبل أن نختم لا بد من توضيح نقطة أخيرة هي أن الموريسكيين والمسيحيين كانوا يستعملون نفس الأدوات اللغوية ونفس الأساطير (مثل أسطورة الملك المختفي وأسطورة تدمير مدينة العدو المقدسة الخ ···) وأيضا نفس التصورات التي ترجع إلى نفس الأصل أي الكتب السماوية وقد رأينا كيف أن المطرود مولينا (Molina) ذكر وجود خروفين وسط الذئاب الجارحة، الأمر الذي يكاد أن يكون من قبيل المعجزة. فمن المهم أن نبحث هنا عن تأثير رؤيا القديس يوحنا الذي غذى على ما يبدو هذه النصوص برموزه وصوره وذلك بالنسبة للمؤلفين المسيحيين والمؤلفين الموريسكيين في نفس الوقت، فالخروف هو رمز الشعب المختار تجاه حيوانات أخرى خاصة منها التنين والوحش اللذان يمثلان السلطان ([19]).

---

(17) Aznar Cardona, Expulsión justificada.., **op. cit.**, II, f 145 r.

(18) Ut Supra, f 140 r a f 143 v.

(19) ينمي بليدا (Bleda) هذه المؤلفات الرمزية حول الحيوانات بذكر تكهنات القديس فانسون فريار (Saint Vincent Ferrier) الذي تنبأ حسب ما يقال بان الناس سوف يسمعون في سنة 1609 "خوارا عظيما" لثور. ويرمز بذلك حسب بليدا إلى اعلان الدوق دي لارما (Duc de Lerma) عن

والواقع أن هذه اللغة كانت مرتبطة بتصورات مشتركة عن نهاية العالم وعن النصوص التكهنية التي تهمنا والتي نرى فيها، محق الأمم الملحدة (أي التي لم ينزل عليها وحي الرسالة الإلهية أو التي أبت أن تعترف بصحتها) وانتصار الخوف على الوحش لألف سنة، فكلمة الله هي التي تخرج منتصرة، وسوف يخلف العالم الجديد العالم القديم أي عالم البكاء والعويل والهموم. فهو انتصار المدينة المقدسة، بيت المقدس تلك المسيحية والموحدية التي "سوف تسير الأمم بنورها". وهكذا نأتي إلى توضيح خاصية أخرى لهوية الموريسكي : فهو شخص سائر في طريق التأقلم الاجتماعي والثقافي. ولكي يعبر عن شخصيته المميزة، لا بد من المرور في القالب الثقافي المحيط به والذي يرفضه أساسا بالرغم من أنه يعيش داخله.

وليس هذا أصغر التناقضات في حياته. فلا يمكن إذا أن نعزل الموريسكي عن عصره وعن المكان الذي يعيش فيه، إذا أردنا أن نفهم المشكلة الموريسكية وندرك حقيقة هذه الهوية إدراكا عميقا. فمعرفة العالم المسيحي القديم بأكثر عمقا، تمكننا من إلمام أكبر بالحقيقة الموريسكية. كما أن الدراسة الجدية لنصوص الموريسكيين تمكننا من معرفة أعمق بإسبانيا في القرنين السادس عشر والسابع عشر. ولكن الموريسكي ليس مجرد نسخة سلبية لصورة المسيحي ولا العكس بالعكس، وإنما هو مسلم يعيش في بلد معين وفي زمن معين، يعيش في وسط مسيحي بوضع قانوني "مسيحي جديد" فهو إذا شخصية معقدة جدا مكنتنا النصوص التكهنية من معرفة معالمها حيث نقلت لنا أعمق وأدل الأحلام لشعب كان حريصا على الحفاظ على هويته.

د. لوي كارדياك

جامعة المكسيك

تعريب

د. عبد الجليل التميمي

قرار الطرد. ويوضح بان هذا الخوار سوف تسمعه كل الكلاب المسعورة "كل الكلاب المسعورة التي تفر من وجود الأسد"، Bleda, Córonica..., **op. cit.**, 932-933

د. فانسون بارنار
معهد الدراسات العليا – باريس

"إن الذي يفقد لغته العربية، يفقد في نفس الوقت دينه "هذا ما ذكره الغرناطي في رسالة وجهها إلى مسلمي شمال إفريقيا أثناء انتفاضة الموريسكيين بالبشرات وعليه فإننا لا نستطيع أن نؤكد بصورة أفضل من هذه، على أهمية المحافظة على اللغة الأصلية لمجموعة بشرية تعتبر نفسها في صراع ومجابهة ضد كل أنواع القمع والاضطهاد وبالتالي فان هذا يمس مباشرة حياتها ووجودها تماما، فاللغة تعد أداة مهمة للمجابهة بين الأقلية المهددة بضياع ذاتيتها والمجتمع المهيمن الذي يسعى لدمجها مستعملا لذلك كل الوسائل ثم ألم يتم تبعا لبعض الظروف، العمل على إبعاد الأطفال من محيطهم العائلي حتى ينسوا لغتهم الأساسية أو بطريقة مباشرة منع استعمال الموريسكيين الغرناطيين استعمال اللغة العربية سنة 1566 ونفس هذا الأمر بالنسبة للموريسكيين البلنسيين سنة 1567.

إننا نعلم أن الإجراءات "التثاقفية" وطبيعة المبادلات الضرورية مع المسيحيين القدامى قد أفسدت ولا شك على الموريسكيين معرفتهم للغة العربية، ولكن بصورة متفاوتة، ففي سنوات 1580، ذكر أحد التقارير عن موريسكي بلنسية ما يلي: كلهم عرب ولم يتخلوا قطّ عن هويّتهم ونحن نرى مثلا أن سكّان بلد الوليد (Vallodolid) الّذين عاشوا منذ أمد بعيد بين النصـــارى وفقدوا لغتهم العربيّة، هم أكثر عروبة من أهالي بلاد البربر (شمال إفريقيا).

كما أن قاضي مدينة القراز (Alcaraz) لاحظ سنة 1577 أن الموريسكيين الذين طردوا من مملكة غرناطة واستقروا في دائرة منطقته "كانوا يتكلمون لغتهم ومن الصّعب استلابها منهم رغم أنّي (أي القاضي) سأعمل جاهدا في سبيل ذلك".

وبصفة عامة، يذهب إلى الاعتقاد اليوم أن البلنسيين والغرناطيين قد حافظوا على استعمال اللغة العربية أثناء طردهم النهائي سنة 1609 وهذا على العكس من القشتيليين الذين فقدوها إلا أن تأكيداتنا بالنسبة للأراقونيين غير واضحة ودقيقة على أن الدراسات التاريخية تقليديا، قد قبلت النظرية القائلة بأن الأراقونيين قد حافظوا قليلا على اللغة العربية، إلا أنه توجد مؤشرات لمجهودات ضخمة قد أنجزت للمحافظة على استعمال اللغة العربية، ويبقي السؤال مطروحا إلى أي مدى قد وفقوا في ذلك ؟

يمكن أن تؤكد مثل هذه الآراء العامة يوما ما، وهذا على الرغم من وجود بعض الفروق الدقيقة والتي تميزت أساسا بطابع الإدراك السليم إلا أنها في الوقت الحاضر تعتبر فقط فرضيات وجب التحري فيها وفي ضوء ذلك فانه آن الأوان أن تهتم وبشكل مكثّف بالدراسات المحلية وهذا انطلاقا من أن حقيقة الوضع بمدينة كانديا (Candia) غيره بمدينة كوكنتانيا (Cocantania) أو إن الوضع بمدينة قادس (Cadis) هو نفس الأمر بمدينة هواقير (Huercar) هذا ما يستوجب في المستقبل تعدد الدراسات وتجميع كل عناصر الموضوع.

إن الاعتماد على وثائق محاكم التفتيش التي أصبحت اليوم مفروضة، توفر لنا إمكانيات كبيرة في هذا الميدان فاللغويون والمؤرخون باستطاعتهم الاستفادة من ملفات وتحريات محاكم التفتيش الغنية جدا والتي جمعت في الأرشيفات التاريخية الوطنية بمدريد وهي باستطاعتها أن تقدم لنا تفسيرا لمسألتين أساسيتين : وتتعلقان بأيّ اللغات كان الموريسكيون يتفاهمون ويتخاطبون وما هي المميزات الأساسية الصوتية أو اللهجات العربية التي كانوا يستعملونها إن هاتين المسألتين كانتا مجال عدة دراسات تمهيدية لكل ما يتعلق فقط بموريسكيي بلنسية، وحيث كانت تلك الدراسات متطورة جدا إذا قورنت بالدراسات المتعلقة بالغرناطيين أو الأراقونيين وقد اشتغل عليهم بالتوالي كل من د. هارفي (L.Harvey) وكارمن بارسلو (Carmen Barcelo) وانا لابرتا (Anna La Parta) وقد قدموا إيضاحات حول مميزات اللهجة العربية التي كان يستعملها البلنسيون أما جوان فستر (Joan Fuster) ودولور برامون (Delors Bramon) وريكاردو قارسيا كارسال (Ricardo Garcia-Carcel) وميكال دي ايبالزا (Mikel De Epalza) ومن جديد آنا لابرتا وكارمن بارملو، فقد اهتموا باللغات المختلفة التي كان يعرفها المسيحيون الجدد وانطلاقا من ذلك، سوف أقدم في إطار

هذا البحث عددا من الوثائق الجديدة والتي من شأنها أن تشرح لنا المسألة الثانية بفضل التحريات التي أجريناها في وثائق محاكم التفتيش الثرية جدا. أننا نعلم أنه في عديد المرات خلال القرن الرابع عشر، استفاد الموريسكيون بمراسيم عفو، قضت بعدم ملاحقتهم للممارسات الإسلامية التي يمارسونها قبل ذلك، وكان عليهم مسبقا الاعتراف بذلك لدى حاكم التفتيش إلا أننا كباحثين لم نعثر البتة على أثر لمثل هذه الاعترافات التي انتزعت من المسيحيين الجدد في مثل هذه الظروف، وقد عثرت آنا لابرتا وأنا شخصيا، كل بطريقته الخاصة، على دفتر الاعترافات التي تغطي سني 1569-1574 والمتعلق بموريسكيي عدة قرى بجنوب لاهوارتا (Lahuerta) ببلنسية : كارلت (Carlit) وبني مودو (Benimodo) وبني مسلم (Benimuslem) والسيرة (Alcira).

إن الاستفادة من هذه الوثائق التي لا نجد نظيرا لها على الإطلاق، سوف يتم على المدى البعيد، إلا انه باستطاعتنا الآن تقديم النتائج الأولية التالية :

توجد نظريا أربع لغات معروفة من طرف الموريسكيين البلنسيين : اللغة العربية والبربرية والقشتيلية والبلنسية. وعلى الرغم من ذلك، فانه يحتمل أن تكون اللغة البربرية غير مستعملة تماما. ولم يعثر كل من كارمن بارسلو وانا لابرتا على أي نص بريدي حتى يومنا هذا. وفي دراسة ظهرت مؤخرا حول استعمال العربية والبربرية بالأندلس، استخلص الباحث جاسنتو بوش-فيلا (Jacinto Boch-Vila) أن "العربية هي اللغة الثقافية وأن البربرية هي فقط تترجم عن الحركية-الثقافية" كما أننا لم نعثر على أي مؤشر على وجود لهجة بربرية لدى موريسكيين جنوب لاهوراتا ببلنسية.

أما لكل ما يتعلق بالعربية، فهذا أمر آخر فمحاضر الموريسكيين البلنسيين الذين مثلوا أمام محاكم التفتيش، قد تركت لنا مجموعة من الوثائق المحررة بالعربية، في حين أن النصوص الألخميادية المحررة باللغة القشتيلية أو الكاتالانية والتي استعملت الحروف العربية، تبدو نادرة في هذه المحاضر وبالنسبة لآنا لابرتا "انه من الممكن أن تكون ظاهرة الالخميادوا قد استعملت ببلنسية لأداء الطقوس المسيحية فحسب ذلك أنّ الموريسكيين حافظوا في هذه المملكة وحتّى طردهم على العربيّة، لغة التخاطب والكتابة بينهم".

إن هذه الحقيقة التي تختلف كثيرا عن تلك التي تتعلق بالموريسكيين الأراقونيين وحيث توفرت لدينا عنهم نصوص الخميادو عديدة، وقد تم تداولها مع الرؤية الكمية والتي حاولت القيام بها بالنسبة للقرى التالية : كارلت وبني مودو وبني مسلم.

إن كل واحدة من هذه القرى الثلاث لها مميزات خاصة، فكارلت بها مجموعة سكنية مختلطة، وهذا خلافا لقرية بني مودو وبني مسلم اللتين احتلتا فقط من طرف الموريسكيين فبني مسلم تعد أصغر المجموعات حيث بلغ سكانها من مائة إلى مائة وعشرين نسمة وبني مودو لم تبلغ بعد رقم ثلاثمائة نسمة إلا أن كارلت بدت وكأنها قرية كبيرة تضم الآلاف نسمة أن التحريات التي أجرتها محاكم التفتيش، ووجب القول ما تبقى لنا، يسمح لنا بالتعرف على أي اللغات كان يستعملها 519 موريسكي و45 من بني مسلم و111 من بني مودو و363 من كارلات وقد وجب القول أن هذه العينات كانت ممثلة للمجموعات الثلاث وأنها تناولت في الحالات الثلاث، أكثر من نصف المجموعة السكنية البالغة سن الرشد (من الحادي عشر إلى التسعين) التي خضعت للتحقيق من طرف محاكم التفتيش.

كذلك فان توزيع السكان وفقا للجنس هو الآخر أصبح متوازيا وإذا كان عدد النساء البالغ 283، يمثل الأغلبية، فان الرجال يمثلون على أية حال 45 % من مجموع الأشخاص المعينين هنا في التحقيق وقد بين المحقق بمناسبة كل اعتراف لسكان كارلات وبني مودو، ما إذ كان ضروريا اللجوء إلى خدمات المترجمين (Nofre Hervas).

عدم اللجوء إلى خدمات المترجم		اللجوء إلى خدمات المترجم		
ذكر	**أنثى**	**ذكر**	**أنثى**	**القرية**
3	152	208	–	
3	59+14 = 73	27+49 = 76	2	كارلات Carlet
20	25	–	–	بني مودو Beni modo
26	= 250 236+14	= 284 27+257	2	بني مسلم Ben muslem

إن غياب رجال ونساء بني مسلم والذين يحتاجون إلى مترجمين، تفسيره وتعليله، ذلك أن السكان الذين خضعوا إلى عملية "تثقيفية"، لا يحتاجون حتما إلى مترجمين والجدول

الذي وضعناه انطلاقا من عدد من المعطيات، يترجم عن جملة من المفارقات الواضحة. فالحاجة إلى مترجمين غير وارد بالنسبة لبني مسلم خاصة، وكذلك بالنسبة للموريسكيين الذكور بكارلات، وعلى العكس من ذلك فان المترجم كان ضروريا بالنسبة لكل النساء للقريتين، أي 211 من 217 وهو ما يعادل 97 % ولم يستثن منهن إلا عددا ضئيل من النساء الشابات لهن من الأعمار ما بين 14 و28 و40 سنة بمقدورهن الرد على استفسارات المفتشين دون اللجوء إلى مترجم، وكما نصت عليه الوثيقة فان السيدة كاتالينا قرفة (Querfe) التي لها من العمر 30 سنة "ليس لها مترجم لأنها تتكلم الألخميادية" إلا أننا نلاحظ أن واحدة منها وهي ماريا (Maria) زوجة جوم بالي (Jaume Pelle) لم تكن أصيلة بني مودو ولكنها أصيلة مانيز (Manise).

د. فنسان برنـــار

تعريب: د. عبد الجليل التميمي

الخط العربي : كتعبير لرمز مقدس
في النصوص الألخاميادو – الموريسكية

د. نجيب بن جميع
كلية الآداب – منوبة

تعريب : د. عبد الجليل التميمي

لقد منح الموريسكيون للتاريخ الإسباني والأمة الإسلامية أحد الأمثلة على بطولتهم الدينية وإيمانهم الراسخ ومقاومتهم لسياسة الاندماج والتثقيف السياسي والتعميد القسري.

وقد أثارت هذه المجموعة البشرية اهتماما كبيرا لدى المؤرخين، فثورة البشرات سنة 1568 أو الطرد النهائي سنة 1609-1614، كانا باستمرار أحد المحاور المفضلة للباحثين المعاصرين وهاتان الفترتان ذات الطابع المأساوي الحاد، قد عرفنا تطورا دقيقا، ذلك أننا تجاوزنا مرحلة المجادلة لنبدأ مرحلة علمية. ودراسات ج – ريقلا (J. Regal) أو هـ. لابير (H. Lapere) تعدان أحد الأمثلة الدالة على ذلك.

إن الدراسات عن تاريخ الموريسكيين – الأندلسيين تعددت في أماكن عديدة من العالم، وقد تم ذلك بفضل تنظيم مؤتمرات دولية في أوفيادو (Oviedo) واليكانت (Aliccante) (إسبانيا) ومونبليي (Montpellier) (فرنسا) وتونس. والواقع فإن تونس التي تشكل بلد استقبال المجموعة الموريسكية المطرودة، تحتضن اليوم مركزا متخصصا في دراسات "الموريسكولوجي" قد تم ذلك بفضل حيوية ونفاذ رأي الأستاذ عبد الجليل التميمي الذي استطاع أن يجمع على نفس طاولة النقاش، عددا من الباحثين على اختلاف توجهاتهم الفكرية المتباينة في إطار مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، لمناقشة قضايا الدين والمصادر الوثائقية المتعلقة بالموريسكيين (وقد تمّ هذا المؤتمر سنة 1983) ثم المائدة المستديرة العالمية الأولى حول الأدب الألخميادو (سنة 1984) وتطبيق الموريسكيين الأندلسيين للشعائر الإسلامية خلال القرن السادس عشر وحتى طردهم النهائي سنة 1609 (وهو المؤتمر العالمي الثالث الذي عقد سنة 1987).

وقد ترجمت هذه الدراسات عن إشكالية معقدة، وهذا ما جعل الإسلام الذي يمثل دينا يرتبط بإيمان عميق جدا، له مظاهره على مستوى الممارسات اليومية، وحيث نلمس الحواجز بين الديني والدنيوي، ذلك أن القرآن يعد تشريعا للسلوك الشخصي وكذلك للمجتمع وهو عبارة عن رؤية دقيقة ومجهرية للعالم.

فالقرآن أعطى للخط العربي بعدا ذاتيا وهذا ما جعل الموريسكيين يستنبطونه، على الرغم من السرية التي مارسها للحفاظ على تراثهم الثقافي الهام. وهذا التراث لم نقم بالتعرف على حدوده أو إمكانياته العديدة. وهذا الأمر يعد فصلا جديدا في الآداب العربية – الإسبانية. على أن دراسة الأدب الألخميادو وتحليله سوف يساعدانا على إلقاء الأضواء على تاريخ العقيدة والممارسات الإسلامية طيلة قرون من التعايش والصراع. وهذا الموضوع يشكل مصدرا وثائقيا هاما، لأنه يعد المدافع عن التراث الفكري العربي – الإسلامي المحكوم عليه بالإعدام من طرف سلط محاكم التفتيش، ومن جهة أخرى يعد هذا الأصل، رمزا للمحافظة على الهوية الدينية المهددة بالزوال. كما شكل أيضا جبهة معارضة سعت للتوفيق بين العقيدة الإسلامية وبين أعضاء الجماعة التي كانت تعتمد تاريخيا، ليس فقط على الفقه ولكن أيضا على الخط الذي يعتبر شيئا مقدسا.

1 – اللغة العربية : كمرجع فكري أساسي :

قبل ظهور الإسلام كان البدو يحترمون جدا سعة وغنى الكلمة في وسط اتسم بكثافة الصحاري اللانهائية. إن الشاعر والخطيب كان يتمتعان بنفوذ مطلق لا يعرف الحدود. وكان مصدر المعرفة وفصاحة البدو تتميز بالحكمة. إن اللغة العربية بفضل سحرها وطلاقتها واستلهاماتها تحمل في طياتها علامات التفوق والسمو. وعليه فإن وحي القرآن في لغة هؤلاء البدو قد أعطى للعربية قوة ميتافيزيقية تجلت في هذا الإنتاج الأمين الذي صدر عن الرسول نفسه خلال لحظات النشوة والإعجاب.

وفي هذه الفترة الزمنية أي منذ 1300 سنة، كان الرسول محمد (صلعم) يقرأ سورة القرآن التي أنزلت عليه باللغة العربية الفصحى. وكان ربط بين اللغة والعقيدة الإسلامية الجديدة برباط قوي لمستقبل اللغة العربية. فالإتقان اللغوي والإعجاز كان لهما مضمون في ضمير كل المؤمنين. واللغة العربية التي كانت لغة الإمبراطورية الإسلامية ولغة الله تعالى القدير، قد اكتسبت صفة الرمز والمرجع اللغوي للعالم العربي – الإسلامي الثقافي والروحي.

وبنفس هذه الصورة، فإن التنزيل المسيحي هو الآخر مثل كلمة الله كما عبرت عنها الكتابات المقدسة. فالمسيح ابن عبد الله قد شبه بالكلمة التي تجسمت في كمال القوة. وهذا هو درس الإنجيل القديم الذي بين كيف أن الله قد أوحى لموسى التوراة. إلا أن هذا الاسم لم يكن واحدا، بل هو تأكيد للوجود، وهي صيغة كلامية تعني بكل وضوح : الهو. وعليه فإن الكلمة الإلهية التي تعتبر كلمة استلهمت من عند الله، سوف تبقى جامدة في إطار الفوارق الإنسانية. وقد وجب على المسلم أن يخدم ربه وذلك باحترام ربه وذلك باحترام كلمة الخالق.

وهذه تضمن النظام في ظل الشفقة وفي حدود كلمة الأعجمي (أي الأجنبي) والتي تبناها الموريسكيون للدلالة على اللغة الإسبانية التي هي لغة الكفار.

2 – الخط العربي : تركيز على نظام مقدس :

يوجد هذا الشعور بالدنيوي مجسما في الأعجمية من خلال استبدال الخط العربي بالخط اللاتيني، وهو الأمر الذي أجبر عليه الموريسكيون. ولا شك أن اللغة العربية بثرائها في قواعد الصواست (توجد 28 قاعدة) وعلى الرغم من فقرها الصوتي والمتعلق بـــ A.U.I فإنها مدعوة أن تنتج نصوصا إسبانية. ونفس الأمر بالنسبة لليهود الإسبان الذين التجؤوا إلى العربية لكتابة النصوص الإسبانية والبرتغالية.

هل وجب منح استعمال الخط العربي بالنسبة للموريسكيين والعبرية بالنسبة لليهود الإسبان، قيمة رمزية للكتابة المقدسة ؟

إن الرسول (صلعم) على الخصوص منذ تولي الخلفاء الراشدين قد وضع القرآن في مأمن من التحريف والتبديل وتم ذلك بالنسبة للخط وهذا خوفا أن يكون التراث متوفقا على استمرارية الإنسان. إن الخط يعمل على تركيز الكلمة، كلمة الله سبحانه وتعالى ؛ وهي في نفس الوقت أمانة بمقدورها الانتظام في ما لا نهاية له من أجل إعادة تنشيط الضمائر في المستقبل. إن الكتابة القرآنية إذا ما فارقت الصوت من حضورها الفعلي – (حياة الرسول) سوف تتعدد مظاهرها وتستقر مدتها خارج الضمير الصوتي وحدود الذاكرة البشرية لتوضح سمو كلمات الله سبحانه وتعالى، وهي الكلمات التي أصبحت هي نفسها من الكتابات المقدسة.

إن استبطان هذا الخط المقدس ذي الدلالة الرمزية للمقدس، يمنح للخط العربي بعدا سماويا كما جعل منه قانونا إلهيا. والأكثر من ذلك دلالة، هو التعبير المكتوب من خلال إنجاز صوتي فالحروف العربية لها فضيلة، تمثلها في ضمير المسلم، لا محدودية التبعية لعالم روحي وثقافي معين. فاللغة العربية، لغة القرآن، قد تمّ إبلاغها إلى المسلمين من خلال صوت الرسول وحررت من طرف صحابة الرسول الأكثر وفاء له، وهي بذلك تمثل مكانة مقدسة كبيرة. إن اللغة العربية تشكل دعما للضمير الديني الأحادي، وسوف تبقى دوما مرجعا للقانون الإلهي ورمزا للحقيقة التي ظهرت منذ أكثر من أربعة عشر قرنا.

3 – الأعجمية تعبير عن الإيمان الأسمى بإسبانيا :

إن اللغة هي عبارة عن جهاز دفاع ومرجع لكل هوية مهددة، والأعجمية تحت ظهر الخطوة العربية قد سعت للتعبير عن الفكر الإسلامي للموريسكيين وصراعهم ضد وسط معادي لهم. كذلك كانت اللغة الرومانية السامية، أي الأعجمية في صراعها وتجاذبها، قد عملت أن تكون التعبير عن أقلية في المهجر. وبعد حين أي بعد الطرد النهائي منذ 1609 ترك موريسكيو شمال إفريقيا استعمال اللغة الأعجمية ليتبنوا لغة القرآن، وهذا على الرغم من مخاطر مجابهة كراهية جديدة، تولدت في الأفق الثقافي واللغوي والسياسي للمجموعة الإسلامية المستقلة، والتي تعتبر جهل اللغة العربية نوعا من الإسقاط والتهميش الفكري. ومن هذه الزاوية، فإن الأعجمية على الرغم من عمق ساميتها، ليس لها مبرر لوجودها. إن حركية الموريسكيين الاجتماعية تتمحور حول المظاهر الآلية والفنية والثقافية المتميزة والمرتبطة بعالمهم الأندلسي. وهذا خلال عدة أجيال وهو الأمر الذي عملوا فيه على إنقاذ ذاتيتهم المتميزة، لتبقى دوما في مأمن من الاندماج، وتلك هي سيرورتهم التاريخية التي لا مفر منها.

هل اعتبرت الألخميادية، كنتيجة للشعور الدقيق كما جاء على لسان أمريكو كاسترو في La realidad historico d'Ispana (Partuas, p. 206).

إن اللغة الألخميادية الموريسكية تعتبر المرآة التي عكست حالة الضمير المعارض. كما أن أخلاق أمة لها تأثير على لغتها. ومن جهة أخرى فإن اللغة هي التي تصنع الأمة في الكثير من الأحيان. ونتيجة لذلك فإن كل شيء يجعلنا نذهب إلى الاعتقاد أن استعمال

شكل الخط العربي من طرف الموريسكيين، يرجع الفضل فيه، بنسبة كبيرة، إلى الطابع المقدس للخط ثم إلى الموقف الفعلي تجاه ذلك.

وبالإضافة إلى ذلك وفي هذا الظرف بالذات لم يكن الدين والتبعية لإحدى المجموعات الدينية، منحصرة في المعتقدات الميتافيزيقية أو الروحية، بل إن ذلك يفرض إقامة الشعائر واتخاذ الإجراءات القانونية المتوفرة في الشريعة. ونحن بذلك نجد أنفسنا في مواجهة لنظام إيديولوجي متماسك على مستوى الشكل والمضمون كان أن تسرب ضمن إطار الحياة الجارية، وحيث سعى إلى طابعها بذلك الشكل بكل دقة. إن التقاليد الإسلامية نفسها، بمناقشاتها العديدة للتفاصيل قد شملت كل مظاهر الحياة. وفي مثل هذا النظام، فإنه من العادي أن تكون الكتابة أي أبجدية القرآن مرتبطة ارتباطا عضويا برؤية العالم وأي بإحدى التظاهرات الخارجية للتبعية للأمة للمجموعة الإسلامية. ونظرا لأهمية هذه المظاهر الخارجية، فإن استعمال الخط العربي يمكن اعتباره إلى حد ما كنوع من الاعترافات الدينية. ومن جهة أخرى اعتبر التظاهر بتطبيق الشريعة الإسلامية في إسبانيا طعنا في العقيدة المسيحية خلال القرن السادس عشر، وهذا ما يشرح بوضوح كيف أن السلطات الكنسية كانت ترى أن الأمر لا يتعلق فقط بالتقاليد الشخصية بل بالتعبير عن مظاهر خارجية لرؤية العالم. إن مثل هذا الشعور قد تمّ التعبير عنه من خلال الإجراءات العديدة والقوانين التي نشرت وكان هدفها جميعا الأمل في تغيير التقاليد الموريسكية. ومن هذا المنطلق، منع على الموريسكيين حمل الزي العربي أو الاحتفال بالأعياد، أو استعمال النساء الحناء وبناء الحمامات الاصطناعية. وليست هذه عبارة عن مبادئ عقائدية، بل هي مظاهر خارجية. وبالنتيجة فإن معظمها ثقافي، كاستعمال خط شكل محدد لم يكن على العموم تعبيرا عن ميول شخصية، ولكنه في الواقع تعبير عن عقيدة جماعية.

النتيجة :

لا شك أن التعبير التالي المباشر : عقيدة جماعية للدلالة على المجموعة الموريسكية، يشكل مصدرا وثائقيا أصليا وثمينا. وعلى الرغم من ثرائه الذي لا يناقش، فإن الشهادات المكملة من أصول مسيحية مثل تلك التي تحتويها قضايا محاكم التفتيش أو روايات المؤرخين الذين كتبوا عن الطرد النهائي أو في أرشيفات العدول والكنائس والبلديات يشكل عنصرا مكملا وهاما جدا.

د. نجيب بن جميع

كلية الآداب – منوبة

تعريب : د. عبد الجليل التميمي

من أبو غيث القشاش إلى عبد الجليل التميمي

أ. د. لوثي لوباث بارلت
جامعة بورتوريكو

في سنة 1609 أي منذ أربعة قرون خلت، عرفت إسبانيا في عهدي الملكين فيليب الثاني والثالث، مسارا عسيرا للتجزئة عندما أجبرت الموريسكيين الإسبان على طردهم الجماعي نحو الأراضي الإسلامية، وحتى الأب أزنار قاردونا (Aznar Cardona) على الرغم من أنه لم يكن متعاطفا مع هذه الأقلية المهمشة، فإنه أظهر شفقة أمام هذا المنظر الرهيب الذي كان عليه هؤلاء المهجرون والذين لفهم الغبار وأصابهم العطش وهم يتجهون في فوضى نحو الطرد، حاملين معهم بعض شؤونهم التي سمح لهم بحملها وهذه هي شهادته :

"غادر هؤلاء البؤساء في التوقيت الذي حدد لهم من قبل الضباط الملكيين ونزحوا سيرا على الأقدام أو على أحصنتهم وقد أخذت منهم الحرارة كل مأخذ وهم يجهشون بالبكاء في مشهد امتزجت فيه أصواتهم وشكاويهم، ومصطحبين في ذلك نساءهم وأطفالهم ومرضاهم وأقاربهم المسنين وجميعهم، يلفهم الغبار وهم يتصببون عرقا ولهثا، وكان البعض منهم في عربات تجر أغراضهم وما يملكون من أشياء. أما بقية المهجرين فكانوا راكبين مع ما لديهم من اختراعات عجيبة من سروج وبرادع وقنب كانت مخصصة لحمل الماء، وجميعها محاطة بحاجز معدني وأكياس المؤن وقرب ماء ومجموعة من السلال وأدباش وأقمشة من نسيج الكتان ومعاطف وأشياء أخرى من نفس هذه الأنواع، وكل واحد منهم حمل ما يقدر عليه، حيث كان البعض منهم يمشي على الأقدام، رث الثياب، منتعلين أحذية قماشية. أما البعض الآخر، فقد وضعوا دثارا حول أعناقهم والبعض الآخر يجرون أحمالا صغيرة. وقد تمكنت نساؤهم من حمل ما قدرن عليه من حلي ورزم أخرى والجميع يقومون بتحية من كان ينظر إليهم، مرددين على أسماعهم، كان الله في عونكم ورعاكم...

ومن ضمن تلك العربات والدواب وجميعها اكتريت، لأنهم لا يستطيعون أخذ ما يملكونه شخصيا، إلا ما تمكنوا عليه من الأدباش والأموال التي تحصلوا عليها بعد بيع ممتلكاتهم حملوها معهم إلى حدود المملكة. وفي بعض الأحيان هناك عديد النساء (لبعض أغنياء الموريسكيين)، قد تحولن حقيقة إلى حاملات للجواهر والحلي أو هي عبارة عن أقراط فضية صغيرة، واضعات إياها في الرقبة وعلى الصدر أو معلقة في أعناقهن أو في آذانهن. وهناك أشياء من المرجان محلاة بأشكال وألوان عديدة، قد غطت أدباش النساء، ساعيات لإخفاء جزء من حسرة قلوبهن. أما الذين لا يملكون شيئا، فكانوا يسيرون على الأقدام، وقد أخذهم التعب والمرض فهم ضائعون وكئيبون ومضطربون وخجلون وثائرون وغاضبون وهائجون وعطشى وجائعون" ([1]).

إن مشهد هؤلاء المهجرين هو ولا شك رهيب، فقد "أخذ منهم التعب والألم مأخذا وهم ضائعون وبائسون ومضطربون وخجلون، مما حصل لهم وهم غاضبون وثائرون وعطشى وجائعون. إلا أن البعض من هؤلاء الموريسكيين الذين تم تهجيرهم بقسوة بالغة، قد حالفهم الحظ للوصول إلى الأراضي المغاربية، وكان أحدهم وهو صاحب المخطوطة المتوفرة بمكتبة الأكاديمية الملكية بمدريد ([2]) وكان مجهولا إلى يومنا هذا ([3])، قد نجح أن يترك للتاريخ، شهادة حية لوصوله إلى تونس، حيث استقبله شخصان فتحا له ذراعيهما، وكان أحدهما هو الرجل الصالح سيدي أبو الغيث القشاش والذي قام بحملة واسعة في البلاد لحسن استقبال الموريسكيين. أما الشخصية الثانية التي أحسنت وفادتهم فهو الوالي، عثمان داي الذي حمى هؤلاء القادمين الجدد، باعتبارهم أقلية أجنبية مستقلة، تتمتع بخبرة فنية واقتصادية، وقد وضعهم مباشرة تحت حمايته السياسية، وأعفاهم من العديد من الضرائب الهامة. وكان هذا الموريسكي صاحب المخطوطة، قد سعى جاهدا ليترك للتاريخ شهادته حول هاتين الشخصيتين اللتين حمتا الموريسكيين خلال سنين عديدة لدى استقبالهم بالبلاد التونسية وجاء في شهادته أيضا :

([1]) Mercedes Garcia Arenal, Los moriscos, 1975, p. 235

([2]) Alvaro Galmes de Fuentes : Tratado de los dos cominos por un morisco refugiado en Tunez, Madrid, 2006.

([3]) المصدر نفسه.

"وهنا (في أرض الإسلام) استقبلنا عثمان داي، ملك تونس، وهو ذو شراسة في عاداته، ولكنه كان وديعا معنا مثل الحمل، وكذا سيدي أبو الغيث القشاش، إذ بفضل بركته والرجال المسلمين الذين معه، فإنهم جميعا قد ساعدونا على توفير كل الظروف لحسن استقبالنا، مقدمين لنا حبهم وصداقتهم" ([4]).

لقد قام عثمان داي بإلغاء ضريبة المائة ايكو التي وجب أن تسددها كل باخرة ترسو في الميناء، وهذا علامة على تشجيعنا. وبالإضافة إلى ذلك، ترك لنا الحرية للاستقرار في الأماكن التي نرغب فيها، إذ هناك من اختار المهدية وكان هذا ضد إرادته. ومع هذا فقد أمدهم بالقمح والشعير كمساعدة لهم، وقد علمت من صديق حميم مقرب له، أن الداي عندما كان مريضا قال له : "عندما أسترجع صحتي، فإن الواجب يفرض علينا أنت وأنا، أن نزورهم في الأماكن التي استقروا فيها، حتى نكون على علم بما ينقصهم، لنمدهم به. وقد أعفاهم خلال ثلاث سنوات، من الضرائب...." كما أن هذا الداي حرص على أن لا يتدخل أحد في شؤوننا.

أما أبو الغيث القشاش، فمن جانبه ساعدنا بتقديم المؤن ووفر لنا الزوايا بالمدينة للاستقرار فيها، مثل زاوية سيدي الزليجي، حيث أقام فيها الفقراء صحبة نسائهم وأطفالهم، وأنه إذا كان من عادة الأطفال أن يتبولوا في كل الأماكن التي يقيمون فيها، فقد حصلت بعض الأوساخ من جراء ذلك. وعندما أبلغ أحد مسؤولي هذه الأماكن سيدي أبو الغيث القشاش بهذه الوضعية، ذاكرا له أن هذا المكان الديني أصبح نتيجة لذلك، مكانا قذرا جدا، رد عليه أبو الغيب القشاش، "اتركوهم أين هم حتى ولو كان المكان قذرا. ليفعلوا ما يشاؤون لأن المكان الذي هم فيه لو استطاع أن يتكلم لقال : أهلا وسهلا في بيتنا السعيد، فأنتم السعداء وكل المسلمين هم إخواننا الذين يحبوننا ويصادقوننا وهم المؤمنون ونحن لا نكره إلا المنافقين..." ([5]).

لقد سمحت لنفسي أن أذكر هذا المقطع الطويل الذي يترجم عن هذا الاستقبال التاريخي الكريم للموريسكيين الإسبان، الذين تم استقبالهم من قبل السلطات التونسية، فإنه والحق يقال، فبعد أربعة قرون، أعاد الدكتور عبد الجليل التميمي هذه الملحمة التاريخية

([4]) **المصدر نفسه**، ص 203-204.

([5]) **صورة الموريسكيين في الآداب والفنون**، ص 10، منشورات مؤسسة التميمي، زغوان 1999.

ليس باستقبال الموريسكيين، ولكن بوضع الذاكرة الموريسكية موضع الفعل، كأحد المشاغل العلمية الدولية اليوم. ويمكننا القول إنه مع الدراسات العلمية حول الموريسكولوجيا التي أطلقها الأستاذ التميمي، وكتب عنها، فإنه قد توصل نتيجة لذلك، إلى نتائج عليا للأحداث التي أثارها هذا المهاجر الموريسكي لتونس صاحب المخطوطة، الآنفة الذكر، إذ بفضل الأستاذ التميمي، لا نبالغ إن قلنا إن تونس لم تفتأ تستقبل الموريسكيين الإسبان خلال الأربعة قرون الماضية. ففي التاريخ لا أعرف ملجأ كريما ولا هو أمين وصادق مثل تونس. وبالفعل وبالتحديد فإن في هذه الأراضي التونسية، قد دعينا نحن الباحثون من جنسيات مختلفة، للتفكير حول ضحايا هذه الهجرة الجماعية القسرية والتي وجدت ملجأ وعزاء في تونس، هذه الواحة الحقيقية، واحة من السلم وسط البحر الأبيض المتوسط ([6])، كما سماها التميمي "هذا البلد الرائع"، فهناك أزمات تاريخية ذات بعد واسع، وحيث وجب على أية حال، قرون عديدة للبدء في دراسة كل نتائجها. فالدكتور التميمي الذي يتمتع بوضوح الرؤية وبالغ السخاء، عمل على بناء جسر رمزي (أنا أستعمل هنا تماما العبارات البليغة للصديق لوي كاردياك) ([7]) حيث نجح د. التميمي أن يجمع ليس فقط باحثي ومؤرخي ضفتي النهر، ولكنه قد سمح أيضا للمرور والتبادل بين البشر عبر جسر الدكتور التميمي الذي أقامه وعرف كيف يوسع إطاره ليشمل كل الآفاق والتيارات والحضارات والأجناس.

وقبل أن يقدم المؤرخ الأمريكي صموائيل هنتنقتون Samuel Huntington تلك النظرية البائسة، التي نعيش مناخها اليوم حول صراع الحضارات، فإن عبد الجليل التميمي، قبله بعدة سنوات، قد دشن فضاء للتفكير الجماعي حول صراع الحضارات القديم والذي حصل بين إسبانيا والعالم الإسلامي، وقد تم تحقيقه بفضل الحوار الهام والمستقل والحر والودي بغرض مجابهة بروز الصراعات الحضارية الأخرى. وقد أطلق صديقنا التميمي حركته العلمية السخية، بعد أن مررنا نحن جميعا وعديد المرات على هذا الجسر العلمي، ولنا أن نتصور مدى الراهنية المستعجلة التي يكتسيها عمله الحضاري الهام اليوم.

([6]) **المصدر نفسه**، خطاب لوي كاردياك، ص 11.

([7]) **دين وهوية الموريسكيين الأندلسيين ومصادر وثائقهم**، ج 1، ص 13، تونس 1984.

إن الجسر بين الموريسكيين القدامى وإسبانيي القرن الذهبي، هو اليوم بالتحديد، الجسر الحقيقي بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية. ففي البلاد التونسية، كما ذكرت سابقا، تبنينا في عديد المرات، وفي كل الاتجاهات هذا الجسر الرمز، والذي لا يتزحزح بفضل الأسس المتينة وعلو الغاية النبيلة، نتيجة اتساع نتائجه الأولى المعاصرة حول هذه المراجعة الجماعية عن الذاكرة الموريسكية، فقد بدأت أولا بأوفييدو Oviedo سنة 1978 حيث نظم أول مؤتمر عالمي حول هذا الملف برئاسة ألفارو قالمس دوفوانتس Alvaro Galmes De Fuentes. وبعد ذلك تم بمونبلييي سنة 1981 تحت إدارة الأستاذ لوي كاردياك. وبعد ذلك أخذ عبد الجليل التميمي المشعل، حيث نظم أول لقاء علمي بتونس في سبتمبر 1983، وقد صرح لوي كارديياك يومئذ وعلانية أمام المؤتمرين الدوليين : "أنه لشرف وسعادة كبيرة لي شخصيا، أن أمرر المشعل إلى تونس" ([8]) وعلى إثر تسلمه هذا المشعل الرمز، فإن د. التميمي سوف يحمله انطلاقا من سنة 1983 إلى اليوم دون انقطاع، وقد تواصلت المؤتمرات العلمية حتى تجاوزت اليوم الأربعة عشر، وهو ما عد حدثا مستحيلا إنجازه في أي بلد من بلدان العالم، ومازال متواصلا إلى اليوم.

فالمؤتمرات الأولى قد تمت في العاصمة ثم في الحمامات، ثم انتقل بعد ذلك إلى زغوان، إحدى المدن التونسية القديمة التي احتضنت بسخاء خاص الموريسكيين المهجرين. وهناك شيد عبد الجليل التميمي بناية لا نظير لهندستها الجميلة جدا، حيث تتوفر قاعات للاجتماعات العلمية وغرف لإقامة الباحثين ومكتبة. وعلى الرغم من تنظيم المؤتمرات اليوم في العاصمة من جديد، فإننا نحن الباحثون مازلنا نحمل في قلوبنا وإلى الأبد، هذا القصر الذي سخر للعلم وهو محاط بالأزهار والورود في ظل أشجار باسقة وجميلة.

إن مهنية هذه المؤتمرات العلمية ونجاحها والتي شارك فيها زملاء من إسبانيا وتونس والجزائر والولايات المتحدة وفرنسا والمغرب الأقصى والأردن وفلسطين وهولندا وإيطاليا وفينيزويلا ومصر وفينلندا والمكسيك وروسيا والباكستان وبورتوريكو وغيرها من البلدان، قد سمحت بإنشاء فضاءات للبحث عن علم الموريسكولوجيا مثل اللجنة

([8]) صورة الموريسكيين، **نفس المصدر**.

العالمية للدراسات الموريسكية ومؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات والمجلة التاريخية المغاربية، وهذا ما مكن من نشر كل أعمال المؤتمرات الموريسكية، وقد تحول كل ذلك إلى فضاء للتشاور الحتمي حول علم الموريسكولوجيا التي تم تنظيمها حتى اليوم، حيث ساهم العديد من الباحثين ذوي السمعة العلمية الدولية، بنشر بحوثهم في هذه المؤسسة، والقائمة طويلة جدا ومدهشة للذين شاركوا فيها وهو ما يبرز أهمية الإشعاع الدولي للعمل البحثي والثقافي الذي أنشأه د. التميمي بالبلاد التونسية ونذكر على سبيل المثال الأسماء الدولية التالية أمثال : L.P Harvey، Louis Cardaillac، Alvaro Galmés de Fuentes، Mikel de Epalza، Reinhold، Kontzi، Ottmar Hegyi، Hossein Bouzineb، Bernard Vincent، M.A. Hatamlah، Consuelo Lopez-Morillas، M.N. Ben Jemia، Mercedes Garcia Arenal، Ridha Mami، Mohamed Turki، Antonio Vespertino Rodriguez، Maria Soledad Carrasco، Yvette Cardaillac، Rafael Carrasco، Francisco Marquez، Villanueva، وهاته القائمة للتذكير ببعض الأسماء فقط، وهي أسماء لامعة في الدراسات الموريسكية على المستوى الدولي.

ففي المؤتمرات الدولية التي نشرت أعمالها، عالج الباحثون مسائل مختلفة للظاهرة الموريسكية باللغات الإسبانية والعربية والفرنسية والإنجليزية، ومنحوا بذلك شهادات حقيقية للأبحاث وللفكر الحواري السخي وللتوجه الأكاديمي التي طبعت كل الأعمال التي أنجزها عبد الجليل التميمي. فهناك الجزءان اللذان صدرا سنة 1984 حول : **دين وهوية الموريسكيين والمصادر الوثائقية للموريسكيين الأندلسيين**، يضاف إليهما أعمال جليلة أخرى مثل : **الأدب الألخميادو الموريسكي، تزواج لغوي وعالم الاستطراد اللامتناهي** (1986)، **ومهن الموريسكيين الأندلسيين وحياتهم الدينية** (1990)، **وتطبيق الموريسكيين الأندلسيين للشعائر الإسلامية 1492-1609 (1989) ؛ والذكرى الخمسمائة سنة لسقوط غرناطة 1492-1992 (1993) ؛ ووضعية الدراسات الموريسكية-الأندلسية في العالم (1995) ؛ والعائلة الموريسكية : النساء والأطفال (1997) ؛ وصورة المورسكيين في الآداب والفنون (1999) ؛ وعلم الموريسكولوجيا : التوجهات والمنهجية المستقبلية والمصادر الوثائقية الجديدة (2001) ؛ والموريسكيون**

والبحر الأبيض المتوسط والمخطوطات الألخميادية (2003) ؛ **آداب الموريسكيين وتأثيراتهم بتونس وأمريكا اللاتينية (2005)** ؛ **والصور الأدبية للموريسكيين وكتاباتهم ولغتهم في القرن 16 (2007)** ؛ وحاليا فإننا ننتظر أعمال المؤتمر الأخير الذي عقد في شهر ماي 2007، والذي تمحور حول الأدب والتاريخ الموريسكي.

وبالإضافة إلى أنشطة هذا المخبر الديناميكي للدراسات الموريسكية التونسية، لا بد أن نضيف قائمة ثانية لمنشورات هامة أخرى مثل رسالة إيفات كاردياك : **السحر في إسبانيا، الموريسكيون والمسيحيون القدامى في القرنين 16-17 (1996))** وخاصة تآليف عبد الجليل التميمي نفسه، هذا العالم ذي المعرفة الدقيقة لهذا الملف وهي الكتب التالية : **الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلسيين (1991)** ؛ **ودراسات في التاريخ الموريسكي الأندلسي (1989)** ؛ **والببليوغرافيا العامة للدراسات الموريسكية الأندلسية (1995)** وكتابه الأخير : **دراسات جديدة في التاريخ الموريسكي الأندلسي (2000)**، هذا فضلا عن دراساته الجديدة المنشورة تباعا في **المجلة التاريخية المغاربية** بعدئذ.

وقد ذكرت أعلاه أن الحوار الثقافي هو حصيلة مميزة لهذا المختبر التونسي حول الدراسات الموريسكية، والذي ساهم أيضا بالتعريف في لغة الضاد بعدد من الدراسات القديمة التي نشرت باللغة الإسبانية والفرنسية، وقام الأستاذ التميمي بتعريبها، أمثال الرسالة الجامعية المشهورة حول : **الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون : المجابهة الجدلية (1492-1630)** للوي كارادياك وكتاب **الحياة الدينية للموريسكيين** لبدور لونقا (1993)، وأنا أحيي شخصيا مؤسسة التميمي التي قامت بتعريب بعض كتبي حول الموريسكولوجيا والدراسات المقارنة-الإسبانية-الإسلامية وتم ذلك بالتعاون مع اليونسكو وجامعة بورتوريكو.

ومع السخاء الذي تميزت به مؤسسة التميمي، قامت بتكريم زملاء مختصين بهذه الدراسات على المستوى الدولي، بدءا بالكتاب التكريمي في جزءين للوي كارادياك. ثم لماريا صوليداد كارسكو، والتي تعد السيدة الأولى المتخصصة في هذه الدراسات الأدبية الإسبانية. كما تم إنجاز كتاب تكريمي لي شخصيا في جزءين. ثم هناك تكريم رابع لأهم وأكبر المدارس حول الدراسات الموريسكية ونعني بها مدرسة أوفييدو الإسبانية. إن هذه

الأعمال قد جمعت عديد الدراسات وأهديت للمساهمين الفاعلين في هذا الاختصاص على المستوى الدولي.

وأمام هذا الجهد الكبير لهذا النشاط المتواصل، فليس لي إلا أن أتبنى الكلمات التي جاءت على لسان الأستاذ لوي كارديالك في إحدى خطبه سنة 1999 من "أن تونس تعد مهد الموريسكولوجيا". ومن هذا المنطلق، فإنه يستحيل علينا أن نأتي على العمل الضخم الذي أنجزه عبد الجليل التميمي للتاريخ والآداب ولحياة الموريسكيين ولذاكرتهم الجماعية، إذ مجال بحوثنا واختصاصنا مدين له بالكثير ولن نقدر على مكافأته.

أود في خاتمة هذه الدراسة التقويمية حول إنجازات زميلنا التميمي، أن أذكر هنا بشهادة شخصية حصلت لي في أول لقاء علمي تم بتونس سنة 1983. فالدكتور التميمي قام برحلة جماعية لكل المشاركين في المؤتمر لتستور وزغوان، هذا البلد الموريسكي الجميل والرائع والذي استقبل بسخاء كبير المهجرين الموريسكيين، والذين قاموا بوضع بصماتهم الثقافية القوية هناك. وعندما كنا نتجول في الأزقة الضيقة، كان د. التميمي يقودنا، وكنت ساعتئذ أتخيل من جديد صورة هؤلاء الموريسكيين، المتعبين والمرهقين والضائعين والحزينين والمضطربين والخجلين إلى درجة الحنق والضائعين والعطشى والجائعين. وفي نفس هذا المكان بالتحديد، تطلع علينا هذه القرية الصغيرة ذات الطابع الأندلسي ليعيد للموريسكيين إيمانهم وكرامتهم الضائعة، وهذا بفضل الحماية الروحية لأبي الغيث القشاش وبدعم سياسي واجتماعي من عثمان داي. وقد أخذ الدكتور التميمي على عاتقه المشعل من هؤلاء الأجداد الخيرين، ليساهم من جديد اليوم بفضل عطائه العلمي وحواره المتعدد الثقافات، في العمل على حماية هؤلاء الموريسكيين المنسيين من طرف الجميع عبر الزمان، ولكنهم أحياء من خلال تراثهم المكتوب الذي خلفوه لنا.

وإنه من الأهمية بمكان القول إن هؤلاء المهجرين الموريسكيين، لم يكونوا فقط موجودين بيننا من خلال مخطوطاتهم، ولكن أيضا من خلال منح مواطنيهم التونسيين، معارفهم المعمارية وفنياتهم اليدوية، وعلى الأخص فن الفخار والخزف، وتونس مازالت تدين لهم بالكثير، فالموريسكيون قد شاركوا التونسيين معارفهم الفلاحية، وكانوا خبراء في الري وغراسة الأشجار المثمرة، وقد سعوا إلى إعادة تعلم ديانتهم الإسلامية من جديد، وهي التي كانت محرمة عليهم بإسبانيا، حيث بدؤوا في نسيانها. كما أعادوا تعلم اللغة

العربية، لغة أجدادهم الأندلسيين المتألقين عبر تاريخهم الحضاري المشرف بالأندلس، ولكن أيضا كما يشهد بذلك الأب فرنسيسكو خيمانس، عندما ذكر بتعلقهم لفترة طويلة بثقافتهم الإسبانية، وبإمكاننا سماع أغانيهم العاطفية الإسبانية الراجعة إلى القرن الثامن عشر (وحيث كان البعض منها في الواقع أغاني موريسكية عاطفية).

وبمدينة تستور قدم لنا عبد الجليل التميمي آخر سلالات الموريسكين الملتجئين من الهجرة القسرية الجماعية لسنة 1609، وعندما قمنا بمصافحة أحدهم، أدركت جيدا مدى الاعتزاز والفخر الذي يشعر به صديقنا الجديد لانتمائه لسلالته الإسبانية-الإسلامية. وقد عرف عبد الجليل التميمي كيف يواصل تقديم أياديه السخية إلى أيادي الموريسكيين الإسبان، وكذا أيادي الذين جاؤوا من أصقاع متباعدة من الكرة الأرضية، حيث التقينا في مؤتمرات عديدة ومنتظمة لدراسة تاريخهم وتراثهم الثقافي والإنساني. وعليه، فإن الحوار المفتوح والمتسامح للزميل التميمي، يعد منارة مضيئة في هذا القرن الحادي والعشرين والذي بدا غامضا ومرتبكا، وهذه المنارة سوف تساهم في مدننا بما يجب أن ننجزه حتى تتعايش مختلف حضاراتنا بتناغم وانسجام وأخوة.

إني أشكر عبد الجليل التميمي لجهوده الأكاديمية الجبارة، راجية له طول العمر ليواصل حواره الثري والفاعل.

أ. د. لوثي لوباث بارلت
جامعة بورتوريكو

قائمة مختارة للكتب والمقالات

التي استعملت في الكتاب

لقد أثبتنا المراجع والمقالات التي استعملت ورجعنا إليها في أعداد كتابنا. كما أننا ذكرنا بمراجع الدراسات التي تم استعمالها ضمن الدراسات التي قمنا بتعريببها.

ولكن الأهم هو رجوعنا إلى أرشيف رئاسة الوزراء باستانبول (الأرشيف التركي-العثماني) وبصفة خاصة إلى _مهمة دفتري_ والتي استخرجنا منها بعض النصوص وقمنا بتعريبها ونشرها كملاحق في دراساتنا، مع التأكد أن هناك مئات الدراسات والعناوين على الموريسكيين الأندلسيين والتي نحيل القارئ إليها في كتابنا : الببليوغرافيا العامة للدراسات الموريسكية وكذا المجلة Al-Hamia الصادرة بجامعة أوفيادو بإسبانيا.

****

- أعمال المؤتمر العالمي السابع للدراسات الموريسكية، تقديم وإشراف د. التميمي، عبد الجليل، **العائلة الموريسكية : النساء والأطفال،** 438 ص، منشورات المؤسسة، زغوان 1997.

- أعمال المائدة المستديرة التي نظمتها اللجنة العالمية للدراسات الموريسكية الأندلسية، حول **الأدب الألخميادو-الموريسكي : تزاوج وعالم الاستطرادات اللامتناهي،** منشورات المعهد الأعلى للتوثيق، تونس، 1986.

- أعمال مؤتمر : **دين وهوية الموريسكيين الأندلسيين ومصادر وثائقهم،** تحت إشراف وتقديم د. عبد الجليل التميمي (تقديم)، جزءان، تونس 1984.

- أعمال مؤتمر : **صورة الموريسكيين في الآداب والفنون،** تقديم عبد الجليل التميمي، 308ص، منشورات مؤسسة التميمي، زغوان 1999.

- د. بن جميع، نجيب، اللغات الموريسكية والخمية المحاكاة، في **الأدب .. نفس المصدر**، ص 14-25، تونس 1986.

- التركي، عبد المجيد، "وثائق الهجرة الأندلسية الأخيرة إلى تونس" في : **حوليات الجامعة التونسية** IV، سنة 1967، ص 25-63.

- د. التميمي، عبد الجليل، **الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلسيين**، 180 ص، منشورات المؤسسة، زغوان، 1989.

- د. التميمي، عبد الجليل، **دراسات في التاريخ الموريسكي الأندلسي**، 168 ص، منشورات المؤسسة، زغوان، 1993.

- د. التميمي، عبد الجليل، **الببليوغرافيا العامة للدراسات الموريسكية-الأندلسية**، 378 ص، منشورات المؤسسة، 1995.

- د. التميمي، عبد الجليل، "وثيقتان حول فئة المهمشين من النساء والأطفال الفقراء والمصابين الموريسكيين بزغوان في منتصف القرن 19" في كتابنا **دراسات جديدة في التاريخ الموريسكي**، ص 83-94، منشورات المؤسسة، 2000.

- د. التميمي، عبد الجليل، **دراسات جديدة في التاريخ الموريسكي**، 230 ص، منشورات المؤسسة، زغوان 2000.

- د. الجراري، عباس، "التأثير الموريسكي في الطرب المغربي"، ص 206، في **الموريسكيون في المغرب**، 278 ص، منشورات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 2000

- د. درارجة، أبو القاسم، "آثار الأندلسيين في الفنون الشعبية بإسبانيا المسيحية وبلاد المغرب العربي" في : **صورة الموريسكيين في الآداب والفنون**، منشورات المؤسسة، زغوان 1999..

- د. رينهولد كونتسي، "تعدد اللغات عند الموريسكيين"، في **الأدب... نفس المصدر**، ص 107-122، تونس 1986.

- السيد، فؤاد، **فهرس المخطوطات التي اقتنتها دار الكتب من سنة 1936-1955**، القاهرة، 1963.

- د. قاسم، أحمد، "أحباس عزيزة عثمانة" في **المجلة التاريخية المغاربية**، عدد 91-92، ص 335، زغوان 2000.

- د. كاردياك، لوي، تعريب د. التـيمي، عبد الجليل، "**الموريسكيون الاندلسيون والمسيحيون : المجابهة الجدلية** "، الطبعة الثانية، زغوان 1989.

- مارثادس سانشاس الفارات ود. انتونيو قاسبار تينورود ريقات، "بعض الملاحظات حول لغة الموريسكيين"، في **الأدب... نفس المصدر**، ص 135-146.

- المحبي، محمد، **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**، ج 1، القاهرة، 1284هـ/1868م.

- المزي، محمد، "نور القبس بين طبربة والأندلس" في : **بحوث عن الأندلسيين في تونس**، منشورات المعهد الوطني للتراث، تونس 1983.

- د. ناصر الدين سعيدوني، **دراسات أندلسية، مظاهر التأثير الإيبري والوجود الأندلسي بالجزائر**، 422 ص، منشورات دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2002.

- **ناصر الدين على القوم الكافرين**، تحقيق وتقديم وترجمة : شورد فان كوثنكزفلد وقاسم السامرائي وجيرارد فيغرز، 506 ص، النص العربي والترجمة الإنقليزية، منشورات المجلس الأعلى للأبحاث العلمية والوكالة الإسبانية للتعاون الدولي، 1997.

- د. هريدي علي، صلاح أحمد، "الأندلسيون : حياتهم الاقتصادية والاجتماعية في مصر العثمانية 1517-1798 : دراسة وثائقية عن مدينتي الإسكندرية ورشيد " في أعمال المؤتمر العالمي العاشر للدراسات الموريسكية الأندلسية حول: **الموريسكيون والبحر الأبيض المتوسط والمخطوطات الألخميادية**، 330ص، منشورات المؤسسة، زغوان 2003.

كشاف أسماء الأعلام والمجموعات

كشاف الأماكن الجغرافية

INDEX DES LIEUX GEOGRAPHIQUES

INDEX DES NOMS DE PERSONNES ET COLLECTIVITES

documentaires sur les morisques andalous, t. 2, pp. 139-154, Publications de l'ISD, Tunis, 1984.

- Ricau, Asmin, "L'expulsion des Morisques Espagnols en 1610 : ses conséquences dans le Midi français" Pyrénées, n° 103-104.

- Saadaoui, Ahmed, "La tuile creuse : matériau caractéristique de la tradition architecturale morisque en Tunisie :diffusion, fabrication et utilisation aux XVIIe et XVIIIe siècles" in, **Métiers vie religieuse et problématique d'histoire morisque,** pp. 293-302, Zaghouan 1990.

- Slama Gafsi, Abdelhakim, "Conséquences de l'expulsion des morisques : la régénération de la culture des oliviers à Tebourba en 1726" **L'Expulsion del Moriscos consequencies en el Mon Islamic, en El Mon Cristia,** pp. 147-157, publications du Ministère de Culture de Catalogne, Barcelone, 1994, Tunis 1986.

- Voir les très importants actes de la première table ronde du C.I.E.M sur : ***La littérature alhamiado morisque : hybridisme linguistique et univers descursif,*** 200p.

– Zbiss, S.M. "Apports des morisques andalous en matière d'agriculture en Tunisie", in, **Religion, Identité et sources documentaires sur les morisques andalous.**, t1, pp. 201-211. Publications de l'ISD, Tunis, 1986.

- Landa, Robert, "Les morisques et le développement socio-culturel de la Méditerranée" **Morisques, Méditerranée et Manuscrits Aljamiado**, Zaghouan 2003.

-- Latham, John D.," Towards a Study of Andalusian Immigration and Its Place in Tunisian History", dans **les Cahiers de Tunisie**, XVII _ XVIII Tunis, 1957.

Latham, J. D. "Mustafa de Cardenas et l'apport des morisques à la société tunisienne du XVIIe siècle", **Etudes sur les moriscos andalous en Tunisie**, pp. 157-177, Madrid 1973.

- Lincoln, Joseph, "Aljamiado Prophecies", Publication of the Modern Language Association, pp. 631 – 644, L II, 1937.

- Mantran, Robert, « La description des côtes de l'Algérie dans le Kitab i. Bahriye de Peri Reis » in, ***ROMM*, n° **15-16، pp. 159-168, Aix, 1973

- Mantran, Robert, « La description des côtes de l'Andalousie dans le Kitabi Bahriye» in, **Actes del XII congreso de la UEAI، (Malaga 1984)** , pp. 497-507, Madrid, 1986.

- Martinez, François, "Les morisques expulsés: quelques itinéraires de retour en Espagne" **Morisques, Méditerranée et Manuscrits Aljamiado**, Zaghouan 2003.

– Milhou, Alain, "De la destruction de l'Espagne à la destruction des Indes: histoire sacrée et combats idéologiques", **Etudes sur l'impact culturel du Nouveau Monde**, Séminaire Interuniversitaire sur l'Amérique espagnole coloniale, Paris, Editions l'Harmattan, 1982, tome, I, pp. 25-47.

– Olivier Asin, Jaime, "Un morisco de Tunis, admirateur de la Lope ; étude du ms. S.2 de la collection Gayangas", in, M. Epalza et R. Petit : **Etudes sur les moriscos andalous en Tunisie**, Madrid 1973.

- Rachidi, Fatima, "La présence des Andalous dans l'armée saadienne" ***Mélanges Louis Cardaillac***, T2, pp. 575-590, Zaghouan 1995.

- Razouk, Mohamed, L'évolution de l'établissement des morisques au Maroc" in ***Religion, Identité et sources***

– Gozalez, Anita, **Islam et Inquisition dans les îles espagnoles de la Méditerranée**, these soutenue à Besancon en 1987, ronéo.

- Brahimi, Denise "Quelques jugements sur les maures andalous dans les régences turques au XVIIe siècle" **Etudes sur les morisques andalous en Tunisie,** 384p, Madrid 1973.

- Cardaillac, Louis, "Le Turc suprême espoir des Morisques", in, **Actes du 1er congrès d'histoire et de civilisation du Maghreb**, tome 1, Tunis, 1979.

- Cardaillac, Louis, **Morisques et chrétiens, un affrontement polémique (1492-1640),** Klincksiecl, 1977, 1e édition, 2e édition, publication de la Fondation Temimi.

- Ciscar Pallares, Eugenio, "Prestamistas moriscos en Valencia", Cuadernos de Historia, 5 (1975), pp. 269-286.

- De Castries, Henry, ***Sources inédites de l'Histoire du Maroc, 1ere série, Saadiens***, France III , Paris 1911.

- De Epalza Mikel, "L'auteur de la "Tuhfa al-arib" Anselm Turmeda (Abdallah al-Tarjuman)" dans **IBLA**, N° XXVIII, Tunis 1965.

–Delumeque, Jean, **La peur en Occident (XIVe-XVIIe siècles)**, Paris, Fayard, 1987.

- Fernandez, Imma, **Al-Andalous au delà de tous les silences,** publications de l'Université de Lausanne, Lausanne, 107p, 1996.

- Guadalajara Y Javier, Fray Morcos de, **Memorable expulsión y justisimo destierro de los Moriscos de España**, Pamplona, Nicolas de Assiayn, 1614.

–- Ham-Joachim Kress, "Eléments structuraux 'andalous' dans la genèse de la géographie culturelle de la Tunisie", **Etudes sur les morisques andalous en Tunisie**, Madrid 1973.

- Harvey, L.P. "The Morisco who was Muley Zaidan's Spanish Interpreter", dans, **Miscelanee de Estudios arabes y hebraicos,**Universidad de Granada, VIII, 1, 1959.

- Landa, R. "Les morisques comme les représentations de la civilisation andalouse au Maghreb" in, **Métiers vie religieuse et problématique d'histoire morisque,** 200p, Zaghouan, 1990.

LISTE SELECTIONNEE D'OUVRAGES ET D'ARTICLES UTILISES DANS L'OUVRAGE

Dans cette bibliographie très sélective, sont inscrits quelques références et articles utilisées ; comme nous avons fait un rappel des références utilisées dans les articles que nous avons traduits en langue arabe.

Mais le plus important à signaler, c'est bien la consultation des archives de la Présidence du Conseil à Istanbul (archives turco-ottomanes) et plus particulièrement les muhimme defeteri desquels nous avons tiré quelques firmans traduits en français et publiés comme annexe.

En outre nous rappelons qu'il y a des centaines de travaux sur les morisques, énumérés dans notre ouvrage :

Bibliographie générale d'études morisques, ainsi que dans la revue Al-Hamia publié à l'Université d'Oviedo.

****

- Abderrahim, Abderrahim, A. "Al-Moriscos Settlement in Egypt through the Religious Court Documents of the Ottoman Age", in, **L'Expulsión Dels Moriscos consequencies en el Mondo Islamic, en El Mondo Cristia.**

– Aznar Cardona, Pedro, Expultión justificada de los Moriscos españoles y suma de las excellencias de nuestro rey don Felipe el Catolico Tercero deste nombre, Huesca, Pedro Cabarte, 1612.

– Bleda, Jaime, **Coronica de los Moriscos de España**, Valencia, Felipe Mey, 1618.

فإنّه يَعلَمُ السرّ واخفَى الله لا إلَهَ إلاّ هو له الأسماءُ الحُسنى وأنا اخترتك فاستمع لما يوحَى أنّني أنا الله، لا إله إلاّ أنا فأعبُدُوني وأقِمِ الصلواةُ لذِكْري إن الساعة آتيةٌ أكادُ أُخفِها لِتُجزَا كلّ نفسٍ بما تسعَا، إنّما إلَهُكُمْ الله الذي لا إله ألاّ هو وسِعُ كلّ شيء علْما، وما أرْسلنا من قبلك من رسول إلا يوحى إليه أنه لا إلَهَ إلا أنا فاعبدونِ وذا النون اذَ ذاهبا مُغ اضبًا فظنّ أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمت أن لا إله إلا أنت سبُحَنِكَ إني كنتُ من الظالمين، فتعلَى الله الملِكُ الحقّ لا إلَه، إلا هو رب العرش العظيم الله الذي لا إلهَ إلاّ هو رب العرش الكريم وهو الله الذي لا إلهَ إلا هو لَهُ الحمدُ في الأولى والآخرة وله الحكْمُ وإليه تُرجعون ولا تدْعُ مع الله إلهًا آخرْ لا إله إلاّ هو كلّ شيءٍ هالكٌ إلا وجههُ له الحكمُ وإليه تُرْجَعونَ، يأيّها النّاسُ اذْكُروا نعمتَ الله عليكم هل من خالق غير الله يرزُقُكم من السّماء والأرض لا إله إلاّ هو فأنَ تُوفكون. إنّهم كانوا إذا قيل لهم لا إلَهَ إلاّ الله يستكبرونَ ذلكم الله ربّكم له الملكُ لا إله إلاّ هو، فأنى تصرفون غافرَ الذّنب وقبل التوبِ شديدُ العقاب ذي الطول، لا إلَهِ إلا هو إليه المصير ذلكّم الله ربّكم خالق كل شيءٍ لا إله إلاّ هو فأنى توفكون هو الحيّ لا إلَهَ إلاّ هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين ربّ السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين، لا إله إلا هو يُحيي ويميت ربّكم ورب آبائكم الأوّلين أعلم أنه لا إلَهَ إلا هو واستغفر لذنبك وللمومنين والمومنتِ والله يعلم متقلّبكم ومثوكم هو الله الذي لا إله إلا هو عالمُ الغيبِ والشهادةِ هو الرحمان الرّحيم هو الله الذي لا إلهَ إلاّ هو الملك القدّوس السّلام المؤمن المهيمنُ العزيز الجبّارُ المتكبّر سبحانه الله عما يشركون هو الله الخالق البرء المصور له الأسماء الحسنى يسبّح له ما في السّماوات والأرض وهو العزيز الحكيم الله لا إله إلاّ هو وعلى الله فلْيَتوكّل المومنون ربّ المشرق والمغرب لا إله إلاّ هو فاتخذْهُ وكيلا تمّت السبعة وثلاثين آية من القرآن العزيز بحمْدِ الله وعونهِ.

Document n° 5

بسم الله الرحمان الرحيم والحمد لله ربّ العالمين روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه قال : تعلموا هذا الدعاء وعلِموه للصلّحين ولا تُعلّموه للسّفهاءَ فوالذي بعثني بالحق بشيرا ونذيرا، ما دعا بهاذا الدعاء أحدٌ في سنةٍ أو في شهرٍ أو في زمانٍ، فإن الله يدخله الجنّة بغير حسابٍ. قلنا يا رسول الله وإن سَرقَ، قال وإن سرقَ. قلنا يا رسول الله وإن زنا، قال وإن زنا. قال عليه السلام والذي بعثني بالحق بشيرا ونذيرا ما دعا به من أصابه الجوع والعطش، إلا أطعمه الله وسقاه، ولا دعا به من كان خائفً، إلا آمنه الله من خوفه أو عُرْيانا إلا أكساه اللّه ولا دعا به رجل بنيّةٍ خالصة، على نهر يجري لوقف عن جريه، ولا دعا به على جبلٍ، حال بينه وبين الطريق الذي يريدُ، لانتقل من موضعهِ، وإن دعا به مظلومٌ، فرّج لله عنه، وينظُرُ الله إليه بعينه التي لا تنام، ومن كتبه وجعله بين أكْفانه، كان له شهيدٌ يوم القيامة، فإنه قد توفّى عنه كلّ دين ولو كان عليه دينٌ مثل جبلَ تُهامةَ إلاّ أدا الله عنه وهذا هو التهليل المبارك نفعنا الله به وجعلنا من أهل تهليل القرآن العظيم، بسم الله الرحمن الرّحيم، وإلهُكُمُ إلهٌ واحدُ، لا إلهَ إلاّ هو الرّحمان الرّحيم، الله لا إلهَ إلا هو الحيّ القيوم لا تخذه سنّةٌ ولا نومٌ له ما في السّموات والأرض من ذا الذي يشفع عنده إلاّ بإذنه، يعلم ما بين أيديهم وما خلفُهمْ ولا يحيطون بشيء من علمه ألاّ بما شاء، وسّع كرسيهُ السّماوات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العليّ العظيم، لا إكرَهَا في الدين قد تبيّن الرّشدُ من الغير فمن يكفُرُ بالطّغوتِ ويؤمنْ بالله فقد استمسك بالعُرْوة الوثْقى لا انفصَام لها والله سميعٌ عليمٌ، الله وليّ الذين آمنوا يخرجُهم من الظّلُمت إلا النّور والذين كفروا أولياؤهمْ الطّاغوت يخرجونهم من النور إلى الظُلُمَت أولئك اصْحبُ النّار همْ فيها خالدون. الم، الله لا إلهَ إلاّ هو الحيّ القيّوم نزلَ عليكَ الكتابِ بالحق مصدقا لما بين يديه وانزل التورة والإنجيل من قبل هدً للناس وانزل الفرقان إنّ الذين كفروا لهم عذابٌ شديدَ والله عزيزٌ ذو انتقام إنّ الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السّماء هو الذي يصوركُمْ في الأرْحمِ كيف يشاء لا إله إلاّ هو العزيز الحكيمُ شهيدَ الله أنه لا إله إلاّ هو العزيز الحكيمُ، والملائكة وؤلوا العلْمِ قائمَ بالقسطِ لا إلهَ إلاّ العزيز الحكيم، الله لا إلَهَ إلاّ هو ليجمعنّكمْ إلى يومَ القيامة لاَ ريْبَ فيه ومن أصْدقَ من الله حديثً ذا لكُمْ الله ربّكم لا إله إلاّ هو خالق كلّ شيءٍ فأعبُدُوه وهو عل كلّ شيء وكيل، التّبعُ ما أُحيَ إليكَ من ربكَ لا إلهَ إلاّ هو واعْرضْ عَنِ المُشْركينَ الّذي له ملْكُ السّماواتِ والأرضِ، لا إلهَ إلاّ هو يحيي ويميتُ فأمنُو بالله ورَسوله، وما أُمِروا إلاّ ليعْبُدُ الَهًا وحدً لا إلَهَ إلاّ هوَ سُبحَنهُ عمّا يُشْرِكُون، فإنْ تولوْا فقُلْ حسبْي اللّه لا إلَهَ إلاّ هو عليه توكّلتُ وهو ربّ العرْشِ العظيمِ. قال آمنْتُ أنّه لاَ إلَهَ إلاّ هو الذي آمنتْ به بنُو إسْرائيلَ وأنا منَ المُسْلمين فَأعلَمُوا إنّما أُنْزلَ بعِلْمِ الله وأن لا إلَهَ إلاّ هوَ، فَهَلْ أنتُمْ مُسلمون قلْ هو ربّي لا إلَهَ إلاّ هوَ عليه توكّلتُ وإليه متَابُ يَنْزِلُ الملئكَة بالرّوحِ من أمْره عل من يشارك من عبادهِ أن انذروا أنّه لا إلَهِ إلاّ هو، فاتقون وإن تجهرْ بالقولِ

Document n° 4

فضل في وداع شهر رمضان

بسم الله الرحمان الرّحيم

روي عن رسول الله صلّ الله عليه وسلم أنه دخل على بنته فاطمة رضي الله عنها وهيا (كذا) تبكي وعلِ (كذا) رضي الله عنه يسكتها فقال صلى الله عليه وسلم لما تبكين يا فاطمة فقال تا (كذا) فاطمة لمن شيء يا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهل يبكي أحد من غير شيء أو يحزن أحد من غير شيء ثم قال صلّ الله عليه وسلم ما نشأ في دنيا مثل فاطمة فقالت فاطمة رضي الله عنهَ وكيفا ألابكي وقد حرمت صلاة الوداع من رمضان ثم قالت فاطمة رضي الله عنهَ (كذا) لو هللت وكبّرت وسبحت أيكون لي ثوابها فقال صلّى الله عليه وسلّم لو هلّلت وكبّرت وسبّحت عمرَك كله ما بلغ تلك الركعتين من ليلة الوداع. فقالت لو تصدّقت بصدقات أيكون لي ثوابها ؟ فقال صلى الله عليه وسلم لو تصدقت بوزن جبل أحدِ ذهبً (كذا) ما بلغ ثوابها فهي افضل في المِزانِ (كذا) من جبل أُحدِ ثوابًا فقال علِ (كذا) رضي الله عنه يا رسول الله كيف أُصلِ (كذا) الرّكعتين فقال صلى الله عليه وسلم يا علِ (كذا) طهر بيتك وثيابك وحضر ما عندك من الطيب ثم قم إلى محرابك وقل سبحان الله عشر مرات وصل على جبريل ومكايلْ (كذا) واسرافيلَ وعل (كذا) حمالت (كذا) العرش وعل (كذا) آدم وحوَ (كذا) وعل جميع الأنبيا لكل واحد منهم عشر مرّات وتقول أعوذ بالله من الشيطان الرّجيم عشر مرات وادخل في الصّلاة إن شئت أول اليل (كذا) أو آخره وآخره أفضل من أوله وأقرا الحمد الله وقل يأيها الكافرون وإذا جاء نصر الله وقل هو الله أحد وقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ بربّ الناس، كل واحدة سبع مرّات في كل ركعة وتتشهّد وتسلم وبعد السلام تسجد سجدةً طويلة تقول في سجودك بسم الله الرحمان الرّحيم : سجد لك وجهي وخضعت لك رقبتي اللّهم تقبّل صومي وارحم ضعفي، اللهم لك صمت وبرزقك أفطرت وعليك السلام يا شهر رمضان ما كان أعظم بركتك كنت حصنًا منعَ (كذا) وحرزً (كذا) لمن تلَ (كذا) فيكَ القرآن وعبدَ فيكَ الرحمان فعليكَ السلام يا شهر رمضان ما كان أعظمُ بركتكَ وأكثرُ خيراتك فكم من صائمٍ لا يصومُك أبدًا وكم من قائمٍ لا يقوم فيك أبدًا رضي الله عنك وعنّا وعلَ (كذا) جميع المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمُومنات الأحياء منهم والأموات وصلَ الله على سيدنا محمّد سيد الأكوان وحبيبُ (كذا) وعلى آله وصحبه وسلّمَ تسليما كثِرًا (كذا) إلى يوم الدين.

****

s'agit d'autres aides ? C'est pourquoi nous vous ordonnons de coordonner avec Ali, de bien vous mettre d'accord et de ne pas négliger de vous renseigner sur l'état de l'ennemi ; il vous incombe de suivre ses nouvelles et d'informer la Sublime Porte de façon continue.

***

Document n° 3

Muhimme defteri 23, p. 139, 28 rajab 981/23 novembre 1573

Objet : Les Andalous d'Alger se plaignent du coût de la vie et des abus des hommes d'Etat :

Ceci est notre Edit au beylerbey de la Régence d'Alger : Les pauvres Andalous, Tagarinos et Mudéjares, ont envoyé à la Sublime Porte un délégué pour nous informer qu'après avoir laissé leurs biens en Espagne, ils se sont installés à Alger et ses environs ; ils sont devenus pauvres et ne possèdent rien ; les gouverneurs de ces régions leur ont imposé l'impôt tout comme les autres sujets du pays, ce qui les a poussés à se plaindre du coût de la vie ; même les salaires qu'ils touchent sont confisqués et les marins ont arraché leurs fonds et biens. Pourquoi les a-t-on lésés, en confisquant leurs fonds et salaires ? Ainsi selon l'Edit sultanien, il t'incombe de prendre précaution et d'obéir ; on ne doit pas confisquer les fonds et les biens de ces indigents, non plus que leurs salaires.

Ne permets à personne d'intervenir dans leurs affaires ; ces pauvres gens seront exemptés durant les trois années de toutes les charges jusqu'à ce qu'ils deviennent plus aptes et aient les moyens pour cela ; il faut leur procurer de la tranquillité ; et lorsque leur situation s'améliorera, c'est à ce moment là, qu'on prélèvera les droits et impôts sur eux comme les habitants du pays ; ne commettez pas d'injustice sur les malheureux, en appliquant une loi non conforme à la charia, non plus qu'à mon Edit ; que cet Edit reste dans tes mains...

****

manifestiez courage et audace ; informez-nous régulièrement de tous les événements qui se passent dans ces régions ; cet édit est remis le 27 chewwal 979/13 mars 1572.

****

Document n° 2

Muhimme defteri 10, p. 12 ; 3 safar 979 / 27 juin 1571

Objet: Equipement de la flotte pour attaquer la flotte espagnole :

Cet Edit est destiné à Pertev Pacha : Vous avez adressé une lettre à la Sublime Porte par laquelle vous l'informez qu'au mois de Muharram, vos navires sont arrivés à l'île d'Agriboz où ils sont restés six à sept jours, pour s'approvisionner et recruter des rameurs. Le 2 du mois mentionné, Ali, Beylerbey de la Régence d'Alger, a ramené six navires de type "bachtarda", une galéasse et 11 galiotes. Il vous a rencontré dans cette île et vous avez adressé à Istanbul Hadj Murad avec deux navires de la flotte indiquée ; Jaafar, gouverneur de Tripoli, vous a rejoint avec deux navires : une galéasse et une galiote. La flotte est sortie le neuvième jour du port d'Agriboz ; quant à la flotte ennemie elle attaquait les îles et les côtes méditerranéennes. Une lettre nous est parvenue de Kiliç Ali, nous informant de la situation des musulmans d'Al-Andalous, leur lutte contre les infidèles ; ils se dévouent pour leur combat, mais ils n'arrivent pas à bien affronter cet ennemi ; ils sont contraints, par le manque de munitions à abandonner la guerre contre l'Espagne. Nous avons été informés également que les habitants de Tunis et d'Alger sont dans la sécurité et la tranquillité, ils n'ont rien à craindre, c'est pourquoi nous vous ordonnons de suivre les navires du maudit roi d'Espagne et de les vaincre, surtout qu'il a l'intention de porter préjudice et atteinte aux côtes de Tunis et d'Alger ; c'est pourquoi nous vous ordonnons de prendre vos précautions et de vous préparer à faire échec au plan des Espagnols. Nous sommes sûrs de votre courage et de votre magnanimité pour remplir cette mission. Il vous incombe de préparer l'armée pour attaquer les îles et les côtes de l'ennemi, et y causer des dommages et de vérifier si l'Espagne va attaquer les côtes de Tunis et d'Alger afin de nous adresser des informations sûres. Il vous incombe aussi de vous entendre avec Kiliç Ali Pacha et de nous préciser si l'aide consiste en l'envoi de galéasses ou s'il

Document n° 1

Muhimme defteri 9, p. 77 ; 10 dhoul kaada 977 / 16 avril 1570

Edit à Ali Pacha, Beylerbey d'Alger :

Vous avez évoqué dans votre lettre adressée à la Sublime Porte, que la Régence bénéficie de la sécurité et de la tranquillité et qu'on y a restauré les endroits qui avaient besoin de l'être, et que la population connaît aujourd'hui une vie meilleure ; quant aux ennemis, ils se sont groupés pour attaquer les provinces proches de l'Espagne, ils les ont pillées et enlevées ; depuis, la population andalouse s'est manifestée pour affronter les ennemis, leurs chefs ont été vaincus et dispersés ; grâce à Dieu, les Andalous ont mené une attaque et ont emporté une victoire ; nous avons agi alors en conséquence, en adressant des soldats et munitions et ce pour les aider dans leur combat ; mais les ennemis n'ont pas cessé d'attaquer les provinces à leur proximité, en déclenchant des raids de temps en temps.

Nous sommes donc au courant de toutes ces informations et en détail ; auparavant, j'avais l'intention d'envoyer ma flotte impériale dans ces régions, pour venir au secours des musulmans, par tous les moyens ; mais les infidèles de l'île de Chypre, située près de mes royaumes, ont rompu le traité qui nous lie, et ont agressé les pèlerins qui se rendent aux Lieux Saints et la taïfa des commerçants musulmans ; nous inspirant des sacrifices des martyrs, nous avons décidé de conquérir cette île et de prendre son sort en main ; ce qui fut réalisé avec beaucoup de facilité au printemps ; c'est ainsi que les musulmans comme par le passé accomplissent les préceptes de la religion et les pèlerins et commerçants accomplissent leurs tâches, sans entraves et retournent chez eux en paix, en évoquant élogieusement notre Etat ; c'est pour ces raisons que nous avons tardé à envoyer les soldats dans ces régions.

Nous vous ordonnons d'envoyer les soldats et les munitions, chaque fois que cela est possible, pour venir en aide aux musulmans ; dès l'arrivée de notre édit, et suivant nos instructions, procurez toute aide aux musulmans cités ci-haut ; soyez très attentifs face aux ennemis et prenez soin de défendre la religion et les affaires importantes de l'Etat ; il faut que vous

n'utilisent plus leur admirable langue pratiquée par les meilleurs penseurs, écrivains, philosophes, médecins et créateurs arabes et juifs durant l'épopée de la civilisation andalouse ; l'aveuglement, l'intolérance, le refus de l'autre ont fait perdre à toute la population morisque, restée en Andalousie tout au long du XVIe siècle et après l'expulsion, la pratique correcte de la langue de leurs ancêtres et la majorité fut obligée d'utiliser les dialectes locaux, en particulier la langue castillane dans leur parler quotidien [27] et dans les quelques textes littéraires rédigés en castillan, avec utilisation de l'alphabet arabe et « qui représente une expression vivante, la voix religieuse exclue de la vie nationale, une minorité qui était l'héritière de la splendeur de la civilisation arabo-musulmane d'Al-Andalous » [28].

Ce sont là quelques déductions faites qui confirment la dégradation totale du niveau linguistique de la population morisque restée en Andalousie.

---

(27) Mikel de Epalza, discours, in, ***La littérature...op.cit.***, p. 10.

(28) Reinnold Kontzi, « La polyglassie chez les morisques » in, ***La littérature, op.cit.***, où l'auteur confirme, que la maîtrise morisque du Castillan est très limitée, p. 89.

خائفا	خائفً
على	عل
شهيدا	شهيدً
أدى	أدا
لا إكراه	لا إكرَهَا
الظّلمّات إلى	الظلمّتِ إلا
أصحاب	اصْحَبُ
بالحق	بلْحق
الأرحام	الأرحم
ذلكم	ذالكم
شهد	شهيد
قائمًا	قائمً
حديثًا	حديثً
اتبع	التَبع
أوحيَ	أُحي
واحدًا	وحدً
الملائكة	الملئكة
على	عل
أخفيها	أخفِها
إذ ذهب	إذ ذاهبا
مغاضبا	مغَ اضبًا
سبحانك	سبحنَك
فأنّى تؤفكون	فأنَ توفكون
مثواكُم	مثوكم
البارئ	البرء
السبع والثلاثين آية	السبعة وثلاثين آية

- Nous pouvons situer ce niveau linguistique dans les deux textes, au dernier quart du XVIe siècle, ce qui atteste que l'Inquisition a réussi pleinement à combattre les morisques, en réduisant totalement l'utilisation de l'arabe, par le fait de resserrer l'étau sur ces malheureux andalous pour qu'ils

وكيفا	وكيف
ألابْكي	ألا أبكي
ذهبَ	ذهبا
المزِان	الميزان
أصلَ	أصلي
ومكايل	مكاييل
عل حمالة	على حملَة
حوَ	حواء
اليل	الليل
منعَ	منيعا
وحرزَ	وحرزا
تلَ	تلا
حبيبُ	حبيبه
كثرًا	كثيرا

- Les fautes relevées dans la première liste ci-haut sont inimaginables et prouvent le très bas niveau linguistique de la majorité des morisques en cette fin de règne andalouse (25) ; D'ailleurs les statistiques le montrent que 72% des hommes et presque la majorité des femmes sont illettrés (26).

Quant au deuxième texte que nous publions ci-après document n° 5, il ne diffère pas du premier, la calligraphie est plus lisible, mais d'autre part nous avons relevé vingt-sept fautes de tout genre que nous énumérons dans le tableau suivant :

الخطأ (faux)	الصواب (vrai)
للصلحين	للصالحين

(25) Voir les très importants actes de la première table ronde du C.I.E.M sur: ***La littérature alhamiado morisque : hybridisme linguistique et univers descursif***, 200p, où les meilleurs spécialistes à l'échelle internationale, ont pris part pour jeter des éclairages fondamentaux sur les langues des morisques, leur translittération, les diverses formes de l'utilisation, et le niveau dégradant de la langue arabe.

(26) A. Temimi, ***Les perspectives.. op. cit.***, p. 178.

sont enregistrées dans ce document ; on sait déjà comment « le Coran a conféré à la graphie arabe une dimension transcendante que les morisques ont pu intérioriser, bien que dans la clandestinité, pour cultiver un patrimoine culturel dense et dont on n'a pas encore mesuré les limites ou les possibilités à travers la littérature alhamiado-morisque » ([24]).

Nous relevons donc comment ces morisques, harcelés et poursuivis par l'inquisition, cherchent désespérément à garder des liens effectifs avec leur environnement civilisationnel, leur religion et la pratique de leurs coutumes ; un simple papier où figuraient des hadiths du prophète, une sourate du Coran, et de surcroît le nom d'Allah cité, était considéré comme un signe fort de leur attachement à leur identité religieuse, ce qui leur procurait un réconfort et un soulagement toujours recherchés avec insistance.

Que relevons-nous de ce document que nous publions, à la fin de notre étude.

- Que l'orthographe de ce premier texte en caractères arabes probablement rédigé par un illettré, est médiocre et difficilement déchiffrable.

- Que ce texte d'une seule page est bourré de fautes de tout genre, que nous avons toutes relevées, vingt erreurs d'orthographe au total ; les voici à travers les deux colonnes suivantes :

faux	vrai
صلَ	صلى
وهيا	وهي
وعلِ	وعلي
فقال تا	فقالت
لمن	لا من
عنهَ	عنها

(24) Ben Jemia, Néjib : « La graphie arabe : une fixation d'un symbole sacré dans les textes alhamiado-morisques », p. 26, in **Las practicas ...op. cit.**, voir d'autres articles liés à cette problématique de recherche dans notre ouvrage **Bibliographie... op.cit**, rubriques : langue arabe, langue des morisques (arabe dialecte) lettres arabes. etc ....

« des faux fuyants, des échappatoires » (19) ; un simple petit papier où étaient rédigés quelques mots du Coran ou des Hadith du prophète, était perçu aux yeux de l'Inquisition comme étant un refuge, un véritable salut des âmes des malheureux et désespérés morisques ; une fois un tel papier découvert par l'Inquisition, le morisque est soumis à un procès et un interrogatoire inquisitorial pour être jugé et condamné impitoyablement ; l'inquisition est allée jusqu'à infliger à un morisque la bastonnade de 200 coups et cinq ans comme rameur sur les bateaux espagnols et la séquestration de ses biens, parce qu'on a trouvé chez lui des ouvrages en langue arabe (20). Pour les Espagnols ne pas dénoncer au tribunal les affinités religieuses des morisques, était considéré comme une grave faute punie sévèrement.

En effet les morisques et les nouveaux chrétiens ont utilisé « l'arabe, le berbère, le castillan et le valencien » (21) ; que leur origine géographique a déterminé le chaise de leur utilisation linguistique ; d'après l'étude B. Vincent, les Valenciens et Grenadiens conservaient encore (vers 1580) l'usage de l'arabe, mais que les castillans l'avaient perdu (22) ; c'est bien une problématique de recherche qu'un nombre de chercheurs et historiens ont étudiée dans leurs travaux et qui mérite d'être débattue et en particulier, à la lumière des nouveaux textes rédigés par les morisques et récemment découvert dans les procès établis par l'Inquisition, comme ce fut le cas de notre nouveau texte que nous publions à la fin de cette étude.

Quels enseignements pouvons-nous tirer de ces deux textes (23) dont le premier contient quelques hadiths du prophète sur l'importance toute honorifique de la prière à la fin du mois de jeûne ; des questions et des réponses du prophète à cette question

---

(19) Ibidem., p. 79.

(20) A. Temimi, « Les perspectives de la recherche d'histoire morisque » in, ***Las practicas musulmanes de los moriscos andaluces 1492-1609***, p. 176, publication de la Fondation, Zaghouan, 1989.

(21) Bernard Vincent, « La langue des morisques » in, ***Las practicas musulmanas de los moriscos andaluces 1492-1609***, p. 178 ; publications de la Fondation, Zaghouan, 1989. L'auteur avance dans son étude qu'il n'y a pas trouvée aucun indice d'existence du dialecte berbère, parmi les morisques du sud de la huerta de Valence !

(22) *Ibidem.*, p. 177.

(23) Document n° 4, publié ci-dessous.

les pires malversations de la part des autorités espagnoles de l'époque.

Aux historiens d'étudier cette question, de faire la part des choses, de tenir compte de la situation géopolitique de la Méditerranée occidentale, de ses enjeux et surtout de l'impossibilité pour l'Empire ottoman de faire mieux pour soutenir militairement les morisques sur leur propre territoire en Andalousie.

****

Abordons maintenant quelques spécificités linguistiques d'un texte qui m'a été remis, il y a quelques années, par l'historien français moriscologue Rafaël Carrasco, qui lors de ses recherches dans les différents dépôts d'archives espagnols, sur les procès préparés par l'Inquisition vers 1580-90 contre les morisques, a relevé un bon nombre de documents rédigés en caractères arabes et a eu le soin de me procurer la photocopie de quelques uns.

Nous nous arrêtons sur l'un de ces textes, trouvé dans un procès d'inquisition ; ce texte ne révèle pas l'identité de ce morisque, non plus les accusations qui lui sont adressées ; il est certain que l'une des accusations formulées est la possession, chez lui, d'un document rédigé en langue arabe, ce qui justifie aux yeux de l'Inquisition, le droit régalien de le juger d'avoir en sa possession, un pareil écrit en arabe, ce qui était interdit formellement.

L'historien Louis Cardaillac a méthodiquement étudié dans sa thèse monumentale ***Morisques et chrétiens : un affrontement polémique 1492-1640*** (17) cet aspect polémique, en indiquant que : «l'Inquisition étant la négation même de la tolérance et du dialogue, il ne reste plus aux morisques qu'à cacher leurs convictions par prudence ... » (18) ; la fatwa du mufti d'Oran, largement diffusée, connue et pratiquée, a libéré religieusement les morisques pour pratiquer la religion musulmane en secret, ce qui explique la généralisation de la taquiyye et la fuite en avant pour maintenir leurs intimes attachements à leur religion, au prix

(17) Cardillac, Louis., 2 édition, publication de la Fondation, Zaghouan, Janvier 1995. Nous avons traduit cette thèse en langue arabe ; publiée à Zaghouan, 1995.
(18) ***Ibidem***., p. 77.

Que déduisons-nous de ce firman, qui revêt une valeur documentaire exceptionnelle sur de nombreux points, que nous énumérons ainsi :

- **Un prise de conscience totale du dossier morisque par la plus haute instance politique et religieuse de l'Empire**, ce qui explique la terminologie utilisée dans ce firman à l'égard des morisques :

- Ils sont **pauvres** ; **démunis de moyens** ; **ne possèdent rien après leur expulsion d'Andalousie** ; même **leurs salaires ont été confisqués et les marins leur ont arraché leurs fonds et biens** ; **on ne doit pas confisquer les fonds et les biens de ces indigents** (sic), ni leurs salaires... » (13)

Cette prise de conscience laisse entrevoir une réelle pitié et compassion, jusqu'à demander expressément aux Beylerbeys d'exonérer 'ces pauvres' durant trois années de toutes les charges, jusqu'à ce qu'ils rétablissent leur situation. La Porte a beaucoup insisté auprès du Beylerbey pour procurer tranquillité et paix aux morisques et ne plus commettre d'injustice à leur égard...(14) .

La même attitude des autorités ottomanes fut prise à l'égard des morisques installés dans la Régence de Tunis où de nombreux firmans furent adressés au Beylerbey dans ce sens, firmans que nous avons publiés précédemment (15) ; c'est dire le haut intérêt manifesté par les autorités ottomanes durant tout le XVIe siècle jusqu'à l'expulsion définitive des morisques.

D'ailleurs les démarches politiques et militaires de l'Empire pour renforcer l'ottomonisation des trois régences d'Alger, de Tunis et Tripoli durant la deuxième moitié du XVIe siècle, entrent dans une stratégie globale pour contrecarrer les projets de l'Espagne au Maghreb ; la décision mûrement réfléchie durant deux ans pour préparer l'expédition navale de Tunis au printemps 1574, avec 250 bateaux et cinquante cinq mille soldats (16), est la parfaite illustration de la détermination à porter secours aux morisques, mais aussi aux populations qui sont en train de subir

---

(13) ***Ibidem.***

(14) ***Ibidem.***

(15) Etudes.. op. cit.

(16) Voir notre article «L'ottomanisation des trois régences d'Alger, de Tunis et Tripoli à la lumière des firmans ottomans de muhimme defteri (1559-1595) », in **Arab Historical Review for Ottoman Studies**, n° 31, pp. 29-191, Tunis, décembre, 2005.

D'autre part, des ordres ont été donnés au Beylerbey d'Alger et futur Amiral Kiliç Ali Pacha, de porter secours aux morisques, de leur apporter des munitions de guerre pour leur résistance ou de faciliter leur insertion aux territoires du Maghreb. Une fois installés dans les espaces territoriaux du Maghreb, ces morisques firent l'objet de quelques malveillances et injustices de la part des autorités, mais surtout de la part des bédouins ; le tableau dressé dans un firman adressé au Beylerbey d'Alger en 1573-1574, est pitoyable à cet égard : "Les pauvres Andalous, Tagarinos et Mudéjares, ont envoyé à la Sublime Porte, un délégué pour nous informer qu'après avoir laissé leurs biens en Espagne, ils se sont installés à Alger et ses environs ; ils sont devenus pauvres et ne possèdent rien ; les gouverneurs de ces régions, leur ont imposé des impôts, tout comme les autres sujets du pays, ce qui les a poussés à se plaindre du coût de la vie ; même les salaires qu'ils touchent sont confisqués et les marins ont confisqué leurs fonds et biens. Pourquoi abuse-t-on d'eux, en s'appropriant illégalement leurs fonds et salaires (11) ? » demande le firman.

Ainsi l'Edit du Sultan adressé au Beylerbey d'Alger, recommande de prendre en considération les ordres suivants :

- Ne plus confisquer les fonds et les biens de ces indigents, ni leurs salaires.

- Ne permettre à personne d'intervenir dans leurs affaires ;

- Que ces pauvres soient exemptés, durant trois années, de toutes les charges, jusqu'à ce qu'ils deviennent plus aptes et aient les moyens pour cela ;

- Qu'il faut leur procurer de la tranquillité jusqu'à ce que leur situation s'améliore et c'est à ce moment là, qu'on prélèvera les droits et impôts sur eux, comme sur les habitants du pays ;

- Ne plus commettre d'injustices sur ces malheureux et ne plus appliquer une loi non conforme à la charia, mais plutôt obéir à l'Edit ;

- Que cet Edit reste dans tes mains..." (12).

****

(11) **Ibidem.**

(12) ***Ibidem.***

contre les infidèles ; ils se dévouent dans leur combat, mais ils n'arrivent pas à bien affronter leur ennemi : ils sont contraints, du fait du manque de munitions, d'abandonner la guerre contre l'Espagne... » (8).

Ainsi la Porte a reçu régulièrement toutes les informations crédibles sur la tragédie morisque, comme l'indique un autre firman adressé au Beylerbey d'Alger en date du 9 mars 1572 : "j'avais l'intention, écrit le Sultan, de diriger ma flotte dans ces régions, pour venir au secours des musulmans par tous les moyens » (9). Un tel aveu traduit, en réalité, une préoccupation et un souci constants des autorités ottomanes pour venir au secours des morisques.

On peut s'interroger si l'Empire ottoman est militairement en mesure de mener une guerre sur le territoire de l'Espagne et de délivrer les morisques de leur bourreau inquisitorial ? Pour répondre à cette légitime interrogation, il faut dire que les enjeux de l'affrontement entre les Empires ottoman et espagnol, ne plaident en aucun cas, pour une intervention militaire ottomane directe en Andalousie ; il lui reste donc la tâche d'effectuer de nombreuses missions diplomatiques de grande envergure, en envoyant des ambassadeurs, porteurs de missives et lettres appropriées à la Reine française Catherine de Médicis, aux Doges de Venise pour attirer leur attention sur la tragédie humaine des malheureux morisques en Andalousie, en les interpellant pour manifester leur compréhension et leurs secours, pour faciliter le transfert et le passage des morisques vers les territoires de l'Empire ottoman (10).

---

(8) Archives de la Présidence du Conseil d'Istanbul (APC) muhimme defteri MD, n° 10, firman en date du 27 juin 1571 ; voir en annexe document n° 2 publié ci-dessous.

(9) ***Ibidem***, MD, n° 35, firman en date du 16 avril 1570 ; voir en annexe le document n° 1.

(10) ***Ibidem***, MD, n°23, 23 novembre 1573 ; voir document n° 3, publié ci-dessous. Le Sultan, d'après une information tirée d'un procès d'inquisition, a décidé de venir en aide aux morisques, en dressant une grande esplanade à Istanbul, comme faisaient les Espagnols à Tolède et ailleurs où l'inquisition célébrait des autodafés ; le sultan révèle qu'il va brûler « tous les chrétiens captifs si le Roi d'Espagne ne lui restituait pas tous les morisques !
Cette information non fondée, voir L. Cardaillac, **op. cit.** p. 105, reflète l'état de préoccupation et d'énervement extrêmes des autorités ottomanes face au sort des morisques en Andalousie.

française et arabe, qui a démontré comment les hauts dirigeants ottomans étaient bien informés de la tragédie morisque, par le biais de très nombreuses pétitions adressées par les morisques eux-mêmes à ces autorités ainsi que par leurs nombreuses délégations, qui sont parvenues à atteindre la capitale de l'Empire ottoman, pour alerter les dirigeants de leur situation d'affrontement permanent et dramatique avec leur ennemi, qui les a déracinés de leur Andalousie et a réussi à les exterminer graduellement, par une guerre impitoyable, pour en finir avec eux jusqu'à l'expulsion définitive d'Andalousie en 1609.

Mais un autre facteur fondamental explique déjà cet éveil de la conscience des dirigeants de l'Empire ottoman à la tragédie morisque, c'est l'information initiale donnée par le grand marin, l'éminent cartographe ottoman Piri Reis et son oncle Kamel Reis, dès la fin du XVe siècle ; tous deux ont sillonné le bassin occidental de la Méditerranée et en particulier l'Andalousie ; Piri Reis « connaissait assez bien cette côte andalouse et son ouvrage ***Kitab i Bahriye*** est « non seulement un livre, mais un monument unique en son genre, qui nous a apporté, outre des informations, une matière à réflexion » (5) ; il va de soi que les données de géographie maritime ont beaucoup aidé Kheireddine, beylerbey d'Alger (6), à jouer le rôle de défenseur et sauveur de milliers de Morisques ; ce rôle fut également assumé, par la suite, par Kiliç Ali Pacha, qui fut, en vérité, le grand avocat et défenseur des morisques auprès des hautes instances politiques ottomanes et ce pour plusieurs raisons évidentes, que nous avons développées dans nos travaux (7) ; Kiliç Ali Pacha, au fil du temps, a transmis les informations et les détails, sur cette tragédie morisque à la plus haute autorité politique et religieuse, comme le confirme un firman émanant du Sultan en date du 26 juin 1571 : « une lettre nous est parvenue de Kiliç Ali Pacha adressée à Pertew Pacha, nous informant sur l'état des musulmans d'Al Andalous, leur lutte

---

(5) Il fut probablement le premier cartographe turco-ottoman à nous livrer les premières informations sur les côtes andalouses, voir : Robert Mantran : « La description des côtes de l'Andalousie dans le Kitab i Bahriye» in, ***Actes del XII congreso de la UEAI, (Malaga, 1984)*** pp. 497-507, Madrid 1986 ; du même auteur également : « La description des côtes de l'Algérie dans le Kitab i. Bahriye de Peri Reis » in, ***ROMM,*** n° 15-16, pp. 159-168, Aix, 1973.

(6) Il fut appelé à assumer ultérieurement la fonction ministérielle d'Amiral de l'Empire.

(7) Voir nos travaux indiqués dans la note n°1.

principalement en Espagne, en France et à Porto-Rico ; cette histoire mérite d'être mieux connue à la lumière des nouvelles découvertes à partir des riches archives espagnoles, françaises, italiennes et éventuellement arabes et turco-ottomanes.

Nous nous arrêtons donc sur l'attitude prise par la plus haute autorité politique, religieuse musulmane face à la tragédie morisque, sujet controversé dans les écrits des historiens arabes et musulmans depuis toujours ; ils reprochent amèrement aux Ottomans d'avoir abandonné totalement, à leur triste sort, les morisques, par le fait de ne pas oser, en temps utile, leur apporter tout le secours substantiel militaire ou pour les délivrer de leur redoutable adversaire, qui les a condamnés à une lente mort civilisationnelle, en leur refusant toute référence à leur identité, langue, religion ou patrimoine. La tragédie morisque (3) a marqué l'imaginaire du monde littéraire et artistique non seulement arabo-musulman, mais également du monde occidental, ce qui explique un bon nombre de tableaux d'artistes dans des musées espagnols et européens ; nous relevons également les pièces de théâtre jouées tout ou long des XIXe et XXe siècles, relatives aux morisques ; l'intérêt pour l'histoire et la littérature morisques est ressenti amplement à travers les travaux des jeunes thésards, toutes nationalités confondues, qui se sont intéressés passionnément à ce dossier (4).

Pour revenir en particulier sur le dossier des relations ottomano-morisques à partir de la chute de Grenade jusqu'à l'expulsion, nous relevons que cet épisode fut traité à partir d'une documentation originale, de source ottomane, vénitienne,

---

(3) Notre ouvrage **Bibliographie générale d'études morisques** publié en 1995, énumère tous les travaux déjà publiés sur cette question ; en outre les treize congrès internationaux que nous avons organisés depuis 1983 jusqu'aujourd'hui, furent couronnés par la publication de plus de six cents nouvelles études scientifiques sur les morisques, écrites principalement en langues : espagnole et française, dues à des chercheurs et historiens, toutes nationalités confondues, ce qui a contribué fondamentalement à relancer l'intérêt de la recherches sur la moriscologie, science qui bénéficie aujourd'hui d'un intérêt croissant auprès des jeunes chercheurs ; pour d'amples informations sur les publications de notre Fondation, voir notre site web : www.temimi.refer.org, rubrique:morisque.

(4) Nous recevons régulièrement par le biais de l'Internet des lettres de jeunes chercheurs qui nous demandent de leur procurer des conseils quant à leurs futures recherches sur la moriscologie pour leurs thèses.

LANGUE DES DERNIERS MORISQUES ET LEUR INSTALLATION AU MAGHREB A LA LUMIERE DE NOUVEAUX TEXTES ET FIRMANS OTTOMANS

Mes recherches dans les archives turco-ottomanes d'Istanbul m'ont permis de découvrir quelques documents d'importance particulière mis en valeur dans mes travaux de recherche (1) ; j'ai fait également d'autres découvertes aussi importantes en France et en Italie.

Revenons aujourd'hui sur l'attitude de l'Empire ottoman face au dossier des morisques à la lumière de trois nouveaux firmans ottomans, adressés au Beylerbey d'Alger et à des dignitaires ottomans et deux autres textes inédits en très mauvaise écriture en calligraphie maghrébine, trouvé dans un procès d'inquisition (2).

La recherche historique sur ce dossier à partir de nouveaux documents d'archives, manuscrits turcs ou arabes, est insuffisante et les chercheurs du monde arabo-musulman en particulier, se font de plus en plus rares : d'ailleurs nous relevons combien l'intérêt des chercheurs et historiens internationaux est grand, quant à l'exploration des documents d'archives historiques d'Espagne et des textes littéraires sur l'alhamiado, et que ces travaux ont enregistré ces deux dernières décades, une évolution de taille à travers quelques laboratoires de recherche scientifique de par le monde et en particulier celui de l'Université de Porto Rico sous la direction du Prof. Luce Lopez Baralt.

En effet, le dossier morisque a suscité et suscitera encore un intérêt accru des chercheurs et historiens pour ses aspects énigmatiques, douloureux et tragiques, encore peu connus jusqu'aujourd'hui, malgré les nombreux travaux déjà réalisés

(1) **Le gouvernement et le problème morisque**, 180, Zaghouan, 1989.
- **Etudes d'Histoire morisque**, 168 p., Zaghouan 1993.
- **Nouvelles études d'histoire morisque**, 230 p., Zaghouan 2000.

(2) Le document nous a été procuré par l'historien Raphael Carrasco.

disposition de leur communauté, conserver et transmettre une grande partie de leur savoir-faire et de leur mode de vie à leurs descendants et aux sociétés qui leur offrirent l'asile et qu'ils contribuèrent à enrichir et à développer ses bienfaits et ses réalisations dans beaucoup de domaines et c'est bien, la mission-leçon qu'avait donnée les morisques au monde arabo-musulman.

Selouguiya, a pour but d'avoir un plafond avec de légères inclinations, qui ne dépassent pas trente degrés, de telle manière que le plafond est protégé des vents et des glissements ; d'autres formes furent adoptées comme le demi cercle à longueur de bras et qu'on installe aux fronts des maisons pour embellir leur aspect extérieur. Les morisques ont donc pris soin de préserver leur personnalité culturelle distincte, qu'ils ont sauvegardé dans leurs métiers andalous, au début puis dans leur nouvel espace que ce soit dans la Régence de Tunis ou dans d'autres espaces maghrébins.

****

Nous avons tenté de faire une somme de l'impact de la présence des morisques dans la Régence de Tunis. Nous n'irons cependant pas jusqu'à dire que l'on doit, à eux seuls cette transformation socio-économique et culturelle de la Régence, car il ne nous parait ni concevable ni acceptable, minimiser de ce qui fut réalisé à l'époque hafcide, car les structures de l'Etat hafcide sont solides et leur système politique cohérent et ouvert sur le monde méditerranéen commercial et économique ; mais d'autre part la dynamique sociale, économique, culturelle et scientifique apportée par la présence morisque dans la Régence ainsi que d'autres espaces maghrébins, fut constructive pour redonner à l'artisanat un nouvel élan grâce à l'apport de techniques plus performantes. Ces morisques marquèrent aussi la société, à travers un nombre d'initiatives pour s'occuper des pauvres, des orphelins, des handicapés, et des marginaux, en haboussant des biens au profit de cette catégorie de marginaux ? (46)

Les morisques furent donc les avant-gardistes de la modernisation et de l'ouverture ; c'est leur contribution qui a poussé le pays à cette évolution, dans une période caractérisée par une étroitesse d'esprit et où la population toutes catégories confondues, n'était pas au diapason des nouvelles transformations en dehors de l'espace maghrébin. Ainsi les Morisques de l'Andalousie qui avaient marqué de manière indélébile l'histoire et le développement surent, dans l'exil et le déracinement, malgré la

(46) Kress, ***op.cit.***, p. 147 ; voir notre étude : "Deux documents sur les marginaux morisques : femmes, enfants et handicapés à Zaghouan au milieu du XIXe siècle" in, A. Temimi : ***Nouvelles études sur l'histoire morisque***, pp. 83-94 ; publications de la Fondation Temimi, Zaghouan, 2000.

(41), et des élites religieuses traditionnelles, caractérisées par l'étroitesse de leur vision de la vie et du monde ; ces mêmes autorités et élites ont mis en doute la sincérité de leur islam et comment ils oscillent entre les croyances islamiques et chrétiennes... Quant aux femmes morisques, elles se distinguaient par la beauté de leurs bijoux et de leurs vêtements en soie avec des chaussures souples en cuir, appelés 'Shibrilla. Pourtant la femme et l'enfant morisques sont les deux éléments absents dans les études morisco-andalouses (42), que se soit en Espagne, au Maghreb ou sur le plan international.

Quant aux influences morisques sur la musique, elles sont toujours vivaces ; ils ont introduit d'autres styles qui s'appuient sur "le rôle de l'instrument basé sur les cordes vocales et en particulier sur des rebeb, luths et tambours" (43) ce qui a donné aux 'muwashahat' andalouses un souffle apaisant et profond, non seulement en Tunisie, mais également au niveau du monde arabe, en Espagne et ce depuis seulement quelques années, ce qui a redonné à la musique arabo-musulmane et à celle des séfarades, une place de choix dans cette dialectique civilisationnelle (44).

Les influences des morisques sur l'architecture furent également très distinguées, quant à la conception des rues droites et qui finissent sur une place où croisent les impasses avec les angles ; les morisques ont pavé les rues afin d'utiliser les chariots appelés 'cararite' 'كراريط' ; de même ils ont multiplié l'utilisation des tuiles creuses (45), qui était une matière très distinguée dans l'architecture traditionnelle andalouse et son utilisation dans beaucoup d'endroits dans la Régence de Tunis comme à Testour,

(41) Le roi Ahmed El-Mansour a fait subir aux chefs morisques beaucoup de mal en les exterminant totalement et en s'appropriant leurs biens, voir Rachidi, F., ***La présence... op.cit.***, pp 11-14.

(42) Nous avons organisé le 7ème congrès d'études morisques sur : ***La famille morisque : femmes et enfants***, 438 p., publications de la Fondation Temimi, Zaghouan, 1997.

(43) Voir l'ouvrage suivant : Christian Poché, **La musique arabo-andalouse**, 153 p., Paris 1995 ; voir également : Abbas El Jarrari : L'influence morisque sur le chant maghrébin", p. 206 in ***Les morisques au Maroc***, p. 278, publications de l'Académie Royale marocaine, Rabat 2000.

(44) I. Fernandez, **op.cit.**, p. 99.

(45) Ahmed Saadaoui : "La tuile creuse : matériau caractéristique de la tradition architecturale morisque en Tunisie :diffusion, fabrication et utilisation aux XVIIe et XVIIIe siècles" in"***Métiers..., op.cit.***, pp. 293-302

beaucoup grâce à leur ingéniosité et à leur niveau technique. Youssef Dey a chargé un ingénieur morisque d'élargir le port de la Bocco de Quella Fiumara, afin que les grands bateaux puissent accoster (38) ; c'est ainsi que les morisques ont creusé en profondeur la mer jusqu'à 24 chibres (شبر) (39) ; cet élargissement nécessitait des connaissances précises en la matière ; nous ne devons pas négliger le rôle promoteur des morisques dans l'affrontement maritime contre les Espagnols et les flottes européennes ; leur concours, leur expérience maritime ont été offerts aux flottes ottomanes surtout en procurant des dirigeants militaires morisques compétents, sans oublier qu'ils étaient également les meilleurs connaisseurs de l'ennemi, grâce aux sources sûres d'informations sur les ports et côtes espagnols....

- Influences civilisationnelles et architecturales :

Nous avons dit plus haut combien les maisons morisques étaient très distinguées dans leur architecture intérieure et extérieure ; ces particularités andalouses, incontournables ont tâché de les faire adopter par leurs propres enfants et leurs disciples ; on sait que les morisques sont arrivés au Maghreb avec leurs habits espagnols et les ont longtemps gardés (40), ce qui signifie un attachement significatif à leur andalousités et sa constante pratique dans un milieu, qui leur refusait cette pratique, que ce soit les Maghrébins eux-mêmes ou les Européens ; ils avaient la peau blanche et une beauté physique très marquées et ce à tel point qu'il était impossible aux Maghrébins de trouver les dénominateurs communs avec ces morisques, ce qui a excité les bédouins contre eux, les accusant d'être des chrétiens dans leur âme et dans le fonds ; ce qui explique par la suite, les ennuis et les maladresses qu'ils ont subis de la part de quelques-unes des autorités politiques maghrébines

---

(38) A. Temimi, Etudes... **op.cit.**, p. 55.
(39) Ancienne mesure romaine de l'ordre de la longueur du bras.
(40) François Martinez : "Les morisques expulsés : quelques itinéraires de retour en Espagne", in ***Morisques, Méditerranée... op.cit.***, p. 143.
Nous attendons de telles études sur le vêtement morisque dans l'espace maghrébin et ses diverses influences sur la façon de s'habiller les Maghrébins.

expulsés, qui introduisent des techniques dans la fabrication et l'organisation ; leur impact fut profond sur la vie économique et commerciale, et en particulier, sur le commerce extérieur, en commençant par l'évolution de la fabrication des chéchias qui a eu une part importante dans les transactions commerciales locales, maghrébines et égyptiennes ; les techniciens morisques ont innové dans le choix de la laine et des couleurs ; c'est ainsi que certaines études confirment que cette spécialité s'est propagée dans toute la Régence et sa production variait de cinq cent mille à un million de pièces par an (32) ; ce secteur a influencé la fabrication des tissus de brocard ; les morisques ont innové également dans la fabrication des selles, en cuir, du savon parfumé, dans la production de nombreuses sortes de parfums appelés parfums andalous reflétait leur profonde connaissance des différentes catégories de fleurs (33) ; ce sentiment très élevé de l'importance des fleurs, a poussé l'une des femmes aristocrates, Aziza Othmana, à habousser un bien, dont le but est qu'il soit déposé quotidiennement un bouquet de fleurs sur son tombeau, une fois décédée (34) !

En outre les morisques se sont spécialisés dans la confection des tapis et ont introduit l'abc de l'imprimerie prouvant leurs aptitudes et leur connaissance dans d'importants métiers ; n'oublions pas leur innovation dans la fabrication des céramiques qui leur doit beaucoup jusqu'aujourd'hui même (35) ; les documents que nous avons trouvés dans les archives de Florence témoignent que les morisques se sont spécialisés dans la céramique, et ont eu des relations avec des spécialistes européens en la matière, à Marseille et quelques-uns ont séjourné à Jurad de Bayonne, dans la région de Biarritz à Bayonne, cette spécialité a survécu jusqu'en 1806 et 1809 (36) ; de même ces morisques ont été célèbres dans la fabrication de différentes armes, de la poudre (37) ; la fabrication des bateaux et ses équipements, leur doit

(32) Kress, ***op. cit.***, p. 146.
(33) ***Ibidem***, p. 147.
(34) Ahmed Kacem, "Les habous de Aziza Othmana" in, ***RHM***, n° 91-92, p. 335, Zaghouan, 2000.
(35) J.D Latham, "Mustafa de Cardenas et l'apport des morisques à la société tunisienne du XVIIe siècle" in ***Etudes sur les morisques, op.cit.***, pp. 157-177.
(36) A. Temimi, ***Etudes... op. cit.***, pp. 55-56.
(37) A. Drarja, ***op.cit.***, pp. 55-56.

Ces morisques ont également créé des jardins d'agrumes (28) et quelques études confirment qu'ils n'ont jamais en leur possession un bout de terre qui ne soit labouré (29) ; quant à l'élevage du ver à soie, la fabrication de la soie et du sucre, ils ont connu un développement spectaculaire par les morisques grenadins de la région d'Alpujarras, célèbre par ces techniques. Il va sans dire que ces nouveautés agricoles ont produit d'autres sortes de fruits et de légumes, qui furent derrière l'amélioration sensible de la gastronomie comme par exemple 'ommek houriya', 'mirmiz' et 'ijja' que les morisques ont introduit de Catalogne, aussi le repas de 'chakchouka' de Nabeul, célèbre comme étant un repas morisque (30) ; quant à la pâtisserie elle fut célèbre dans les villes morisques jusqu'aujourd'hui comme 'El-senyoura', 'Mehelebia', 'hadj Alia catalanya', 'samsa' et d'autres pâtisseries originaires d'Andalousie, ce qui traduit la profondeur de diverses influences morisques dans la Régence de Tunis ; il nous est impossible de les évoquer toutes ici, mais nous tenons à confirmer leur importance dans le tissu social en général.

D'autre part et pour compléter le schéma de ces nouveaux métiers, ces morisques n'ont pas négligé de ramener aussi quelques spécimens d'oiseaux avec leur appellation espagnole comme le canari (31), oiseau que les Tunisiens aiment acquérir à cause de l'harmonie de son chant qui égaie dans la demeure morisque. Dans cet état, on note la verdure, le parfum des orangers qui ont enrichi la beauté de l'intérieur de la maison morisque, qui fut un facteur distinctif, à tel point qu'on ne peut trouver une maison morisque sans arbres fruitiers odorants à l'intérieur, c'est là un des plus raffinés impacts de la civilisation andalouse dans la Régence de Tunis...

Le domaine artisanal et commercial :

Le domaine artisanal et commercial fut lui aussi très novateur et connut une nouvelle transformation, grâce à l'expérience de ces

(28) Aboulkacem Drarja : "Les influences andalouses dans les arts populaires en Espagne chrétienne et au Maghreb" in ***Images des morisques dans la littérature et les arts***, p. 47 ; publications de la Fondation Temimi, Zaghouan 1999.
(29) ***Ibidem***.
(30) Zbiss, M.S. ***Apports... op. cit.***, pp. 201-211.
(31) ***Ibidem***, p. 207.

construction de barrages et la généralisation des réservoirs d'eau, ainsi que l'utilisation des canaux dont la longueur peut atteindre une trentaine de Km ; puis ils ont une manière propre à l'irrigation des terrains, qui suivant les statistiques ont atteint 2500 hectares à l'époque (23) ; ils ont mis en valeur les aqueducs pour ramener l'eau de Zaghouan jusqu'à Carthage avec 75 km de longueur et ce système resta en fonction jusqu'en 1900 (24).

Ces techniques agricoles modernes utilisées, ont introduit de nouvelles et nombreuses pépinières pour l'implantation de l'olivier, dans l'espace de Tébourba où les morisques ont été les vrais promoteurs de son évolution (25) ; ces morisques ont implanté la canne à sucre qui a concurrencé celle importée d'Occident et a pu enregistrer un développement spectaculaire, grâce à l'utilisation des moulins à vent, ce qui a favorisé l'implantation d'arbres fruitiers, en particulier les figuiers, grenadiers, les mûriers, figues de barbarie ainsi que l'élevage du bétail et le renouvellement des forêts ; ces nouveautés ont changé complètement le paysage agricole maghrébin (26) ; dans cette lignée, on a intitulé les figues 'bayther' de 'gotier' en relation avec le Goth, ancienne appellation de l'Espagne ; à Zaghouan et dans d'autres espaces agricoles, divers fruits et légumes ont été introduits comme les pommes de terre, tomates, aubergines, safran, poireaux, choux-fleurs ainsi que d'autres fruits et légumes inconnus jusqu'alors au Maghreb et qui furent importés d'Andalousie ou d'Amérique Latine (27).

---

(23) Ham-Joachim Kress : "Éléments structuraux 'andalous' dans la genèse de la géographie culturelle de la Tunisie" in, ***Etudes sur les morisques andalous***, p. 142

(24) ***Ibidem***, p 143.

(25) "Conséquence de l'expulsion des morisques : la régénération de la culture des oliviers à Tébourba en 1726" in : L'Expulsion... **op.cit.**, pp. 147-157.

(26) Mohamed El-Mizzi : "Nour El-Kabas entre Tebourba et l'Andalousie" in, ***Recherches sur les Andalous en Tunisie***, p. 14, publication de l'INP, Tunis 1983.

(27) S. M. Zbiss : "Apports des morisques andalous en matière d'agriculture en Tunisie" in : ***Religion, op.cit.***, t1, p. 201.

bien se positionner dans la société et dans l'Etat et de ne pouvoir se comparer aux Morisques !

Les implications de la présence des morisques avec leurs qualités, furent très importantes, pour bien connaître le partenaire occidental ; ce nouveau phénomène, qui aurait pu aider les Maghrébins, n'a eu que des répercussions limitées, et ce pour de nombreux facteurs très complexes, que nous ne pouvons évoquer ici...

- Outre cette mentalité d'ouverture et de connaissance des événements survenus en Méditerranée et en Europe, les morisques ont ramené avec eux, au Maghreb, des mécanismes et métiers nouveaux, secondés par une expérience technique très élevée, jamais atteinte dans le monde des métiers maghrébins traditionnels de l'époque ; on note également que quelques morisques arrivés au Maghreb ont réussi à sauver une partie de leur fortune et de leurs biens, souvent la proie des inquisiteurs, puis lors de leur transfert et expulsion forcée, de la part des marins des bateaux européens qui les ont transportés. Les morisques qui ont échappé à ces deux malheurs, ont réussi à utiliser leur patrimoine, leur connaissance et leur technique dans de nombreux projets agricoles, commerciaux et artisanaux, comme nous allons le développer dans cette brève étude ; c'est grâce aux morisques qu'une nouvelle impulsion a eu lieu. Leur empreinte resta longtemps perceptible dans la manière de s'habiller, dans le décor intérieur des maisons, dans l'architecture des édifices religieux ainsi que dans la conception des remparts et rues et le jardinage ; ils se sont distingués également par l'implantation de plusieurs sortes de fleurs, la fabrication d'armes, la construction de bateaux, sans négliger leur ingéniosité dans la musique et en particulier dans les 'muwashahat' andalouses ; en outre ils ont manifesté un sentiment commun de supériorité inné de leur classe bourgeoise et aristocratique, comparée à la population maghrébine. C'est ainsi que le mariage ne se faisait qu'avec des conjoints de leur communauté morisque ; arrêtons-nous sur les diverses influences des morisques dans la Régence ottomane de Tunis :

- Le domaine agricole :

La minorité morisque a ramené dans la Régence de Tunis une expérience et une haute technique pour la mise en valeur des terres agricoles, par la bonne exploitation de l'eau, moyennant la

celui de Mawlay Zeidan (1607-1630), roi du Maroc (19), mais avant lui, le palais du Roi Ahmed El-Mansour Es-Saadi, puis auprès de la Sublime Porte ; c'est ainsi que quelques figures scientifiques ont émergé comme El-Hajari qui a eu la faculté d'assimiler les mécanismes du dialogue religieux avec talent, efficacité et connaissance avec des partenaires chrétiens, lorsqu'il fut engagé à une polémique et à des discussions d'une haute tenue à Paris, à Bordeaux et en Hollande, avec diverses sommités chrétiennes et juives ; El-Hajari a eu le soin et le privilège d'enregistrer cette polémique avec les trois religions monothéistes, ce qui n'est pas une chose aisée face à des personnalités chrétiennes rompues au dialogue depuis leur jeune âge, pour attaquer leurs ennemis, en l'occurrence ici, la religion musulmane et la Sublime Porte, la plus importante force maritime et militaire musulmane opposée aux chrétiens à l'époque.

En effet, la capacité intellectuelle exceptionnelle d'El-Hajari, pour mener à bien des discussions à caractère polémique, avec les chrétiens fut très appréciée du Roi Ahmed El-Mansour El-Saadi (1578-1603) (20) qui sut l'entourer de sa bienveillance. El-Hajari nous a laissé un ouvrage d'importance particulière sur cette polémique où il a développé les constants principes de ce dialogue religieux avec les chrétiens et les juifs (21) ; bien plus nous savons qu'un autre brillant morisque résidant en France, fut un conseiller de Richelieu qui appréciait ses compétences et son expérience (22) !

Il va sans dire que de semblables symboles morisques, par leur ouverture linguistique et leur connaissance de l'autre, ont créé chez les Maghrébins, que ce soit les pouvoirs politiques, l'élite ou les savants traditionnels, le sentiment d'infériorité, de ne pouvoir

---

(19) Jaime Olivier Asin "Un morisco de Tunis, admirateur de la Lope ; étude du ms. S.2 de la collection Gayangas", in M. Epalza et R. Petit : ***Etudes... op.cit***, p. 211

(20) C. Sarnelli : "El-hajari en France" in, ***Las practicas musulmanes de los moriscos andaluces (1492-1609)***, pp. 81-86, publications de la Fondation Temimi, Zaghouan 1991.

(21) Kitab Nasir Al-Din Ala ' L-Qawm Al-Kafirin, **The Supporter of Religion against the Infidel** critical edition by P. S Van Koningsweld, Al Samarrai and G. A. Wiegers, Madrid, 1997.

(22) Ricau, Asmin : "L'expulsion des Morisques Espagnols en 1610 : ses conséquences dans le Midi français" in, ***Pyrénées***, n° 103-104, p. 17.

confirmer que les particularités propres aux morisques, les ont distingués des maghrébins et des orientaux, nous résumons ici :

- Toutes les sources sont concordantes pour affirmer que les morisques étaient très ouverts sur l'Occident, parlaient beaucoup de langues et dialectes : castillan, aragonais et latin (15) ; ils parlaient la langue espagnole, ce qui nous étonne encore davantage, c'est que l'utilisation de cette langue s'est poursuivie durant plus d'un siècle, après leur expulsion d'Andalousie, comme en témoigne un voyageur français qui a visité le village morisque de Testour dans la Régence ottomane de Tunis, disant : "les femmes et les enfants parlaient couramment et bien la langue espagnole" (16) ; bien plus la communauté morisque dans cette Régence, a osé mener, deux ans seulement après, son installation dans le village tunisien de Tebourba, ouvrir une école pour enseigner l'espagnol, ce qui est considéré, à l'époque, comme un signe très fort et symbolique de cette ouverture linguistique et intellectuelle sur le monde occidental ; je ne crois pas que dans tout l'espace arabo-musulman du Mashrik, un groupe social arabo-musulman, ait eu cette ouverture sur l'Occident, pour enseigner une langue européenne (17) et ce contrairement aux chrétiens du Liban ou de Syrie qui ont pratiqué cette ouverture, explicable pour leurs convictions religieuses.

La pratique de l'espagnol par les morisques, leur permettait d'avoir une connaissance approfondie de la religion chrétienne, de la mentalité, du comportement des Espagnols, comme elle a facilité leur connaissance des mentalités espagnoles et européennes en général (18).

Ces exceptionnelles qualités ont amené les morisques à jouer un rôle de traducteurs officiels dans les palais marocains comme

---

(15) Landa, R. : "Les morisques comme les représentations de la civilisation andalouse au Maghreb" in, ***Métiers... op.cit.***,. p. 202.
(16) Brahimi, Denise, "Quelques jugements sur les maures andalous dans les régences turques au XVIIe siècle" in, M. Epalza et R. Petit, ***Etudes sur les morisques andalous en Tunisie***, publications de l'Institut hispano-arabe à Madrid, 1973, 384 p.
(17) A. Temimi : Etudes... ***op.cit.***, p. 36.
(18) Fatima Rachidi, "La présence des Andalous dans l'armée saadienne" in, ***Mélanges Louis Cardaillac***, T. 2, pp. 575-590, publications de la Fondation Temimi, Zaghouan, 1995.

admis jusqu'aujourd'hui. Espérons que les futures études et recherches dans ce domaine éclaireront cette importante problématique et pourront résoudre grâce à la découverte de nouveaux documents (13).

En effet, les émigrations andalouses en direction de l'espace géopolitique maghrébin, furent fréquentes, régulières avant même la chute de Grenade et ce en raison du passage indispensable des pèlerins par le Maghreb, pour se rendre aux Lieux Saints et ce depuis les premiers siècles de l'Islam ; ils continuaient régulièrement à parcourir le territoire maghrébin, puis l'Egypte où les pèlerins se joignaient à la caravane égyptienne, ce qui leur a permis de bien connaître le Maghreb et l'Egypte, le système de gouvernement érigé au Maghreb, et de bien comprendre la situation économique, sociale et intellectuelle de l'époque ; certains andalous ont préféré s'installer au Maghreb et furent des facteurs d'enrichissement à bien des niveaux (14) ; quant aux réfugiés morisques du début du 17ème siècle au Maghreb et plus particulièrement dans la Régence de Tunis, nous pouvons

---

Voir le récent ouvrage du même auteur : ***Etudes andalouses : recueil de recherches sur l'influence ibérique et la présence andalouse en Algérie***, (en arabe), 422p, Dar-Al-Gharb Al-Islami, Beyrouth, 2003.

(13) Lors du 11ème congrès d'études ottomanes qui a eu lieu dans notre Fondation du 30 septembre au 2 octobre 2004, la question de la répartition des morisques dans la Régence de Tunis et ailleurs, fut soulevée ; le Prof. André Raymond reconnaît que le nombre qu'il a avancé auparavant de 35.000 réfugiés morisques en Tunisie, ne fut pas précis, ni exact ; mais à la lumière des discussions qui ont eu lieu dans notre congrès, le Prof. Raymond appelle à la nécessité de revoir cette problématique. Nous pensons quant à nous, que le nombre des expulsés qui ont trouvé refuge au Maroc devrait être réexaminé et fut certainement plus nombreux que le nombre établi par les historiens voire même plus élevé que le nombre des réfugiés dans la Régence de Tunis et ce pour plusieurs raisons évidentes ; quant aux réfugiés morisques dans la Régence d'Alger, ils sont probablement plus nombreux que le nombre déjà établi par les chercheurs et historiens algériens qui se sont penchés sur cette question !

(14) M. Razzouk, "L'évolution de l'établissement des morisques au Maroc" in ***Religion, identité et sources documentaires sur les morisques andalous***, t. 2, pp 139-154, publications de l'ISD, Tunis, 1984.

M. Razzouk a étudié les implications de la présence andalouse à l'époque Wattasside, citant par exemple un grand nombre de savants et d'hommes politiques, qui ont joué un rôle important dans les domaines militaires et maritimes, rôle ressenti dans plusieurs villes et ports marocains ; bien plus, ils furent derrière la création d'une république morisque à Salé ...

confirme que les expulsés andalous sont au nombre de 275.000 personnes, chiffre admis par la suite par la majorité des chercheurs et historiens (9). A la lumière de ces données, serons-nous en mesure de présenter un tableau de la répartition des morisques expulsés, dans les territoires maghrébins et dans d'autres espaces méditerranéens en Europe, en Anatolie et au Moyen Orient ?

Les études déjà publiées ont confirmé que quelques milliers de morisques se sont installés dans les villes et ports français, italiens et balkaniques, suivant le tableau suivant :

- Trois mille (3000) se sont installés à Livourne à la suite de la sollicitation du Grand Duc, après de pressantes démarches de sa part (10).

- Cinq cents (500) se sont installés à Salonique (11)

- Mille cent (1100) morisques d'Aragon et de Séville se sont réfugiés dans la capitale ottomane, la plupart se sont réfugiés dans les territoires maghrébins :

- Quatre-vingt mille (80.000) se sont réfugiés dans la Régence de Tunis

- Cinquante mille (50.000) au Maroc

- Vingt-cinq mille (25.000) dans la Régence d'Alger, ce qui donne le nombre total de 155.000 morisques.

Si nous acceptions le principe du nombre avancé par Henri Lapeyre, qui est de l'ordre de 275.000, on voit que la différence entre les deux chiffres est de l'ordre de 120.000. Où sont passées les 120.000 autres personnes expulsées ?

Nous pensons que le nombre des réfugiés morisques au Maroc et en Algérie (12), est plus élevé et loin des chiffres connus et

---

(9) D'autres chercheurs ont avancé le chiffre d'un million, d'autres un demi million ; mais eu égard à l'absence de registres qui renferment des statistiques fiables, nous nous contentons du chiffre avancé par l'historien français Henri Lapeyre, qui a utilisé les registres de l'expulsion dans les différents dépôts d'archives espagnoles.

(10) Voir A. Temimi : ***Etudes... op.cit.***, p. 54.

(11) A. Temimi : ***Le gouvernement ottoman et le problème morisque***, pp. 7-22.

(12) N. Saidouni : "Les morisques dans la province d'Alger (Dar-es-Sultan pendant les XVIe et XVIIe siècles) », in, ***l'Expulsion..., op.cit.***, pp. 140-149.

même temps représentants de l'Occident en Orient (4) ; leur sort fut l'expulsion définitive de leur Andalousie et leur refuge pour l'espace territorial du Maghreb (5), mais également tout le territoire de l'Empire ottoman et en particulier en Anatolie (6), en Egypte (7) et aussi en Europe, dans quelques ports et villes français et italiens comme : Livourne, Marseille (8), Bordeaux et même la Hollande.

* * *

Pouvons-nous aujourd'hui, à la lumière des récentes recherches et publications, établir un nombre précis de morisques expulsés et installés sur les rives Nord et Sud de la Méditerranée ?

Rappelons tout d'abord les recherches et les statistiques élaborées par l'historien français Henri Lapeyre dans son étude monographique : ***Géographie de l'Espagne morisque*** et qui

---

(4) Landa, Robert :"Les morisques et le développement socio-culturel de la Méditerranée" in, ***Morisques, Méditerranée et Manuscrits Aljamiado***, pp.83-84, publications de la Fondation Temimi, Zaghouan, 2003.

(5) Nous avons enregistré dans notre ouvrage : ***Bibliographie générale d'études morisques***, 378 p., publications de la Fondation, Zaghouan 1995, toutes les références qui ont traité le déplacement et l'installation des morisques sur le pourtour méditerranéen, lors de leur expulsion définitive en 1609 sous la rubrique : Expulsion ; voir également les diverses répercussions démographiques et économiques à travers plus de deux cent vingt-deux entre études et livres en diverses langues, qui ont traité cette problématique.

(6) Voir notre étude : "La politique ottomane et l'installation des morisques en Anatolie", in A. Temimi, ***Etudes sur les morisco-andalous***, pp. 7-24, publications de la Fondation Temimi, Zaghouan, 1993.

(7) Le Prof. Abderrahim A. Abderrahim, fut le premier à s'intéresser à l'installation des morisques en Egypte ; il a publié un certain nombre d'articles dont nous citons le plus important ici : "Al-Moriscos Settlement in Egypt through the Religious Court Documents of the Ottoman Age" in, ***L'Expulsion del Moriscos consequencies en el Mon Islamic, en El Mon Cristia***, pp 158-163, publications du Ministère de Culture de Catalogne, Barcelone, 1994.

Voir également Salah Ahmed Haridi : "Les andalous : leur vie économique, sociale dans l'Egypte ottomane 1517-1798 : étude de documents des deux villes : Alexandrie et Rashid" in Actes du 10ème congrès d'études morisques sur : ***Morisques, Méditerranée et Manuscrits Aljamiado***, pp. 63-91, publications de la Fondation Temimi, Zaghouan 2003.

(8) Voir notre étude : "Le passage des morisques à Marseille, Livourne et Istanbul à travers de nouveaux documents italiens", in A. Temimi : ***Etudes... op.cit.***, pp. 43-66.

véritable sujet tabou jusqu'à une date toute récente en Espagne (3).

Ainsi depuis trente ans, nous nous sommes engagés à étudier l'histoire des morisques depuis la chute de Grenade en 1492. Nous avons organisé douze congrès internationaux depuis 1983, couronnés par la publication de centaines d'études scientifiques et de 25 ouvrages sur la moriscologie ; notre tâche s'est concentrée depuis, au raffermissement d'études historiques objectives, en utilisant, pour la première fois, des documents arabes et ottomans ainsi que de nouveaux documents puisés des archives espagnoles, dont les fonds sont estimés à quelques millions de documents légués, en premier lieu par l'inquisition ; leur utilisation nécessite un soin très particulier quant aux termes utilisés ou aux arrières pensées et attitudes dissimulées, qui ne sont au fait qu'un fidèle reflet de la mentalité du temps ; en outre nous avons réussi à publier **la bibliographie générale d'études morisques**, considérée comme la première publiée au niveau international et qui a indexé 3577 références, en diverses langues en la matière, couvrant la majorité des études réalisées par les chercheurs internationaux de la fin du XVIe siècle jusqu'à la fin de 1994 sur la moriscologie.

Ne nous arrêtons pas sur les circonstances et les poursuites contre les malheureux morisques, non plus sur leur vie quotidienne et le tragique sort qu'ils ont subi durant plus de cent cinquante années, forcés de renoncer à leur religion, à leur civilisation et niés comme étant les légitimes héritiers de la civilisation andalouse, représentants de l'Orient en Occident et en

---

(3) ***Ibidem***, pp. 34-48, pp. 53-58, p. 65, p. 99. Ce camouflage gratuit s'est perpétué non seulement sur la tragédie des morisques, mais également surtout le passé arabe glorieux de l'Andalousie, que certains historiens, dont l'objectivité laisse beaucoup à désirer, ont tâché de ternir, ainsi qu'un nombre d'hommes politiques dont le but est de minimiser le rôle de la civilisation arabo-musulmane en Espagne et l'exposition de Séville en 1992 a fait table rase de ce grand acquis qui ne fut pas évoqué, ce qui suscite beaucoup d'interrogations sur l'arrière pensée et l'attitude d'hommes politiques qui niet le rôle combien éminent de la civilisation arabe en Andalousie ; dans cette optique s'inscrit la déclaration au mois de septembre 2004, de l'ancien premier ministre espagnol Aznar lors d'une conférence à l'Université de Georgetown aux USA, annonçant que les gouverneurs arabes andalous furent des fondamenlistes, semblables aux hommes d'El Qaida (القاعدة) d'Ousama Ben Laden ! Cette misérable idée de la part de M. Aznar, ne peut susciter que mépris et ignorance !.

LES INFLUENCES MORISQUES DANS LA SOCIETE MAGHREBINE : LA REGENCE DE TUNIS COMME EXEMPLE

Le dossier morisco-andalou avec ses multiples et délicates implications, semble être gommé de la mémoire collective arabo-musulmane, car on se contente de citer quelques faits andalous lors d'occasions politiques éphémères pendant lesquelles on n'a pas le temps de s'attarder sur le tragique sort des morisco-andalous, persécutés par les autorités espagnoles de l'époque, qui ont mené arbitrairement une politique de déracinement des arabo-musulmans andalous en utilisant des moyens diaboliques et inhumains dans le but de les intégrer dans la société catholique espagnole, puis d'en finir avec eux, par l'expulsion de 1609.

C'est ainsi que le dossier des morisco-andalous est éclipsé à tous les niveaux, à commencer par les manuels scolaires au niveau du monde arabo-musulman, ce qui explique l'absence d'informations pour l'opinion publique arabo-musulmane, qui connaît très partiellement cette tragédie ; même les manuels scolaires espagnols jusqu'au décès de Franco en 1975, ne révèlent rien sur le malheureux sort des morisques, " il est presque impossible de trouver en Espagne un seul ouvrage qui a présenté des informations justes sur l'Inquisition, non plus sur les migrations forcées des Morisques de 1492 à 1609 ; bien au contraire un chercheur, annonce que "Frère Hernando de Talavera était un homme extrêmement bon, un saint. Il entreprit son travail de conversion des Maures avec la meilleure foi et des méthodes douces" (1) ! C'est ainsi que l'on a fait l'éloge de l'inquisition, comme instrument extraordinaire pour l'intégration des morisques (les nouveaux chrétiens) dans le devenir de la société espagnole (2) ; car le dossier morisque constituait un

---

(1) Imma Fernandez, ***Al-Andalous au-delà de tous les silences***, p. 58, publications de l'Université de Lausanne, 1996 ; l'auteur s'est référé à Rodrigo De Zayas : ***Les morisques et le racisme d'Etat***, p. 16, Paris, la Différence, 1995.

(2) I. Fernandez, ***op.cit.***, p. 58.

du gouvernement espagnol et l'on reste dans l'espoir d'une réponse favorable à cet appel d'une reconnaissance de l'injustice historique commise à l'encontre de ces Morisques andalous, à l'exemple de la position courageuse adoptée par le président du gouvernement portugais lors d'un congrès tenu à Lisbonne, lorsqu'il demanda officiellement pardon pour tout ce que subirent les Morisques dans son pays.

moitié du XIXe siècle ont eu pour sujet la chute de Grenade, tandis qu'on déplore profondément l'absence d'intérêt pour ce sujet des musées du monde arabo-musulman, des artistes peintres et cinéastes concernés au premier plan. Ainsi, tous ces événements qui peuvent être riches d'enseignement, passent inaperçus dans les tableaux, les films ou les pièces de théâtre comme celle écrite par l'historien Dr. Sultan al-Qâsimî, gouverneur de Charjah, sous le titre *Le procès* et qui fut représentée dans plusieurs villes et diffusée sur les chaînes de télévision arabes.

- L'étude du passé, avec ses atouts et ses complexités, demeure une question essentielle dans ce débat de civilisation et un enjeu de recherche pour le monde arabo-musulman aujourd'hui et pour l'avenir. Maintes fois nous avons appelé à un débat de civilisation responsable et insisté que rien ne peut occulter ou entamer les douleurs du passé lointain ou récent ni empêcher de révéler des vérités historiques quoiqu'elles fussent difficiles ou déplaisantes, suivant en cela notre attachement à l'esprit de tolérance et à la transparence, et travaillant à bâtir pour l'homme arabe et espagnol, un avenir humaniste qui doit être l'idéal vers lequel nous tendons tous. D'autre part, nous continuons à penser que ce qui arriva aux Morisques constitue une grande injustice commise par le fanatisme religieux, l'intolérance et le refus de l'autre et de la différence religieuse, culturelle et nationale ; en d'autres termes, ce fut une sévère et terrible dénégation des valeurs et des apports de la civilisation. Partant de cette conviction, nous avons adressé plusieurs appels à sa Majesté le roi Juan Carlos, ainsi qu'au premier ministre M. Luis Zapatero et au ministre des Affaires étrangères M. Miguel Moratinos, afin d'œuvrer à l'adoption d'une attitude nouvelle plus juste, plus noble, et qui reste un appel à l'honnêteté, à l'altruisme et à la responsabilité mémorielle à l'égard de cette Andalousie croyons-nous chère tant aux Arabes qu'aux Espagnols. Seulement, la fermeté reste sourde face à nos appels, sans même daigner consulter l'avis des historiens espagnols sérieux et méritants, ô combien nombreux aujourd'hui. Ceci est difficilement admissible et je ne peux me résoudre à accepter les positions des politiques espagnols au plus haut niveau qui s'obstinent à refuser toute annonce de repentance, posture regrettable ne servant pas l'avenir des relations espagnole et arabo-musulmane. Il ne fait aucun doute qu'un dialogue apaisé contribuerait à un changement d'attitude

d'expulsion définitive de 1609 ? Incontestablement oui. La présence arabo-musulmane dans une partie de la société espagnole demeura vivace et effective dans les attitudes, les mœurs, les traits physionomiques, au niveau de l'architecture des maisons inspirée de l'art arabo-musulman des débuts et distinct par ses moucharabiehs, ses chambres fermées, ses arbres fruitiers dans les cours intérieures des maisons, les ornements en bois, et jusqu'aux danses populaires avec ses mouvements caractéristiques. Il est important d'insister sur le fait que tous les Morisques ne furent pas expulsés, chose qui d'ailleurs aurait été impossible à mettre en pratique ; or, peu d'études ont été consacrées à cet aspect de la question, pourtant combien de familles nobles et aristocratiques, de chefs militaires et de savants ont été baptisés de force ou ont bénéficié de titres et de postes élevés dans les affaires de l'Etat. Nous avions quelques années auparavant publié une étude de l'historien espagnol Raphaël De Lera Garcia qui révéla qu'en 1727, donc 118 ans après l'expulsion définitive, les tribunaux d'inquisition découvrirent à Grenade cinq prêtres pratiquant la foi islamique en secret, chose qui parait incroyable et prête à réflexion ; pourtant des documents espagnols ont consigné de tels faits et d'autres semblables, et l'ambassade de France à Istanbul avait d'ailleurs noté l'arrivée de plusieurs familles morisques dans cette ville durant le deuxième quart du XVIIIe siècle. D'autre part, jusqu'à la fin du XVIIIe siècle nombre d'administrateurs et de militaires espagnols étaient des morisques qui avaient maintenu quelques pratiques islamiques dans la société andalouse espagnole.

Les fouilles archéologiques se rapportant à l'époque morisque sont rares et ont un faible écho en regard de l'intérêt porté à d'autres époques. Le peu d'intérêt également qu'accorde le gouvernement espagnol à l'héritage archéologique morisque en Andalousie illustre une attitude officielle qui tend à occulter tout un pan de l'histoire de ce pays, preuve en est qu'il n'existe aucun musée dans le monde, pas même en Espagne, qui soit dédié aux traces matérielles de ces Morisques susceptibles d'être une référence pour les recherches en ce domaine ; cette absence est encore une injustice historique qui se perpétue depuis 400 ans. Rappelons au passage que les musées européens et particulièrement en Espagne, abondent de peintures qui ont représenté la chute et les drames de l'exil qui ont suivi, à telle enseigne qu'un tiers des œuvres réalisées durant la deuxième

communauté morisque isolée. D'après les registres d'immigration, les documents municipaux et les chroniques tenues par les chargés des procédures d'expulsion sur lesquels s'est basé l'historien français Henri Lapeyre pour établir ses statistiques, 275.000 personnes auraient été expulsées dans des conditions qu'il est malaisé de rapporter avec fidélité et précision tant elles sont terribles et comportent de mesures injustes et sciemment voulues. Ainsi, il fut interdit à la population morisque d'emporter ses biens ou de les vendre même aux prix les plus bas, et le roi Philippe III alla même jusqu'à défendre aux Espagnols d'acheter leurs terres et leurs maisons sous peine d'être sévèrement punis. D'autres morisques, lors des opérations d'expulsion qui devaient s'effectuer sur des navires espagnols, furent abandonnés dans des villages isolés sans argent ni vivres, et la plupart mourut dans des circonstances tragiques, entourant ces opérations d'expulsion dans les ports de France et d'Andalousie ; certains trouvèrent refuge dans les pays du Maghreb, en France, en Italie, dans l'Empire ottoman Tombouctou et jusqu'en Amérique latine où leurs traces se retrouvent dans nombre d'ouvrages architecturaux comme des universités, des églises, des mairies, des palais d'aristocrates, ainsi que l'a montré l'historien mexicain Manuel Toussaint dans une étude importante publiée voilà 60 ans sous le titre **'L'art ... المدجّن?** en Amérique', à laquelle on porta peu d'intérêt et qui n'est toujours pas traduite en arabe. Toussaint y établit un répertoire détaillé et annoté des lieux historiques fortement empreints de l'art morisque, témoignant de l'influence remarquable de cette communauté sur l'architecture de l'Amérique latine et plus particulièrement en Argentine qui fit l'objet de nombreuses études d'une chercheuse pionnière en cela, le professeur Maria Sagarzazu.

Cela étant, nous pouvons regretter aujourd'hui que les documents de certaines villes de la Méditerranée et bien d'autres n'ont pas fourni d'éléments sur le nombre de ces Morisques, leur présence, leurs traces, leur influence directe dans divers domaines, pas plus d'informations sur leur connaissance de la société espagnole, de sa religion, de ses traditions et de ses conflits internes, ni de leur parfaite maîtrise des deux langues castillane et latine.

Dès lors, une question s'impose d'elle-même : la présence morisque s'est-elle maintenue en Espagne après le décret

Cardaillac sur les supplices quotidiens de ces esclaves, il reste aux historiens chercheurs à approfondir cette question, car nous ignorons encore l'ampleur des calvaires et souffrances vécus par les communautés morisques et plus particulièrement les femmes et les enfants. En effet, la femme morisque fut un élément actif et un ressort de la résistance stoïque des communautés morisques, étant un des ultimes symboles du maintien de la foi, qui fit preuve d'une grande fermeté et de courage face aux tribunaux d'inquisition. Elle continua à porter les vêtements traditionnels tout au long du XVIe siècle alors que l'homme morisque s'en défit très vite pour se parer de l'habit espagnol dès le début du siècle ; de même, certaines d'entre elles se chargèrent des comptes de la communauté musulmane et de l'organisation des réunions du vendredi ; elles jouèrent le rôle de sages-femmes et aidèrent à procéder aux rituels funéraires selon la tradition islamique. Les femmes morisques n'en connurent pas moins un destin douloureux : tombées dans l'oubli, elles subirent des mariages forcés avec des chrétiens de longue date où furent baptisées de force pour une partie d'entre elles, et ce en raison de l'extrême pauvreté qui frappa toutes les catégories de la société et poussa certaines dans la prostitution publique, les condamnant à s'exclure de leur communauté. Ainsi, la femme morisque suppléa avec beaucoup de responsabilité les chefs spirituels dans certains domaines.

Quant aux enfants morisques, ils furent élevés dans la loyauté à l'église dans les lieux consacrés, et on ne lésina pas sur les moyens pour mener à bien le processus d'intégration dans la société espagnole catholique. Nonobstant, il est encore difficile aux chercheurs spécialisés de connaître avec précision le nombre de ces enfants et particulièrement ceux d'entre eux concernés par le décret issu après la décision d'expulsion collective de 1609 selon lequel les enfants de moins de six ans n'étaient pas autorisés à partir avec leurs parents si ceux-ci s'installaient au Maghreb, ce qui obligea plusieurs de ces familles à rester en Andalousie, avec tout ce que cette décision pouvait impliquer de difficultés, de dangers et de menaces.

- Les circonstances des procédures d'expulsion collective en 1609 évoquent elles aussi un autre épisode complexe de l'histoire de l'ostracisme religieux, social, culturel, économique exercé par les autorités espagnoles de manière arbitraire et cruelle envers la

de la terrible **rébellion d'Alpujarras ثورة البشرات** qui dura plus de deux ans dans un contexte et un climat d'hostilité, alors que les rebelles étaient cernés de toutes parts, n'ayant aucun moyen de demander de l'assistance qui leur serait difficilement parvenue. La rébellion fut finalement matée en venant à bout de leurs forces armées et humaines et surtout en épuisant leurs sources de financement. Les groupes morisques prirent une part active dans cette rébellion, en ouvrant de nombreux fronts de résistance, sans oublier le rôle joué par les savants, les hommes de religion et surtout les femmes qui furent tous contraints de quitter Grenade et subirent de lourdes condamnations sous la forme de taxes excessives et d'expropriations.

D'autre part, la somme d'informations dont nous disposons s'est considérablement enrichie au sujet des prisonniers et des prisons, du contrôle religieux qu'exerça l'Eglise pour faciliter les procédures baptismales et les politiques d'assimilation progressive à la société espagnole ; de même que certaines études ont réfléchi sur le tissu social de ces communautés musulmanes, ses résistances et ses exploits ; d'autres se sont intéressées à la démographie et à la société des esclaves expulsés qui ont été vendus sur les marchés et une grande portion d'entre eux concernés par cela nous sont connus à travers l'activité de deux hommes de loi uniquement, exerçant à Grenade au moment de la rébellion d'Alpujarras qui consignaient les actes de vente des esclaves morisques sur les marchés de Grenade et leur nombre. Seulement, nous ne savons pas ce qu'il est advenu d'eux après qu'ils aient été vendus, très probablement ils se sont fondus dans la société espagnole, perdant ainsi toutes traces d'eux, à l'exception de rares documents rédigés en langue aljamiado dans les mairies des villes et villages et rassemblés par les tribunaux d'inquisition ou trouvés dans les maisons de Morisques.

- Des milliers d'autres morisques villageois furent asservis par représailles à leur collaboration aux expéditions maritimes ottomanes sur les côtes andalouses, qui ont réussi à sauver un grand nombre d'entre eux au temps de Khair-eddine Barberousse et de Uludj Ali Pacha, Beylerbeys d'Alger, qui les ont fait passer vers le Maghreb. Si certains de ces esclaves morisques ont eu plus de chance en rachetant leur liberté, d'autres au contraire, une majorité, finirent esclaves jusqu'à leurs jours derniers. Et malgré les détails importants apportés par la thèse du professeur Louis

Désormais, ils étaient complètement exclus, marginalisés à tous les niveaux, et leur esprit d'innovation, leur science et leur culture s'éteignirent. Leurs propriétés furent saisies et ils furent même expropriés de leurs waqfs qui constituaient un pilier essentiel à toutes les dépenses de charité publique et qui jouissaient d'une importance considérable en Andalousie, comme dans toutes les sociétés musulmanes d'alors. C'est ainsi que l'Eglise fit main basse sur toutes les donations et toutes sortes de taxes exorbitantes furent imposées aux malheureux habitants, visant à les étrangler économiquement. Cela alla aussi loin que l'interdiction de résider dans les villes portuaires andalouses pour les couper de tous liens avec les populations du Maghreb. Bon nombre d'aristocrates, de dignitaires et leurs enfants furent réduits en esclavage pour exercer les plus avilissants et les plus durs travaux dans l'intention de rabaisser ce peuple, car les tribunaux d'inquisition ne visaient pas essentiellement l'homme morisque dans sa matérialité, elle projetait bien plutôt de détruire l'être, la personnalité, la culture de cet homme avant tout.

- Les innombrables dossiers, rapports, comptes rendus d'interrogatoires de milliers de Morisques conservés dans les archives des tribunaux d'inquisition dans tout le territoire espagnol, constituent les sources essentielles exploitées par les historiens quoique qu'en nombre infime, et qui nous ont révélé des éléments saisissants et des détails inattendus sur l'ampleur de ce drame humain vécu par la société morisque. On est parvenu à ce jour à localiser des centaines de villages andalous autrefois prospères et totalement disparus des cartes d'Andalousie, de même qu'on connaît plus en détails les pratiques d'autodafés, le pourcentage de personnes qui ont été brûlées vives, leur sexe, leur âge, leur origine, les motifs pour lesquels elles ont été condamnées et qui sont généralement liés aux pratiques secrètes de leur foi dans ses plus simples manifestations. En la sorte, c'est un vrai siège moral qui s'est abattu sur les membres de cette communauté et qui a conduit à condamner nombre d'entre eux à ramer leur vie durant sur les galères espagnoles et à vivre les pires corvées et les exactions quotidiennes qui ont anéanti tout en eux et jusqu'à leur foi, n'ayant pour seule inquiétude que de pouvoir se nourrir. Tout au long du XVIe siècle, beaucoup furent poussés à l'insurrection et à la révolte qui ébranlèrent les responsables politiques et militaires et même la société espagnole. Ainsi des répercussions

au long du XVIe siècle, nous révèle l'extrême tyrannie et l'arbitraire de ces décrets qui méprisaient jusqu'à la moindre valeur de tolérance religieuse telle que prêchée par Jésus-christ lui-même et symbole de civilisation ; tolérance qui d'ailleurs, selon les affirmations d'un éminent historien *chercheur espagnol Raphaël De Lera Garcia* qui, fut largement pratiquée par la société andalouse musulmane avec grandeur et foi. Ainsi, ces décrets sont parvenus, à force d'oppression, à étrangler complètement les Morisques, à les poursuivre dans leur villages et villes et dans leurs foyers, et jusqu'à insinuer l'épiement au sein d'une même famille afin de briser son union et de saper ses fondements. Progressivement, cette communauté perdit son identité, sa langue, sa foi fut affaiblie, en raison des persécutions et harcèlements quotidiens, il ne lui resta plus aucun moyen de fuir cette épouvante dans laquelle elle était précipitée : ses patronymes furent latinisés et plus aucun n'eut le droit de porter des noms arabes et notamment les savants, les docteurs et les précepteurs contraints de porter des noms latins... Il en allait de même pour leurs enfants généralement circoncis : mais lorsque cette pratique était découverte par les tribunaux d'inquisition, ils étaient accusés de pratiquer la foi musulmane et étaient condamnés à différentes punitions, allant jusqu'à être brûlés vifs. Ainsi de leur langue arabe qu'ils n'étaient plus autorisés à apprendre, en conséquence de quoi, des milliers de livres et manuscrits furent brûlés sur la place publique à partir de l'année 1500 et cela a continué tout au long du XVIème siècle et les débuts du siècle suivant ; leurs rencontres, leurs écoles et leurs séminaires furent fermés, et interdiction leur fut faite d'importer des livres du Maghreb ou de l'Orient qui circulaient en réalité clandestinement à travers les caravanes du pèlerinage entre l'Espagne et le Maghreb, elles aussi tenues secrètes. À partir de 1564, les autorités régionales de Valence et bien d'autres dans le royaume d'Espagne, ont émis l'ordre de brûler tous les livres arabes qui seraient trouvés par les tribunaux d'inquisition. On imposa également aux Morisques d'apprendre la langue castillane en trois ans et de ne pas s'exprimer ni de s'adresser les uns aux autres en langue arabe. Ces mêmes tribunaux nous ont laissé maints dossiers d'interrogatoires qu'ils firent subir aux Morisques accusés de détenir chez eux de simples feuillets sur lesquels étaient écrits des noms sacrés de Dieu ou des hadiths, objets de simple dévotion ou recours spirituel dans les moments difficiles.

- L'histoire morisque n'est pas uniquement un événement ou une série de faits ou encore des ententes non respectées ; non plus n'est-elle pas qu'une injustice terrible commise aux dépends des droits d'une communauté. Elle est bien plus que cela, c'est le destin d'un peuple qui a marqué de sa présence l'Andalousie durant neuf siècles, dont les racines y sont ancrées, et qui a su façonner à travers son génie, son innovation et ses arts, une société, une civilisation et une culture éminentes qui comptent aujourd'hui parmi les grandes innovations humaines et plus particulièrement dans l'Espagne musulmane d'alors.

Est-il acceptable de voir l'histoire morisque andalouse refoulée à la marge et qu'elle soit délaissée par les historiens et chercheurs arabes, alors que d'autres portent un intérêt croissant à l'esprit, à la finalité et à l'avenir de la recherche autour de ce sujet d'histoire arabo-musulmane au premier plan ? Cela peut s'expliquer par une extrême indifférence et de l'infidélité à l'égard de ces Morisques longtemps après leur disparition. C'est en quelque sorte une injustice et une responsabilité culturelle que porte la société arabo-musulmane à laquelle échappent quasiment toutes les circonstances minutieuses de la présence arabo-musulmane en Andalousie.

Nombre de chercheurs ont insisté sur certaines questions qui mériteraient une attention nouvelle. Et que l'on se rappelle d'abord que la géographie historique de la population de l'Andalousie mentionne la présence de près d'un million de personne réparties sur tout le territoire andalous à la veille de la chute, et que les vagues d'immigration andalouse ont débuté avant la chute de Grenade et se sont poursuivies de manière régulière tout au long du XVIème siècle pour s'achever avec l'annonce de l'expulsion en 1609. Cela étant, certaines questions comme le nombre de ces vagues de migrations, ses datations imprécises et ses destinations dans l'espace territorial arabo-musulman demeurent obscures. Il reste qu'il est à peu près certain qu'un demi million d'habitants a été forcé de quitter sa terre andalouse entre 1485 et 1615, et qu'un nombre égal de population a été totalement intégré dans la société espagnole après que les baptêmes lui furent imposés de manière violente et qu'il fût forcé de renier ses valeurs.

En effet, une étude minutieuse de tous les décrets émanant des pouvoirs politiques, religieux et de la haute administration tout

arabes et internationales furent informées de la création de ce Centre mais notre invitation à y participer et à le soutenir resta sans échos. Nous continuons néanmoins de travailler méthodiquement à donner toute sa place aux études et à la mémoire morisques.

****

Cela dit, nous tenons à préciser l'immense soin et l'intérêt que nous portons à l'histoire des Morisques, sujet quasi absent des centres, des universités et des instituts arabes et musulmans dans leur ensemble ainsi que de leurs opinions publiques. L'Andalousie étant de fait devenue, à l'instar de la Palestine aujourd'hui, l'objet de poncifs démagogiques, loin de toute ambition de recherche. Là-dessus, nous allons évoquer quelques-unes des conclusions auxquelles sont parvenus chercheurs et historiens toute nationalités et convictions confondus dont nous avons publié les études dès les premiers congrès que nous organisions voilà 27 ans:

À voir de près la production arabo-musulmane, rare il faut le dire, dans ce domaine, on se rend compte que le traitement de cet événement, certes dramatique, est empreint de sentimentalisme ; il en est ainsi de l'obligation faite aux communautés musulmanes de renoncer à leur religion, des baptêmes imposés, de la surveillance, des restrictions et des autodafés qu'elles ont subis. La chute de Grenade le 2 janvier 1492 marqua l'amorce d'une fin de la tragédie d'un peuple dans son ensemble, condamné successivement lorsque fut déclarée la guerre contre ses lieux sacrés, sa langue, sa religion, son patrimoine, sa civilisation, et que durant cinq générations entières toutes les lois, les décrets religieux et administratifs ont, pour faciliter la tâche de milliers d'administrateurs, de fonctionnaires, de délateurs et de militaires espagnols, employé tous les moyens et de façon systématique et perverse pour anéantir cette communauté morisque musulmane, la déposséder de son identité andalouse ô combien emplie des plus belles vertus et de principes élevés, et dont la civilisation a enregistré d'inestimables réalisations. De telles allégations abondent dans la quasi totalité des ouvrages arabes dans des rhétoriques différentes, et qui ont pour seules sources soit des écrits arabes anciens, soit qu'elles s'inspirent de traductions d'ouvrages parus en Occident, ou bien de quelques productions scientifiques enregistrées dans les universités et les centres de recherches occidentaux principalement.

références, outil indispensable à tout chercheur. Nous espérions poursuivre ce travail minutieux de répertoriage des études de moriscologie à travers le monde, en publiant un deuxième volume de la bibliographie générale, si ce n'est que divers obstacles nous en ont retenu. Quoiqu'il en soit, l'université d'Oviedo publie une revue, l'*Aljamia*, qui rend compte des études parues en Europe, sans toutefois faire mention de celles publiées dans les mondes arabe et musulman aussi bien qu'en Inde en Russie et au Japon où l'on trouve des chercheurs spécialisés qui ont répondu favorablement à l'invitation pour prendre part à certains de nos congrès.

Sixièmement : Nous avons mis à profit un appréciable fond d'archives nouveau, à savoir des documents ottomans d'Istanbul et des manuscrits rédigés en langue arabe, deux sources dont il n'est pas fait mention dans les études européennes et américaines, quand le sens et la rigueur académique exigent de tout chercheur et historien de ne pas omettre une telle chose et de tenir compte des sources qui le méritent, à l'instar de ce que nous avons fait en publiant les études qui nous parvenaient et qui ont permis de réfléchir à des sujets liés à l'histoire du monde ottoman. D'autre part, les archives de Venise, de Florence et de Paris, ont révélé des documents fort intéressants mis au jour dans nos propres études, en signalant au passage que les archives de Venise et du Vatican comptent parmi les riches du monde occidental ; or, elles n'ont pas pour autant retenu toute l'attention des chercheurs, l'on se contenta simplement des répertoires d'archives, espagnols certes très riches.

Enfin : Nous avons entrepris au sein de notre Fondation de traduire vers l'arabe des centaines d'études et certains ouvrages rédigés en langue espagnole et française, fort nombreux du reste. Seulement, peu de centres, d'universités ou d'instituts arabes et musulmans ont accordé l'importance qu'exigeait un tel dossier. Au contraire, nous avons remarqué une négligence inqualifiable et inadmissible.

Partant, nous décidions au mois de mai 2009 de créer un centre *de Traduction d'Etudes Morisques* ainsi que des modifications et restructurations furent apportées au *Comité International d'Etudes Morisques* (CIEM) qui sera chargé d'organiser les congrès, d'entreprendre les traductions et les rencontres internationales de ce Centre. Plusieurs personnalités

Deuxièmement : L'invitation a été ouverte à tous les spécialistes mondiaux sans exception, et en particulier à la nouvelle génération d'entre eux, chercheurs et chercheuses, quelque soit leurs nationalités ou leurs croyances religieuses ; ainsi, un cadre idéal et prometteur fut dédié à ces études, tandis que répondaient à nos invitations des centaines d'historiens et chercheurs soucieux de faire avancer le savoir d'où qu'il vient, si bien que depuis 1983 de nombreux laboratoires scientifiques virent le jour hors d'Espagne, ne faisant plus de l'Occident, l'unique pôle scientifique pour tout ce qui touche aux études morisques ; citons à titre d'exemple deux laboratoires, ceux de l'Université de Porto Rico et notre Fondation qui, très vite, de manière effective et avec une vue d'ensemble, ont tous deux travaillé au développement de ces recherches en rendant compte des réalisations de chercheurs et historiens spécialistes de la moriscologie.

Troisièmement : En lançant pour la première fois le concept de moriscologie qui consacrait cette spécialisation, celle-ci a su attirer des centaines de chercheurs de la nouvelle génération, européens, américains et arabes, en contact constant avec notre Fondation, si l'on excepte une minorité d'historiens occidentaux agacée par la tenue régulière et assidue par notre fondation de colloques internationaux auxquels participent de nombreux chercheurs depuis près de 27 ans, et particulièrement lorsqu'ils sont couronnés par la publication de toutes les études qui nous parviennent en langue espagnole et française essentiellement. Cette importante réalisation de la part d'une Fondation académique non européenne a réussi et continue d'instaurer un dialogue entre ces nombreuses études, signe positif qui témoigne de la vigueur de tous ces travaux portés par des pionniers internationaux de ces recherches en moriscologie.

Quatrièmement : Un hommage a été rendu à quatre chercheurs et scientifiques euro-américains, à commencer par le français Louis Cardaillac, l'espagnole Maria Solidad Urgoiti, la portoricaine Luce Lupez Baralt et enfin l'espagnol Galmes de Fuentes, pionnier des études morisques depuis 1972 au sein des universités d'Oviedo et de Madrid.

Cinquièmement : Nous avons pour la première fois en 1994 entrepris la publication d'un travail de répertoriage regroupant une ***Bibliographie générale des études morisques*** qui compte 3577

BILAN ET ORIENTATIONS D'ETUDES MORISQUES (1983-2009)

Nous nous proposons ici de faire un exposé, aussi succinct soit-il, des travaux réalisés depuis 27 ans dans le cadre des activités de la Fondation qui, régulièrement et avec grand intérêt, ont accordé une place privilégiée aux études morisques, mais avant d'aborder ces travaux et les futures orientations, voici quelques considérations préliminaires :

Premièrement : Nous avons veillé à organiser chaque deux ans un congrès international consacré à un thème spécifique autour de problématiques telles que : les pratiques morisques de l'islam, les métiers des morisques, la vie religieuse, la commémoration des 500 ans de la chute de Grenade, les femmes et les enfants, l'image des Morisques dans les arts et la littérature, les nouvelles méthodologies à adopter dans cette spécialisation, les Morisque et la Méditerranée, les arts des Morisques et leurs influences en Tunisie et en Amérique Latine ; d'autres thèmes aussi comme la langue et la littérature morisques, les dimensions idéologiques et intellectuelles dans la littérature aljamiado, ou encore la politique des tribunaux d'inquisition ; enfin un congrès en guise de commémoration des 400 ans de l'expulsion forcée des Morisques d'Andalousie auquel ont participé 55 chercheurs de divers pays. Quant au quinzième congrès qui se tiendra prochainement au mois de mai 2011, il se propose de traiter la question des répercussions politiques, des retombées économiques et des effets sociaux de la présence morisque et dans les villes du pourtour méditerranéen et en Amérique Latine.

Tous ces congrès ont donné lieu à quelques 600 études publiées essentiellement en langue espagnole, mais également en français, en arabe et en anglais, ce qui représente un fond non négligeable pour les études morisques et ce grâce au rôle de la Fondation en tant qu'institut académique maghrébin au niveau mondial depuis plus de trois décennies environ.

Document N° 4

CASA DE S. M. EL REY

EL SECRETARIO GENERAL

Palacio de La Zarzuela
Madrid, 25 de febrero de 2009

Professeur
ABDELJELIL TEMINI
Président de la Fondation Temimi pour la
Recherche Scientifique et l'Information
Centre Urban Nord - Immeuble Al-Imtiaz
1003 T U N I S (Tunisie)

Estimado Profesor:

Me complace acusar recibo de la carta que, por intermedio del Señor Mohamed Abdelkafi, dirigió a S.M. el Rey el pasado día 3, en la que le informa de la celebración del Congreso que, con ocasión del 400 Aniversario de la expulsión de los Moriscos de España (1609-2009), tendrá lugar en Túnez del 20 al 23 de mayo próximo, al tiempo que manifiesta el deseo de que Su Majestad participe en el mismo.

Su Majestad agradece su amable invitación y me encarga que, en Su nombre, el envíe un cordial saludo, con el deseo de que el Congreso constituya un éxito y le informe que, lamentablemente, Su agenda se encuentra ocupada en las citadas fechas con otras actividades, circunstancia que nos impide incluir en ella nuevos compromisos.

No obstante, siguiendo instrucciones de Su Majestad, he trasladado su atento ofrecimiento al Señor Ministro de Asuntos Exteriores y de Cooperación, por si pudiera atenderlo.

Al cumplir el encargo de Su Majestad, le saluda atentamente,

RICARDO DÍEZ-HOCHLEITNER RODRÍGUEZ

JK

papel civilizacional del Andalus, y ve que el Anadalus fue un puente principal para crear la tolerancia y la convivencia, y que España hoy tiende a establecer relaciones con el Mundo Arabe. Pero notamos que su Majestad el Rey de España no ha aludido en su discurso a la tragedia y a la expulsión de los moriscos andalusies, porque hubieron de abandonar cuando la razón de Estado se impuso a la razón a secas según dice el Rey.

Hoy, creemos que esta ceremonia es muy positiva e interesante, y que el discurso de su Majestad el Rey se considera como un nuevo fundamento para establecer nuevas relaciones. Pero esperábamos que aludiera a aquel período crítico, cuando los tribunales de la Inquisición torturaron a los moriscos y causaron su tragedia, la tagedia más dura que conoció la humanidad durante el Renacimiento.

La lección que podemos sacar hoy, es la obligación de tener a buenos académicos árabes al lado de los arabistas españoles, para fortalecer la cooperación científica entre los centros de investigación y las universidades españolas.

Pero ¿ Cuando se pone el Mundo Arabe en esta vía verdadera ?

Abdeljelil Temimi

ACERCA DEL DISCURSO PRONUNCIADO POR SU MAJESTAD EL REY DON JUAN CARLOS, EL MIERCOLES PASADO EN MEDINA-AZAHARA, CORDOBA

Abdeljelil TEMIMI

Las relaciones políticas, económicas y culturales entre el Mundo Arabe y España son transparentes y claras. El Mundo Arabe ha dado una importancia especial a España, como reconocimiento al surco civilizacional y espiritual que, unió la historia de ambas naciones, ya que la nación árabe había otorgado a España, durante la Edad Media, los centros de sabiduría más importantes, que participaron de manera directa en el enriquecimiento y el fortalecimiento del diálogo entre civilizaciones, culturas y religiones.

También nos ha presentado el Andalus árabe ejemplos magníficos de tolerancia y creencia en las capacidades del hombre para elaborar la civilización humana.

Teniendo en cuenta la presencia árabe-islámica en España a través de los monumentos, y como reconocimiento a aquellos que colaboraron en la historia con su sabiduría, sus descubrimientos y su inteligencia, vino la Inquisición española para desarraigar a este pueblo árabe-español de su tierra y echarle fuera de la Península Ibérica, y con motivo del V Centenario de la caida de Granada (1492-1992), hemos organizado un coloquio internacional muy importante en Túnez y en Zaghouan acerca de este tema, en el que participaron alrededor de cien especialistas y académicos ; y ha sido cuando ante la inauguración y con la presencia del embajador de España en Túnez, pronuncimaos el siguiente llamamiento a su Majestad el Rey de España :

"Sabemos que su Majestad está preparando una norma significativa y simbólica para abolir la ley de la expulsión de los judios de España, que decretaron el día 31 de Marzo de 1492. Si esto es cierto, y para fortalecer las buenas relaciones árabe-españolas, y reconocer el papel que desempeñó el-Andalus para la elaboración de la civilización humana, pensamos que si el Gobierno español hoy toma medidas y tiene en cuenta el hecho histórico de la expulsión de los moriscos y de su tragedia, esto tendrá importancia y transcendencia, sin olvidar que España fue sede del Congreso Internacional para la paz".

Efectivamente, pronunció su Majestad el Rey un discurso histórico en Madrid, el día 31 de Marzo de 1992, que la prensa judía lo propagó en todo el mundo ; y el Gobierno español ha decidido que el Rey pronunciara un discurso el día 4 de Noviembre de 1992 en Medina-Azahara, Córdoba.

A esta ceremonia han asistido algunos arabistas españoles, que se interesaron por la civilización árabe-islámica en el Andalus también cinco académicos árabes y todos los embajadores árabes instalados en Madrid.

Se han pronunciado tres discursos, el del gran arabista Emilio García Gómez, el del Secretario General de la liga de los paises árabes, y al final el de su Majestad el Rey Don Juan Carlos. El Rey en su discurso ha subrayado el

una aproximación entre las Partes que haga posible una paz justa y global en esta turbulenta región.

Al-Andalus son hoy, también, nuestros compatriotas musulmanes, que forman parte de un proyecto de vida en libertad y respeto a sus creencias, como el resto de los ciudadanos de un país democrático, a los que su Rey admira por su entrega al esfuerzo común y solidario.

Nos preocupa el drama humano de los que emigran, empujados por la necesidad, aún a riesgo de la propia vida que, a menudo conduce a una vida marginal, a personas que sólo aspiran a una vida mejor para ellos y para sus hijos.

Pero ello, agradecemos los esfuerzos que se hacen para controlar el problema, al tiempo que continuamos con los nuestros en favor de una mayor atención europea hacia nuestros vecinos del Sur, a los que deseo reiterar hoy nuestra voluntad de compromiso al servicio de un mundo mejor para todos.

Al-Andalus es hoy paradigma en lo que, permítanme usar un anacronismo, tuvo de respeto a los derechos humanos, a las más íntimas creencias, en la ausencia de discriminación por motivos religiosos o por diferencias étnicas.

Es un espíritu que desearíamos ver fructificar hoy frente a las intolerancias excluyentes de ciertas ideologías producto de un malestar socio-económico y político que aflora ultimamente con especial virulencia.

Por eso, Al-Andalus, debería ser también un proyecto para el porvenir, basado en el reconocimiento de los lazos que nos han unido en el pasado y, sobre todo, en los que queremos tender en pos de realizaciones comunes euro-árabes, como pueblos que miran hacia adelante con espíritu positivo ; con confianza en la capacidad de sus gentes para afrontar las múltiples dificultades de nuestra época.

Al-Andalus queremos que quede representado en nuestros días con proyectos como el de la Universidad Euro-Arabe, en cuya puesta en marcha estamos comprometidos. Una Universidad en la que jóvenes del mundo árabe hallen respuesta a sus ansias de conocimiento y desarrollo intelectual, en estrecha convivencia con compañeros de diversos países europeos.

Al-Andalus debería ser el modelo para construir un nuevo marco de relación en el área mediterránea. Seguiridad, cooperación y dimensión humana son elementos esenciales de esta nueva convivencia entre todos los países de la zona.

Sólo erradicando los males de la inseguridad, fortaleciendo la cooperación económica y financiera y promoviendo el diálogo cultural y la tolerancia de creencias y comportamientos, podermos construir un nuevo espacio de paz y estabilidad.

Esta es la nueva meta del nuevo Al-Andalus que nos hemos planteado hacer juntos, y a ella les invito a sumarse.

Salam Alaicum

conocimientos astronómicos y de las técnicas de navegación andalusíes. Y que -no olvidemos- hicieron también posible el Renacimiento europeo, salvando del olvido los textos de los grandes pensadores y científicos de la antigüedad greco-latina.

Al-Andalus, en fin, tiene para todos los que hoy nos reunimos en este glorioso recinto de Medina Azahara, unas connotaciones casi legendarias en el pasado, ligadas a una época de esplendor de una civilización, en ningún sitio mejor plasmada que en estas piedras milenarias que ahora nos acogen. Ligadas también a nombres excelsos como Averroes, Abulcasis, Abulhazam o Abenzaidún, de quienes nos sentimos igualmente orgullosos árabes y españoles.

Pero, por encima de glorias, siempre efímeras, yo quiero destacar lo que ha permanecido espiritualmente, lo que tras siglos de menor entendimiento y mayor intolerancia, continúa siendo nuestro más positivo bagaje común : el espíritu de parentescos y de vivencias compartidas durante largos periodos de fructíferos intercambios y mutuas influencias.

Es cierte que los españoles de nuestra época han vivido, sin saberlo, en contacto permanente con lo árabe, a través del uso continuado de una lengua moldeada con vocablos andalusíes, o de costumbres populares y artes tradicionales, excepcionalmente bien conservadas.

Como lo es, igualmente, que comunidades árabes, descendientes de aquellos laboriosos moriscos que hoy habitan en ciudades de tradición andalusí, como Fez o Testur, han mantenido, con fidelidad digna de encomio, las llaves de sus casas toledanas o cordobesas, que hubieron de abandonar cuando la razón de Estado se impuso a la razón a secas.

Pero estos sentimientos de fidelidad a su pasado andalusí, que nos hacen percibirlos más próximos, no pueden hacernos olvidar que, en ocasiones, la nostalgia de la historia pueda ocultar la realidad.

Porque la historia, como puso de manifiesto hace seis siglos Ibn Jaldún, nos debe situar en la realidad mediante la verificación de los hechos y la investigación de las causas que los han producido. Y esta realidad es la que queremos abordar con el espíritu más positivo que nos sea posible. Una realidad de esperanzadores proyectos en común, que deseamos impulsar en el presente y que confiamos en que se multipliquen en el futuro.

Al-Andalus es hoy, por ejemplo, el espacio común mediterráneo, en el que es posible nuevos encuentros por la vía de la cooperación en el ámbito cultural, técnico y científico, que abra nuevas sendas para el trabajo y la ilusión entre los pueblos que comparten sus riberas Norte y Sur.

Con esta vocación, España acogió hace ahora justamente un año en Madrid la Conferencia de Paz sobre Oriente Medio, que sentó a la misma mesa a las Partes enfrentadas desde hace cuarenta años. En ese sentido, la Conferencia de Madrid ha significado un cambio cualitativo en la historia diplomática de Oriente Medio. Hoy, la Conferencia continúa en forma de reuniones bilaterales y multilaterales, y mi país prosigue sus esfuerzos con la finalidad de apoyar

DISCURSO DE S.M. EL REY EN EL ACTO INSTITUTIONAL AL-ANDALUS.

La Reina y yo compartimos emocionadamente con estedes, estos momentos de celebración de Al-Andalus 92, en un entorno tan significativo como este recinto de Medina Azahara.

Nuestra satisfacción es tanto mayor por poder contar, en esta ocasión, con la presencia entre nosotros del Secretario General de la Liga de los Estados Arabes, Sr. Esmat Abdel Meguid, así como con la de los ilustres representantes diplomáticos del Mundo Arabe acreditados en España y de importantes personalidades del mundo académico y cultural hispano-árabe. También deseo agradecer la presencia entre nosotros del Alcalde de Damasco, ciudad que vio el esplendor del Califato Omeya, uno de cuyos miembros viajó hasta este Finisterrae occidental para fundar en esta hermosa ciudad de Córdoba lo que fue seguramente el más importante foco político y cultural de la Alta Edad Media europea.

Hablar de Al-Andalus desde el lugar en el que me encuentro ahora, resulta sencillo porque todo lo que nos rodea parece impregnado del esplendor de la civilización hispano-árabe, que se da cita en esta ladera en la que se asienta Medina Azahara y que encierra, como quizá ningún otro lugar, el espíritu andalusí que fue, esencialmente, una disposición vital para el encuentro, para la convivencia.

La España árabe y sus aportaciones al patrimonio cultural y científico de la humanidad, a cuyo redescubrimiento ha dedicado su esfuerzo, durante cinco años, el Grupo de Trabajo Al-Andalus 92 de la Comisión Nacional Quinto Centenario, son ahora mejor conocidas y eso nos llena de honda satisfacción.

Durante este periodo, las reuniones científicas, las exposiciones que han mostrado al mundo las excelencias del arte o las aportaciones a la ciencia y la tecnología de los sabios andalusíes ; las publicaciones que, sobre el significado de este período histórico, se han ido editando, han resaltado los aspectos más relevantes de la época de convivencia de nuestras dos culturas, que han dejado su impronta en españa de forma imperecedera.

Al-Andalus fue, como se ha puesto de manifiesto por voces autorizadas de la historiografía árabe y española, el encuentro de pueblos que habitaban el mismo espacio vital, que durante siglos se acostumbraron a compartir y disentir, sin que se perdiese el respeto a la diversidad. Diversidad de formas, de vida, de creencias, de proyectos políticos, pero simbiosis de culturas, de costumbres y de lenguas.

Fue, también, como no podía ser históricamente de otra manera, lugar de confrontación ideológica, sin que, salvo contadas excepciones, la convivencia se perturbara en el vivir cotidiano.

Este fructífero encuentro de culturas y civilizaciones distintas dio lugar a un periodo histórico de enorme riqueza, que llevó a la cumbre de su época el progreso científico y el desarrollo del pensamiento racional y libre que hicieron posible las grandes gestas del Descubrimiento, deudoras de los

réellement regrettable. Y a-t-il aujourd'hui entendeur de ce nouvel appel ?

La Tunisie continuera d'adopter sa magnifique politique de tolérance, dont elle fit preuve en accueillant cent mille Morisques (oui, cent mille Morisques au début du 17ème siècle !) auxquels elle fournit un cadre légal. Nous saisissons cette occasion pour affirmer notre engagement à vivifier la mémoire andalouse. Notre Fondation continuera à mener ce combat malgré la démission de tous et l'indifférence de tous face à ce dossier. L'histoire sera témoin.

politique de l'Inquisition. Cette dernière a œuvré à complètement estomper la mémoire andalouse. A partir d'une prise de position scientifique, nous avons adressé depuis des années plusieurs courriers à Sa Majesté le Roi Juan Carlos d'Espagne, le priant de bien vouloir prendre en considération notre nouvelle sollicitation de revoir la position face à la tragédie des Morisques. Sa Majesté a eu la bienveillance de nous répondre tout récemment. J'ai alors compris que les autorités espagnoles étaient conscientes de la problématique de notre sollicitation d'adopter une prise de position nouvelle.

Suite au courrier de sa Majesté le roi d'Espagne, nous espérions beaucoup, ces dernières semaines, qu'un haut responsable espagnol honore notre congrès international de sa présence afin d'adresser un message qui assure à tous que l'Espagne d'aujourd'hui n'est pas celle d'hier et que l'héritage légué par la civilisation andalouse, présent avec force sur son sol à travers les différents monuments réalisés au long de huit siècles de présence arabo-musulmane, est une fierté pour toute l'Humanité. Si les événements du passé ont voulu que la décision de l'expulsion forcée et massive des Morisques de leur pays, l'Andalousie soit prise, nous continuons de penser que l'Espagne d'aujourd'hui, qui croit à l'alliance des civilisations, est tout à fait capable de prendre la décision de reconnaître la tragédie qui a touché les Morisques. Ceci est une dette de civilisation que nous persisterons à réclamer. C'est ce qui nous a poussé à adresser ce message à tous les dirigeants, organismes et centres du monde arabo-musulman ; continuer à ignorer ce dossier porte préjudice à la civilisation andalouse que nous avons oubliée durant quatre siècles. Nos dirigeants, centres et organismes n'ont adopté aucune position qui serait susceptible de sauver l'héritage andalou de l'oubli et qui fait honneur à tous. Le souvenir de l'ancien Secrétaire Général de l'Organisation de la Conférence Islamique, feu Habib al-Chatti, est toujours présent, lui qui avait, à l'époque, soutenu notre démarche par respect et fidélité envers l'histoire andalouse. Il avait tenu à assister personnellement à l'un de nos congrès scientifiques, faisant l'éloge de l'histoire andalouse et invitant à continuer à la revivifier aux niveaux arabe et musulman. Ceci était son message que nous avons diffusé et qui n'a pas été suivi par ses successeurs, lesquels, malgré nos nombreuses invitations, n'ont pas daigné nous répondre, ce qui est

UNE TRAGEDIE PERPETUELLEMENT OUBLIEE DU MONDE ARABO-MUSULMAN : L'EXPULSION DES MORISQUES (1609-2009)

Nous avons réussi à organiser 13 congrès internationaux sur les études morisques où 650 textes ont été publiés, principalement en espagnol mais également en français et en arabe. Des dizaines de chercheurs maghrébins et internationaux de la nouvelle génération ont tenu à y participer, ce qui prouve l'intérêt nouveau dont bénéficie cette spécialité au niveau mondial. Afin de perpétuer cette tradition scientifique, nous avons adressé depuis le mois de mai 2007, au nom de notre Fondation et du Comité International d'Etudes Morisques, une invitation pour participer au quatorzième congrès que nous avons décidé d'organiser pour commémorer le quatrième centenaire de l'expulsion des Morisques d'Andalousie (1609-2009).

De nombreux chercheurs ont répondu favorablement à notre appel, unis dans le souci d'approfondir la connaissance de cette problématique historique encore insuffisamment traitée, surtout à la lumière des nouvelles découvertes d'archives et de manuscrits européens, arabes et ottomans ; unis également dans le souci de trouver des créneaux de dialogue et de partenariat scientifique avec les différents chercheurs internationaux.

Nous ne pouvons que remercier ces chercheurs pour le soutien renouvelé qu'ils nous manifestent depuis 25 ans, contrairement à un autre groupe de chercheurs occidentaux qui ont planifié la tenue d'un congrès parallèle à Grenade trois jours avant le nôtre. Je pense que ce comportement ne sert ni la transparence ni le partenariat scientifique euro-arabe !

La moriscologie, en tant que spécialité, nécessite la création de dizaines de laboratoires de recherche en Espagne, dans les deux Amériques et dans le monde arabe. Nous relevons l'émergence de nombreux chercheurs venant d'espaces nouveaux tels que l'Inde, le Japon, le Pakistan et d'autres pays qui commencent à s'intéresser à ce champ de recherche. Notre congrès portera sur la tragédie morisque dont l'origine n'est autre que la terrible

langue castellane mais écrite en alphabet arabe ! Mais le plus surprenant, c'est que lors d'une visite à Porto Rico, je découvrais le plus grand laboratoire de littérature aljamiado dirigé par la professeur Luce Lopez Baralt, passionnée par cette littérature et qui publia déjà une vingtaine d'ouvrages dont le dernier au sujet de la littérature secrète des Morisques en 2009. Nous devons absolument s'atteler à la traduction de ces ouvrages. Il y a également 22 ou 24 chercheurs spécialistes de la littérature morisque qui publièrent beaucoup de choses tels Salvatore Arifolo qui travailla abondamment sur la tragédie morisque, Maria Narvaez de l'université de Porto Rico etc...

Par ailleurs, des manuscrits morisques ont été découvert aux bibliothèque turques, à l'université de Provence, dans la bibliothèque Méjanes en France.

Pourtant, avec tout cela, nos connaissances sur le sujet restent maigres, malgré les 650 études que nous avons publiées et les milliers d'autres études publiées par les moriscologue à travers le monde. J'appelle une nouvelle fois à appuyer notre projet du centre d'études et traductions morisques. Le monde arabe possède des gratte-ciels en grand nombre, il a investi des sommes colossales dans la création de centres en Europe et finance des universités un peu partout dans le monde. Mais ce monde arabe ne se préoccupe pas de son histoire propre et c'est bien regrettable.

Ajouté à cela, il existe des centaines de thèses universitaires en espagnol, en français et en anglais sur les Morisques qui ne sont pas encore ni publiées ni traduites et aussi d'autres travaux de grands chercheurs à travers le monde. C'est une tragédie qui résiste à l'oubli et que ne saisissent pas encore les dirigeants, les intellectuels et la société civile arabe et musulmane, ou plutôt, ils ne perçoivent pas encore les tréfonds et la portée de ce dossier sensible et ce qu'il est de leur devoir d'entreprendre. Ceci est un message que nous tentons de transmettre à tous depuis 40 ans.

A. T. : - Certainement pas sur la base de la Moriscologie. La Moriscologie est un domaine de recherches précis et redoutable pour l'Espagne. En effet, je ne pense pas qu'un jour la Moriscologie devienne la mesure d'une cohabitation ou d'un dialogue. La vraie mesure c'est l'héritage de Abdel Rahman Ier, des rois des Taifas, et cela constitue l'aspect positif susceptible de créer la base d'une conciliation dont beaucoup de sages en Espagne sont conscients.

D'autre part, je ne pense pas que la Moriscologie soit une discipline dépréciée par les Espagnols. Et il est de notre devoir de l'étudier et de montrer tout cela au monde arabo-musulman en les mettant en garde que d'autres 'Andalousie' les attendent s'ils ne prennent pas conscience de ce qui arriva aux Morisques andalous. Les Espagnols écrivirent beaucoup sur les Morisques, mais leurs écrits comportent des aspects très discutables. Je souhaite que les cinéastes arabes se plongent dans l'histoire de cette tragédie et la transmettent au monde afin que les leçons en soient tirées en toute objectivité. En vérité, nous ne savons pas grand chose de cette tragédie hormis ce qu'en rapporta Ibn al-Randi. J'attire l'attention néanmoins sur la pièce de théâtre écrite par le sultan El-Cheikh al-Qasimi sous le titre 'La cause' et qui a été diffusée sur des chaines télévisées.

Il existe de très nombreux documents sur la tragédie des Morisques non encore étudiés, ainsi que des registres entiers des tribunaux d'Inquisition au sujet de personnes contraintes au blasphème leur vie durant et mortes dans de terribles conditions. Le monde arabe a une dette envers ces personnes. Il ne suffit pas d'être fier de la civilisation arabo-musulmane en Andalousie dans sa période glorieuse, il est de notre devoir de se pencher sur l'histoire des descendants de ceux qui ont fait cette civilisation !

J. F. : Vous êtes-vous penché sur les écrits des Morisques eux-mêmes sur leur tragédie et leur cause ?

A. T. : - Bien entendu. J'ai publié sur ce sujet : j'ai trouvé deux documents des derniers Morisques datant de 1588, ils rédigeaient alors leurs écrits en castillan, mais avec des lettres arabes. Ils y exprimaient leur drame et ce qu'ils subissaient de la part des tribunaux d'Inquisition. De cette littérature qu'ils nous ont légué, nous disposons de pas moins de 300 manuscrits désignés sous le nom de 'littérature aljamiado', c'est-à-dire une littérature écrite en

de leur civilisation à travers l'histoire. Je n'ai nul besoin de rappeler que la Renaissance occidentale a puisé dans les sources intellectuelles andalouses à travers les milliers des documents et manuscrits traduits de l'arabe vers les langues occidentales, et cela dans tous les domaines du savoir, et ce sont les Européens eux-mêmes qui le disent. Averroès n'est qu'un exemple parmi tant d'autres dans divers domaines : la philosophie, les sciences, l'arithmétique, la logique, les arts. Tout cela témoigne de l'héritage commun entre les deux peuples. Bien entendu, les Espagnols ont apporté leur pierre à cet héritage andalous, mais c'était d'abord un héritage arabe. Renier ce passé est une véritable tragédie pour les Occidentaux autant que celle du refus de s'excuser devant l'histoire du sort subi par les Morisques andalous. Pour ne donner qu'un exemple de la rancune que certains d'entre eux portent encore aujourd'hui. Le 3 octobre 1571 eut lieu la bataille navale de « Lépante » entre les flottes alliées de l'Espagne, la République de Venise et la Papauté d'une part, et la flotte ottomane de l'autre. Ce fut la première victoire navale de l'Occident contre les Ottomans qui perdirent les trois-quarts de leurs navires. En Espagne, ils marquent encore l'anniversaire de cette bataille en faisant sonner les cloches des églises pour célébrer la victoire contre les musulmans. Cela pour vous donner une idée d'une certaine mentalité qui reste présente. Comme l'a dit un poète arabe ancien : les rancœurs demeurent vivaces dans les cœurs, même après que les herbes folles ont couvert les tombeaux des hommes.

Ce sujet embarrasse les Espagnols, certes, mais il y a des Espagnols consciencieux qui refusent ces postures quand bien même ils ne sont pas nombreux.

J. F. : Parmi ces Espagnols, sans doute l'historien espagnol Américo Castro qui affirme dans son grand ouvrage sur l'histoire de l'Espagne que celle-ci n'aurait pu se faire, ni la nation espagnole moderne se constituer, sans cette longue période arabo-musulmane. Il y a également le grand arabisant Codira qui, au début du XXème siècle, appelait l'Europe à revisiter l'histoire arabe et islamique. Ne pensez-vous pas Professeur Temimi que la Moriscologie et l'histoire andalouse puissent former un dénominateur commun vers une réconciliation entre l'esprit arabe et l'esprit espagnol et le début d'un hymne nouveau entre Arabes et Espagnols ?

l'absence d'une demande du monde arabo-musulman. Je dois dire aussi que ma relation avec M. Moratinos était cordiale au début, mais à la suite de l'envoi de ma dernière lettre au Roi, il m'envoya une lettre inconvenable et discourtoise qui comportait des paroles menaçantes du type « qui êtes-vous pour parler ainsi au roi ? ». Je publiais cette lettre ainsi que celle envoyée au Roi !.

La conséquence de tout cela est que le monde arabe a perdu une position collective face à cet événement. Et malgré le patrimoine immense qu'a légué le monde arabe à l'Espagne, notamment le patrimoine architectural qui fait la gloire du tourisme espagnol, l'Espagne ne prête pas attention à tout cela, et sa position est injustifiable et inhumaine, à moins d'être, ni plus ni moins, l'expression d'un racisme chauviniste.

J. F. : Il est évident que notre échec en tant qu'Arabes est de ne pas avoir su obtenir ces excuses de la part de l'Espagne. Mais la conscience espagnole souffre d'une crise incurable au sujet de cette page sombre de l'histoire et qui se manifeste de manières différentes : certains essayent d'occulter cette page ou de la survoler vite fait, d'autres tentent de trouver quelques justifications à ce qui s'est passé, ou d'en réduire la portée ou encore d'autres formes d'évasion afin de ne pas reconnaître ce passé, car la reconnaissance aurait des conséquences néfastes pour la réputation de l'Espagne et l'image qu'elle veut donner de son histoire. Il reste que tout cela ne peut cacher la monstruosité du traitement infligé aux Morisques et de leur expulsion. Ce fut la première opération de nettoyage ethnique dans l'histoire moderne !

A. T. : - Ce que vous dites est vrai, la preuve en est que les Espagnols menaient la danse sur les études morisques et andalouses. Ils écrivaient ce qu'ils voulaient, les Arabes étant presque totalement absents. On compte plus de 250 chercheurs espagnols, français et américains travaillant sur les études morisques, contre une vingtaine d'Arabes seulement. Cette branche de l'histoire est complètement dominée par les Espagnols. Avec le troisième congrès que nous avons organisé en 1983 en présence d'un grand nombre de spécialistes, nous avons adopté une nouvelle approche, et méthodologie. Nous n'avons rien contre l'Espagne, bien au contraire, nous respectons l'Espagne, car nous partageons avec elle l'héritage d'une civilisation commune. Les Arabes et les Espagnols sont unis par des contributions mutuelles

centaine de chercheurs européens. Je lançai un appel à l'adresse du roi d'Espagne : Nous avons appris, votre Majesté, que vous allez formuler des excuses pour l'expulsion des juifs d'Espagne. C'est une très bonne chose. Mais ayez à la mémoire, votre Majesté, que les arabo-musulmans aussi sont en droit d'attendre de telles excuses !

Nous ne voulons ni récompenses ni compensations (alors même qu'en Espagne on rassemblait des dons pour compenser les juifs sépharades exilés en Turquie). Nous demandons simplement des excuses officielles et c'est une attitude respectable. Seulement voilà : dans son discours, le Roi fit des excuses aux juifs, leur accorda la nationalité espagnole, alla à la synagogue et vêtit la kippa, mais ne dit rien des musulmans jusqu'aujourd'hui. A la suite de cela, j'adressai une lettre au Roi le remerciant de sa position pleine de noblesse à l'égard des juifs, position qui traduit l'esprit de l'Espagne nouvelle, et lui formulant le souhait de voir une telle position à l'égard du monde arabo-musulman, des excuses officielles pour ces Morisques chassés d'Andalousie avec une extrême brutalité et atrocité.

Ce jour-là, était présent M. Angel Moratinos, ex-ministre des Affaires Etrangères, directeur du département du monde arabe au ministère des Affaires étrangères. Il m'invita et m'informa que le Roi désirait organiser une rencontre a Madinat El-Zahra à Cordoue au cours de laquelle il ferait un discours. Nous étions quatre seulement du monde arabe : le Dr. Mahmoud Ali Mekki d'Egypte, le poète Mahmoud Darwich de Palestine, le Dr. Mohammad ibn Chérifa du Maroc et moi de Tunisie. Il y avait, par contre, pas moins d'une centaine d'Espagnols spécialistes moriscologues et du monde arabe. Le Roi donna son discours qui me peina davantage lorsqu'il affirma que cela : « était la responsabilité du gouvernement espagnol de l'époque ». Il ne formula aucune excuse et ne dit rien sur le drame des Morisques. Cette réunion n'était qu'une couverture médiatique, pas plus. Le roi défendait et prenait prétexte de « la souveraineté et la domination de l'Etat » etc...

J'envoyai une nouvelle lettre au roi où j'exprimai ma déception, le monde arabo-musulman était en droit d'attendre l'annonce d'excuses officielles. En tant que chercheur conscient de ce patrimoine, ayant travaillé sur cette période et connaissant les événements, j'étais en devoir de formuler une telle demande en

survécu, d'autres se sont réfugiés en Tunisie qui en accueillit 100.000 qui reprirent leurs activités et continuèrent à parler leur langue. 25.000 s'installèrent en Algérie et 50.000 à peu près au Maroc. Comme le montre ces chiffres, une majorité choisit la Tunisie parmi les pays du Maghreb, mais aussi Livourne en Italie, Istanbul et même l'Anatolie, et leur trace se retrouve encore en Inde, à Tombouctou et dans plusieurs villes européennes. En fait, la présence des Morisques fut un facteur important d'urbanisation et ils participèrent au développement de la civilisation par l'apport de leur héritage intellectuel et artisanal, tout du moins au Maghreb, et promoteurs d'une modernité au sens noble du terme. En somme, leur influence était profonde et multiple à tous les niveaux.

J. F. : **Les Morisques expulsés étaient-ils tous arabes ? N'y avait-il pas parmi eux des Espagnols convertis à l'islam ? Et si tel était le cas, cela ne voudrait-il pas dire qu'ils furent accablés en raison de leur croyance et non de leur appartenance nationale, et le fait qu'ils aient été espagnols n'a rien changé ?**

A. T. : - A cette époque, il est certain que la plupart de ces Morisques étaient d'origine maghrébine arabe et berbère, et aux XVIIIe et XIXe siècles, on trouva dans leurs maisons des documents en langue arabe, preuve supplémentaire qu'ils étaient d'origine morisque. Aujourd'hui, il existe en Espagne un courant national qui se vante d'être d'origine morisque andalouse et qui compte dans ses rangs des Espagnols convertis à l'islam qui défendent leur héritage morisque et célèbrent à leur manière la chute de Grenade chaque 5 janvier. Où sont aujourd'hui les arabes et musulmans de ces préoccupations et de telles célébrations ? Il y a un déni historique à tous les niveaux, privés ou universitaires, au niveau de la société civile également. C'est cela le déni des sociétés arabes et musulmanes !

Vers la fin de l'année 1991, un mois avant la nouvelle année 1992, nous avons organisé, à l'occasion du cinq-centième anniversaire de la chute de Grenade (1492-1992), un congrès international au moment où des informations nous parvenaient de toutes parts parlant d'un discours que le roi Juan Carlos allait prononcer le 31 mars 1992, par lequel il formulerait des excuses officielles aux Juifs à l'occasion de cet anniversaire qui marque l'expulsion des Juifs de l'Andalousie. L'ambassadeur espagnol en Tunisie était présent à notre congrès à Tunis ainsi qu'une

tribunaux d'Inquisition et les autodafés... A travers ces études, nous avons découvert le rôle des femmes morisques en tant que chefs et guides, car, leur rôle ne se limitait pas à l'éducation des enfants et à l'entretien de leur intérieur, mais elles se chargeaient aussi de tenir les comptes, d'enseigner en matière de théologie, maintenant de la sorte l'identité de cette communauté, sa langue et sa foi. Elles étaient surtout des résistantes et nombreuses étaient celles qui se sont coupées la langue pour ne pas trahir leurs enfants, leurs maris ou leurs proches. Face à l'importance de tels sujets, le silence du monde arabo-musulman est désolant, qui ne connait de l'Andalousie que la cuisine et les tissus. Et je regrette cette attitude négative et indifférente qui n'appelle pas à la reconnaissance et aux excuses officielles même tardives des événements dramatiques qu'ont connus les Morisques.

J. F. : **Les Morisques contraints au baptême forcé maintinrent néanmoins leur foi islamique vivante et continuèrent à pratiquer leur culte en secret jusqu'à ce qu'ils furent découverts et expulsés par la suite. Combien étaient-ils ?**

A. T. : - Un historien espagnol, Raphael De Lera Garcia m'adressa une étude établie à partir de plusieurs documents, me demandant de la lui traduire vers l'arabe. A sa lecture, j'en fus très ému. On sait que les Morisques furent chassés en 1609, mais plusieurs d'entre eux d'une façon ou d'une autre continuèrent à vivre en Andalousie. Des chiffres donnent un million d'expulsés, d'autres, la moitié de ce nombre ou même 300.000 personnes. L'historien français, Henri Lapeyre, qui a écrit sur la **Géographie de l'Espagne morisque**, avance le chiffre de 275.000 expulsés dont la plupart se sont réfugiés au Maroc, en Algérie et surtout en Tunisie ; une autre partie à Istanbul, mais une partie est demeurée en Espagne pour des raisons familiales ou professionnelles. Ceux-ci se convertirent au christianisme en apparence, mais pratiquèrent leur culte en secret, et le Pr. Raphael De Lera Garcia a découvert que cinq prêtres de Grenade, appartenant à ses plus importantes églises, pratiquaient l'islam secrètement, c'était en 1728. Ils furent condamnés et brûlés vifs à l'intérieur de leur église. En relisant cette étude, je ressens toujours la mesure de cette tragédie humaine. Sans oublier que lorsque ces Morisques furent expulsés de l'Espagne en 1609, les Espagnols confisquèrent leurs biens et leur héritage et les abandonnèrent dans des villages déserts, la plupart n'a pas

traité garantissant la liberté de culte pour les populations musulmanes, le respect de leur langue de leur religion et de leurs biens. Deux ou trois ans ne furent pas écoulés que ce traité fut trahi et ils exigèrent des Morisques soit la conversion forcée soit l'exil. La situation devint plus dramatique lorsqu'on leur interdit de parler l'arabe, de se rendre aux mosquées, de se vêtir de l'habit blanc du vendredi et d'autres signes qui les identifiaient (en tout plus d'une cinquantaine de signes). Tous leurs biens personnels furent saisis ainsi que les biens habous qui sont venus enrichir les caisses de l'Espagne ; en outre, plusieurs milliers d'hectares de terres ont été liquidés. Meurtris dans leur culture et dans leur humanité, les Morisques se tournèrent vers la révolte tout au long du XVIe siècle dont la plus grave est la révolte des Alpujarras (1568) où ils affrontèrent l'armée espagnole durant environ deux années, jusqu'à ce que l'un des grands capitaines espagnols, Don Juan d'Autriche, le demi-frère de Philippe II, étouffe la révolte et les Morisques furent dispersés et chassés de Grenade. Ce nouveau drame finit par ruiner toutes les particularités culturelles et faire disparaître toute activité des Morisques tels que les métiers de l'agriculture et de l'artisanat. Plus de 200 villes et villages morisques prospères furent détruits affectant gravement et durablement l'économie de l'Espagne après leur expulsion, selon les dires d'un expert espagnol en économie.

En effet, les Morisques étaient réputés dans le travail d'orfèvrerie, dans l'artisanat, l'agriculture et les techniques d'irrigation, dans le commerce aussi. Mais avec l'afflux de l'or des Amériques après la conquête du nouveau monde, le commerce morisque périclita. Le climat était devenu si délétère pour les Morisques qu'un fils en arrivait à trahir son père et que des membres d'une famille se dénonçaient les uns les autres aux tribunaux d'Inquisition, et toute personne qui portait des signes arabes était jugée. Aussi, rien ne subsista de l'héritage arabo-musulman et des milliers de manuscrits furent brûlés sur les places publiques, certains Morisques parvinrent toutefois à en dissimuler quelques-uns entre les murs de leurs maisons qui ne furent découverts qu'à la fin du XIXe siècle.

Nous avons abordé tous ces sujets lors des quatorze congrès organisés depuis les années 83, afin de mieux connaître l'étendue de ce drame. Depuis, nous avons publiés plus de 650 études aujourd'hui sur l'histoire et la littérature morisques, sur les

visiter les quartiers et les mosquées... Depuis la tenue de ce congrès en 1983, mon intérêt s'est accru pour l'histoire des Morisques andalous et nous continuons à organiser régulièrement des congrès chaque deux ans. Le quatorzième d'entre eux a été consacré au 400ème anniversaire de l'expulsion des Morisques de leur terre andalouse (1609 - mai 2009). Le 15ème aura lieu à la fin du mois de mai 2011.

Cet intérêt s'est traduit par une inlassable collecte de données diverses qui nous a conduit à constituer une discipline nouvelle qu'on a appelé ***Moriscologie***; elle couvre les 120 années de l'expulsion et les périodes qui ont suivi avec la présence arabo-musulmane en Andalousie.

J. F. : Voyez-vous une différence entre les récits espagnols de l'histoire morisque et les autres récits, notamment ceux des arabes et des musulmans ? Et comment interprétez-vous le point de vue de ces derniers ?

A. T. : - Ce qui m'a surpris lors du congrès de Montpellier, c'est que l'un des imminents chercheurs et historiens présents a affirmé dans son intervention que les registres des tribunaux d'Inquisition et autres rapports ne laissaient pas entendre que les Morisques furent brûlés vifs, affirmant avec certitude qu'ils « furent tués et ensuite brûlés », alors que les documents, les témoignages et toutes les preuves, confirment qu'ils furent brûlés vifs ! C'est une vision étriquée et un manque d'impartialité flagrant. C'est un sujet sensible à la conscience espagnole à la mesure du drame des Morisques, une des plus grandes tragédies de l'humanité égale aux drames de l'histoire contemporaine notamment celui du peuple palestinien. Pourtant, ce peuple arabo-musulman et sa civilisation, établis durant plus de huit siècles sur la péninsule ibérique, ont marqué de leur empreinte espagnole l'histoire de l'Espagne, de son héritage culturel et architectural à portée mondiale qui est toujours vivace et continue d'attirer 50 millions de touristes chaque année. Mais le fanatisme et l'intolérance ont mis fin à cet héritage culturel et l'Espagne s'abimait dans un catholicisme sectaire et fermé et s'acharnait à faire disparaître tout ce qui n'était pas catholique.

Ainsi, le fanatisme a anéanti une communauté aux facettes multiples ; le dernier émir de Grenade, Abu Abdallah, avait pourtant négocié, contre l'abandon de la ville aux Espagnols, un

chercheurs arabes à travailler sur les archives ottomanes pour y mener mes recherches doctorales sur l'histoire de l'Algérie, de la Tunisie et la Lybie. J'y trouvai d'importants documents évoquant le sujet des Morisques à l'époque ottomane, notamment une lettre adressée par la population de Grenade au sultan Soliman le Magnifique, et d'autres envoyées par la Sublime Porte au Doge de Venise et à la Reine Catherine de Médicis, alors régente de la France. Je saisis assez vite l'importance de ces documents, surtout que de l'avis unanime des historiens dans ces années-là, l'histoire des Morisques se basait exclusivement sur des sources espagnoles, à savoir les documents des tribunaux d'Inquisition qui nourrissaient une haine sans bornes aux Morisques andalous ; de même que ces historiens affirmaient tous que ce qui manquait à l'écriture de cette histoire, ce sont les données des documents ottomans et arabes. A partir de là, je m'attelais pleinement à ces documents et j'en publiais quelques études. Par le fait du hasard, au même moment, un grand chercheur historien, Louis Cardaillac, publiait sa thèse doctorat sur l'histoire des Morisques, précisément sur l'affrontement polémique entre Morisques et Chrétiens en Andalousie. Je m'empressai de lire la thèse, et j'en fus si admiratif que je décidai de la traduire du français vers l'arabe et de la publier.

Et lorsque je discutai avec Louis Cardaillac, il m'informa qu'un premier congrès devait se tenir sur l'histoire des Morisques andalous à l'université de Montpellier, dont il était membre, influent vers la fin de l'année 1981, ce qui était en soi une nouveauté et un événement d'importance. J'assistai à ce congrès avec quelques autres chercheurs arabes, la plupart des participants étaient espagnols et américains. Mais quelle ne fut pas ma surprise lors de ce congrès en entendant les analyses et les avis d'historiens occidentaux dont les approches méritent d'être plus nuancées. Ceci m'a incité à lancer une invitation à ces chercheurs et historiens spécialistes de l'histoire morisque à venir en Tunisie afin d'y participer au deuxième congrès sur les études morisques.

En effet, ce congrès fut tenu en Tunisie, pays qui offre l'espace propice à un tel sujet et permettait à ces chercheurs, cantonnés généralement dans leurs universités, leurs bibliothèques et leurs centres d'archives espagnoles, d'être en contact et de considérer les particularités de cet espace géopolitique arabo-musulmane, de

élaborée par l'historien hispagnol Raphaël Dolero Garcia et publiée dans son ouvrage : **Nouvelles études d'Histoire Morisque**, 230p, Zaghouan 2000, que cinq des grands prêtres de Grenade, longtemps après sa chute et plus précisément après 119 ans, ont été condamnés au bûcher, vivants lorsqu'on découvrit qu'ils n'étaient chrétiens qu'en apparence et qu'ils continuaient à pratiquer leur foi musulmane en secret.

La page morisque est considérée comme une page dramatique à l'échelle humaine dans l'histoire arabe et mondiale. Un peuple arraché par la force à la terre sur laquelle il vivait depuis huit siècles, depuis l'an 711 (92 de l'hégire) et jusqu'en 1609, et qui fut contraint, pour ce qui en restait, de se convertir à une autre religion, ce qui d'ailleurs était contraire à l'accord passé entre les deux rois catholiques et Abu Abdallah, émir de Grenade, au lendemain de sa chute. En empruntant une expression courante à notre époque, nous pouvons dire que l'exil forcé qu'ont subi les Morisques andalous de la part des autorités espagnoles, peut être considéré comme le premier nettoyage ethnique dans l'histoire moderne aussi atroce que ceux survenus à l'époque contemporaine, notamment ce qui se passe en Palestine aujourd'hui.

Dans cet entretien, le professeur Abdeljalil Temimi, fondateur et directeur de la ***Fondation Temimi pour la recherche scientifique et l'information à Tunis***, nous apprend que l'Espagne en la personne du roi Juan Carlos, a présenté des excuses officielles aux Juifs pour ce qu'ils ont subi de la part des autorités espagnoles au lendemain de la chute de Grenade, alors qu'elle refuse toujours d'en faire de même au monde arabo-musulman pour ce qu'ont subi les Morisques, descendants de ces Andalous sans qui, selon Américo Castro, grand historien espagnol, l'histoire contemporaine de l'Espagne n'aurait pu se dérouler de la manière que nous connaissons.

J. F. : A quel moment l'intérêt du professeur Temimi pour les Morisques a-t-il commencé ? Ça a été la première des questions adressées, et il m'a répondu :

A. T. : En vérité, mon intérêt pour l'histoire morisque remonte à plus de quarante ans, lorsque je travaillais aux Archives du Başbakanlınk Arsivi (Archives de la Présidence de Conseil à Istanbul) en 1966. A l'époque, j'étais je crois parmi les premiers

LE PR. ABDELJELIL TEMIMI (A.T) ET JIHAD FADEL (J.F) FACE A FACE IN REVUE AL-ARABI – AVRIL, 2010

Préambule :

J. F : Cet entretien avec l'historien tunisien, le Pr. Abdeljelil Temimi, rappelle une triste page de notre histoire en Occident musulman, l'histoire des derniers temps de l'Andalousie ou la page de l'histoire des Morisques. Suivant la définition de Lévi Provençal dans la première édition de l'Encyclopédie de l'Islam, le terme 'Morisque' « désignait les musulmans demeurés en Espagne après la prise de Grenade le 5 Janvier 1492 par les rois catholiques, Ferdinand et Isabelle, et l'effondrement du pouvoir des derniers émirs des Bani Nasr ». Cette définition limite quelque peu la dynamique de ce terme ; quoique formulée dans une langue bien élaborée, il serait intéressant de voir la définition que donne le 'Dictionnaire de l'Académique royale espagnole' du terme morisque : « nom donné aux arabes musulmans qui sont restés et se sont fait baptiser après la reconquête de l'Espagne ». Cette définition rappelle la caractéristique essentielle des Morisques : ce sont des chrétiens baptisés. Néanmoins, elle omet de mentionner que le baptême de ces musulmans ne résulte pas d'un libre choix ; il n'est pas étonnant dès lors que la plupart d'entre eux continuèrent à exercer leur religion, ou comme l'affirme l'une des accusations d'un tribunal d'Inquisition : « leur foi n'est pas moins grande que celle des musulmans d'Alger ». Mais doit-on ajouter qu'ils étaient des musulmans de nature particulière : des musulmans en secret ! Leur foi est demeurée vive dans leur cœur même après avoir été convertis de force au christianisme et après que certains de leurs enfants furent contraints, de peur, d'intégrer les écoles catholiques. Ils allèrent même jusqu'à se choisir des prêtres et des curés chargés des offices religieux publiquement. Mais dans la solitude de leurs foyers, ils pratiquaient leur culte musulman dans le secret, et le professeur Abdeljelil Temimi nous révèle dans cet entretien, à la base de documents des tribunaux d'Inquisition, d'une étude

Morisques vivante et dynamique dans l'esprit arabo-musulman depuis 30 ans.

* * *

Par ailleurs, nous voudrions ajouter que lors du 14ème congrès qui s'est déroulé en mai 2009, nous avions annoncé la création d'un Centre d'Etudes et de traductions morisques (CETM) au sein de la Fondation, afin d'initier un mouvement de traductions de documents et de thèses diverses et autres vers l'arabe ; et à cet effet, nous avions lancé un appel à soutenir ce projet innovant auprès de plusieurs autorités politiques arabes et non arabes et nous espérons par ce fait encourager des projets semblables dans d'autres pays arabes, plus immédiatement concernés par l'histoire andalouse. Mais, notre appel est resté lettre morte ; pourtant, aussi invraisemblable que cela puisse paraître, des instituts européens et américains ont bénéficié de larges dons sans même chercher à s'instruire sur leur registre intellectuel ou leurs réalisations scientifiques ni comment ces aides considérables reçues de riches personnalités et de gouvernants arabes depuis la deuxième moitié du XXème siècle ont té employées.

Nonobstant ces attitudes, nous poursuivons notre projet en lui consacrant toute l'attention et l'effort qu'il mérite. D'ailleurs, le premier livre de cette série est paru il y a quelques semaines du Pr. Mohammad al-Aouini de l'université de la Manouba (Tunis) sous le titre : Al-Andalus, perla de los musulmanes y causas de su desaparición. L'actuel ouvrage est le deuxième qui vient de paraître dans le cadre des publications de ce centre. Nous continuons à veiller, tant que les moyens nous le permettent, de confier à des chercheurs habilités la traduction en arabe d'un certain nombre de travaux, de documents et de thèses universitaires sur l'histoire morisco-andalouse.

Ceci est notre message que nous nous efforçons aujourd'hui et demain de transmettre au plus grand nombre aussi longtemps que nous aurons un souffle de vie et une foi inébranlable en la grandeur et la richesse de l'histoire de cette civilisation andalouse qui honore les arabes d'aujourd'hui et l'humanité dans son ensemble. C'est ainsi occulter cette mémoire et le drame des Morisques n'a de mérite pour personne et porte plutôt atteinte aux valeurs humaines et au sens même d'une civilisation.

Tunis, le 5 janvier 2011

formuler des excuses officielles. Malgré cela, nous continuons à faire parvenir notre message pour que l'Espagne se décidera à formuler un pardon officiel qui, nous en sommes convaincu, finira par arriver tôt ou tard.

****

Notre nouvelle publication comprend 4 études traitant de la question des impacts de la civilisation morisque sur la Régence de Tunis, en passant par la qualité linguistique à travers des nouveaux firmans ottomans, ainsi que l'exposé de la production et des orientations à venir des Etudes morisques à travers le monde, pour conclure la partie sur l'occultation de cette question sensible de l'injustice subie par les Morisques dans le passé par les tribunaux d'Inquisition, et aujourd'hui par les arabes et musulmans, que ce soit des autorités ou de l'opinion publique et même des intellectuels et des institutions, qui s'évertuent à effacer tout un pan de la mémoire collective et l'occulter dans les programmes scolaires et jusque dans les traits de leur civilisation.

La deuxième partie de l'ouvrage a été consacrée à la traduction en arabe de quelques études très importantes d'historiens que nous avons connus de près et reconnus dans la spécialité. Ce choix, parmi des centaines d'études déjà publiées en français et en espagnol dans les actes de nos congrès tenus dans la Fondation, nous a été dicté par la pertinence de leurs données, comme celles qui traitent des pratiques de divination chez les Morisques, ou les cultes musulmans face aux rituels chrétiens, les particularités de la langue morisque, ou encore une étude consacrée à la grande figure morisque Al-Hajari, un savant versé dans la théologie chrétienne et qui s'est distingué dans des polémiques de haut niveau avec des hommes de religion chrétiens éminents de l'époque.

Quant à l'étude qui aborde la problématique de la foi et l'affrontement des tribunaux d'Inquisition à Valence, elle nous permet de mieux appréhender cette problématique importante et ses portées. Une autre étude traite des caractéristiques de la calligraphie arabe comme expression du sacré et du sublime à laquelle étaient très attachés les Morisques dans leurs textes littéraires. La dernière de ces études revient à l'éminente spécialiste en Moriscologie, Pr. Luce Lopez Baralt de l'université de Porto Rico, qui s'y arrête pour présenter le travail de la Fondation dans le maintien et la conservation de la mémoire des

Notre intérêt continu à ces études spécialisées sur les Morisques a rencontré un certain écho auprès de l'opinion arabo-musulmane. En effet, on a tâché de diffuser le plus largement ce capital d'informations diverses à travers les moyens modernes comme le net et de faire parvenir notre message à tous, et notamment au moment de rappeler l'histoire dramatique de l'expulsion des Morisques de leur terre d'Andalousie, et de faire prendre la conscience arabo-musulmane de cette mémoire. A cette occasion, nous avons sollicité l'attention des hautes autorités espagnoles sur ce drame et appelé à une reconnaissance sous forme d'un pardon face à ce qu'ont subi les Morisques d'injustice et de violence de la part des tribunaux d'Inquisition. Nous avons évoqué cette question précédemment avec M. Jahed Fadhel dans un entretien auquel on a joint les lettres qu'on avait adressées à sa Majesté le Roi d'Espagne Juan Carlos, à son premier ministre et à l'ancien ministre des Affaires Etrangères, ainsi que le texte des quelques réponses qui nous sont parvenues et qui reflètent une certaine obstination des autorités espagnoles à mésestimer cette question et un refus absolu à l'idée d'un pardon à l'égard de l'expulsion des Morisques. Néanmoins, comme me l'avait indiqué l'ambassadeur espagnol en Tunisie, Juan Ramón Martinéz Salazar, l'Etat espagnol serait prêt à le faire à condition qu'il y ait un consensus global soutenu par la Ligue arabe, par l'Organisation de la Conférence Islamique, par l'ISESCO et l'ALECSO par exemple, qui formuleraient une demande à un pardon officiel et public, à l'instar de ce qui se passa à Lisbonne en présence du Président Portugais et de nombreux officiels arabes et musulmans.

A la suite de l'intervention de l'ambassadeur, nous avons adressé plusieurs lettres aux organisations arabes et islamiques, à savoir au Secrétaire Général de la Ligue Arabe et de l'Organisation de la conférence Islamique ainsi qu'à ceux de l'ISESCO et de l'ALECSO, en leur exposant les éléments de ce dossier. Mais jusqu'à aujourd'hui, nous n'avons eu comme réponse qu'un silence délibéré, et c'est bien regrettable. Les dirigeants et responsables arabes et musulmans semblent ne pas avoir conscience de la responsabilité historique qu'exige une telle question, position qui n'est pas à la hauteur et la dignité d'une grande héritage comme celui de l'Andalous ; ainsi, aucun d'entre eux n'a formulé de demande en ce sens auprès des autorités espagnoles qui, pour leur part, n'ont vu aucune nécessité à

DEMARCHES POUR UNE PRISE DE CONSCIENCE PLUS LARGE ET UN APPEL AU PARDON DE L'ESPAGNE

Depuis 1972, nous tâchons de dynamiser et de stimuler l'intérêt pour les études morisco-andalouses par de nombreuses publications de documents nouveaux, trouvés aux Archives de Baskelet Arsivi d'Istanbul, puis aux Archives de Venise, de Florence, de Paris, et dont certains ont été publiés dans mes précédents ouvrages. Au-delà, 14 congrès internationaux ont consacré l'intérêt que nous portons aux Etudes Morisques, un quinzième se tiendra à la fin du mois de mai de cette année 2011. Indéniablement, ces activités ont permis de connaître un grand nombre de chercheurs et d'historiens des générations ancienne et plus jeune à travers le monde arabe, l'Europe, l'Amérique, l'Inde, le Pakistan, la Russie, le Japon qui ont participé activement aux congrès organisés à Zaghouan et à Tunis. Il s'ensuivit la publication de plus de 650 études essentiellement en langue espagnole et française, mais moins en langue arabe pour des raisons multiples.

Aujourd'hui, je me remémore l'état dans lequel étaient les études morisques 40 ans auparavant où dans le monde arabo-musulman on comptait sur le bout des doigts les chercheurs qui s'intéressaient à l'époque morisco-andalouse, c'est à dire de la chute de Grenade en 1492 jusqu'à l'expulsion des musulmans d'Andalousie en 1609, alors qu'on en dénombrait plus de 200 européens et américains, spécialistes de cette période délicate de l'histoire de l'Andalousie à laquelle ils ont consacré des centaines de thèses de doctorat aujourd'hui encore à l'état manuscrit et conservées dans les bibliothèques universitaires espagnoles, françaises et autres. Nous sommes d'ailleurs redevable au Professeur français Louis Cardaillac, pionnier des Etudes morisques, de son aide précieuse qui nous a permis de constituer et de publier la *Bibliographie générale d'études morisques,* à travers laquelle on a cherché à répertorier et élargir ces études au niveau arabe et mondial, afin d'attirer l'attention des chercheurs et historiens européens et américains sur l'existence des fonds considérables et nouveaux dans les archives ottomanes et arabes susceptibles d'être utilisés dans des futures recherches, aspect complètement occulté auparavant, jusqu'en 1983.

Partie arabe

TABLE DES MATIERES

Partie française

A l'un des bâtisseurs de la Tunisie

le chercheur **Mustafa Filali**

En reconnaissance de son dévouement

au service du pays depuis 60 ans

Que Dieu lui préserve la santé

pour accomplir sa mission

- **Recherches et documents d'histoire maghrébine : L'Algérie, la Tunisie et la Tripolitaine (1816 - 1871)**, 333p, 1er édition. Publications de la Faculté des Sciences Humaines et Sociales de l'Université de Tunis, 1971 ; 2ème édition, 206p, Tunis, 1979.
- **Ibidem**, en langue arabe.
- **Le Beylik de Constantine et Hadj Ahmed Bey (1830 -1837)**, 303p + 24 planches, Tunis, 1978, 303p.
- **Sommaire des registres arabes et Turcs d'Alger**, Tunis, 1979.
- **Ibidem**, en langue arabe.
- **Le Gouvernement ottoman et le problème morisque**, 185p, 1989.
- **Etudes d'histoire morisque**, 168p, Fondation, Février, 1993.
- **Etudes d'histoire arabo-ottomane 1453-1918**, 206p, Mars, 1994.
- **Etudes d'Histoire arabo-africaine**, 168p, Pub. de la Fondation, Octobre 1994.
- **Bibliographie générale d'études morisques**, 370p, Mars-Avril, 1995.
- **Ecrits et mémoires politiques du militant Youssef Rouissi**, 316p, Publications de la Fondation, Avril, 1995.
- **Etudes sur les relations islamo-chrétiennes**, 233p, Publications de la Fondation, Décembre, 1996.
- **Correspondances du Grand Vizir Khayreddine : l'Histoire tunisienne entre la réalité et les interprétations erronées**, Tome 1, 290p, Zaghouan, Juin, 1999.
- **Crise de la recherche en sciences humaines en Tunisie et dans les Pays Arabes**, 194p, Zaghouan, Octobre 1999.
- **Etudes et documents d'histoire maghrébine à l'époque moderne**, 350p, Zaghouan, Octobre 1999.
- **Histoire générale des Arabes entre ambitions et échecs**, 226p, Zaghouan, Décembre 1999.
- **Nouvelles études d'histoire morisque**, 230p. Zaghouan, Juillet 2000.
- **Etudes sur les relations arabo-ottomanes et turques**, 278p, Novembre, 2000.
- **Correspondances du Grand Vizir Mustapha Khaznadar à Khayreddine (1850-1874)**, Tome 2, 230p, Décembre 2000.
- **Etudes sur la pensée et la politique bourguibiennes**, 290p, Mars 2004.
- **Etudes sur l'histoire du Maghreb ottoman au XVIe siècle**, 304p, Mai 2009.
- **Nouveaux éclairages sur des figures maghrébines Abdelkader, A. El-Khattabi, H. Bourguiba, A. Fassi et d'autres**, 349p, Avril 2010.
- **Tragédie de l'expulsion morisque : Attitudes espagnoles et arabo-islamiques**, Tunis, Janvier 2011, 261p.

Thèses traduites du turc et du français en langue arabe :

- E. Kuran, **La politique ottomane face à l'occupation française d'Alger (1827-1847)**, 1ère édition, Publications de l'Université de Tunis, 1970 ; 2ème édition, 110p, 1974.
- A. Cayci, **La question tunisienne et la politique ottomane 1881-1911**, 331p, Tunis, 1974.
- L. Cardaillac, **Morisques et Chrétiens : Un affrontement polémique 1492-1640**, 2ème édition, 199 p. Pub. de la Fondation, 1989.

Série 4 : Etudes d'Histoire Morisque N° 29

Tragédie de l'expulsion morisque : Attitudes espagnoles et arabo-islamiques

Sous la direction du
Prof. Emérite Abdeljelil TEMIMI

Publications du Centre d'Etudes et de Traductions Morisques
Fondation Temimi pour la Recherche
Tunis, Février, 2011

Publications
de la Fondation Temimi pour la Recherche Scientifique et l'Information (FTERSI)

Directeur-Fondateur
Abdeljelil TEMIMI
Prof. Emérite à la Faculté des Sciences Humaines et Sociales de l'Université de Tunis

Des objectifs de la FTERSI :

- La création d'un centre d'information d'histoire du mouvement national tunisien et maghrébin d'histoire et d'Archéologie ottomanes et morisco-andalouse, de documentation, d'archive, de Recherche Scientifique, de dialogue de cultures, de civilisation et religions et de modernisation politique, économique des pays arabes ; la création d'une banque de données bibliographiques relatives à ces sujets, enrichie par un fonds personnel du Prof. A. Temimi, évalué a vingt mille titres aujourd'hui.

- La consolidation des liens de collaboration scientifique entre les chercheurs, toutes nationalités confondues.

- La FTERSI veille à la publication de trois revues académiques suivantes :

Revue d'Histoire Maghrébine, (RHM), depuis 1 janvier 1974, et dont les numéros 139 et 140 ont paru en juillet 2010 ; ***l'Arab Historical Review for Ottoman Studies (AHROS)*** dont les nos 41 et 42 viennent de paraître au mois de décembre 2010 ainsi que ***la Revue Arabe d'Archives, de Documentation et d'Information (RAADI)*** dont les numéros 27-28 viennent de paraître en décembre 2010.

La Fondation a publié 177 titres dans diverses disciplines en sciences humaines et sociales et a organisé 222 congrès arabes, internationaux et séminaires, auxquels ont pris part des centaines de spécialistes ; c'est ainsi que la Fondation est devenue désormais, l'un des dynamiques laboratoires scientifiques privés en sciences humaines et sociales dans le monde arabo-musulman et sur le plan international.

Tragédie de l'expulsion morisque : Attitudes espagnoles et arabo-islamiques

:tudes d'Histoire Morisque N° 29

Prof. Emérite Abdeljelil TEMIMI

Tragédie de l'expulsion morisque : Attitudes espagnoles et arabo-islamiques

ıblications du Centre d'Etudes et de Traductions Morisques
Fondation Temimi pour la Recherche
Tunis, Février, 2011